

ماكسيم موريتي

# حياة

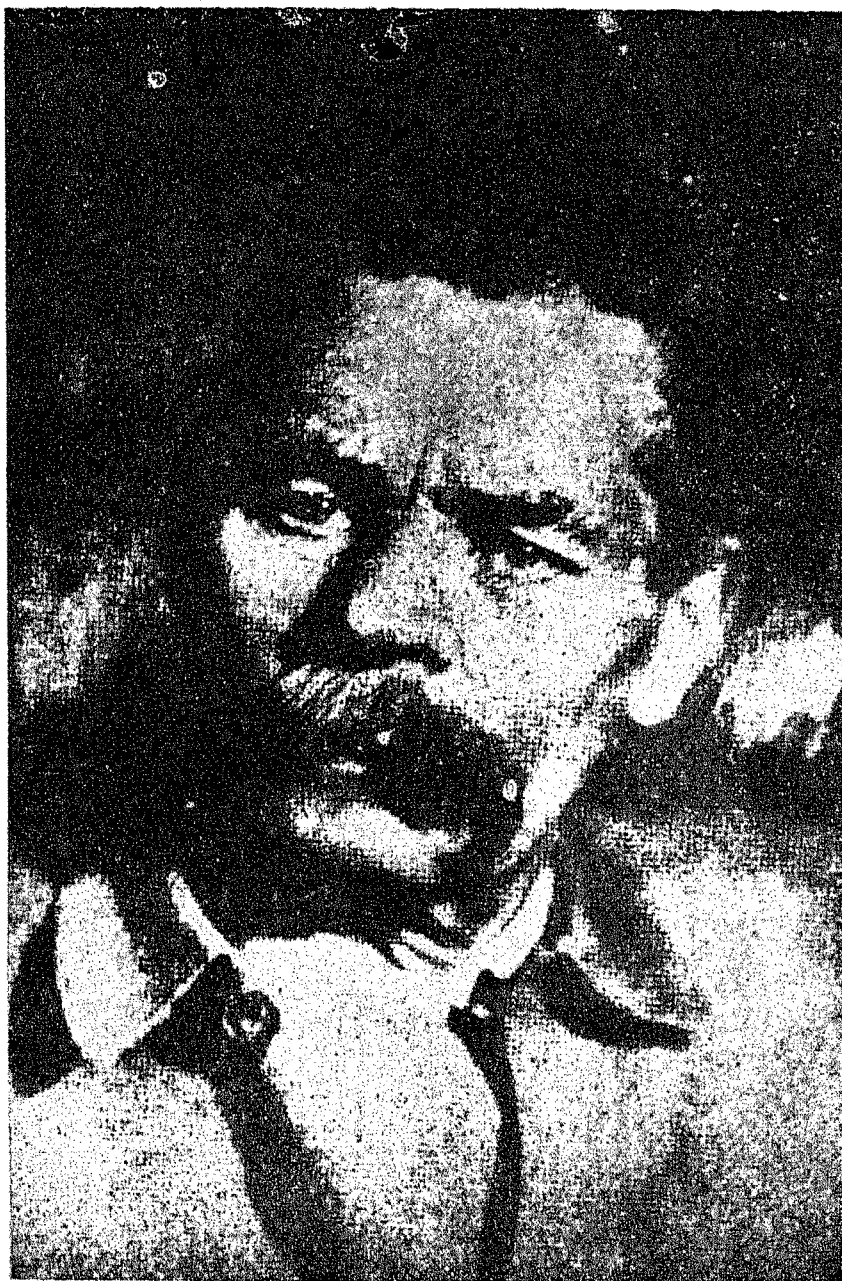
ترجمة

خليل حني

دار المعرفة

للطباعة والنشر

بيروت - لبنان



## المقالة الثانية

ان نسبة استيعاب الاثر الأدبي للحياة ، على اختلاف وجوها وأساليبها ،  
تحدد مدى الفعالية الانسانية له ، ونقيس درجة بلوغه من المدد الزمني ، بلوغاً  
يقرر له الخلود أو الاندثار .

والعمل الأدبي الذي يكتب له البقاء ، لا تنال منه الإرادات الشريرة ، ما  
يمكنه من التغلب عليها ، ولا القيود إن كبلته تحول دون انطلاقه إلى الأجواء  
التي ينمو فيها ويشعر. الأجواء البعيدة عن حقارة التشبث بتلابيب الواقع الحسي ،  
الذي تركد فيه المشاعر وتأسن . فتتجمد النظرة الى الحياة في بؤر الخنوع  
والاستكانة .

ان الأدب الأصيل المتفجر أبدأ بالحياة ، ريبب سننها بالتجدد المستمر الدائب  
على العطاء الخيّر ، في صراع مع اللوالب التي تدور حول محور ثابت ، وتختلط  
فيها ألوان النزوع والرغبات . وتفقد كل نكهة ذاتة ..

وكان ( مكسيم غوركي ) أصدق مثال لهذا ، فقد شاء ان ينقل صورة أمة  
بأكملها من خلال صورة حياته .. حياته التي ترتبط بكل نظرة مكبوتة في أعين  
الشعب الروسي ، وتنبثق من كل لطفة تمور في كل خاطر حرّان لفجر جديد ،  
تتسع آفاقه وتضج بالنور. الذي يضيء سبل الصعود إلى ما هو أسمى وأحق ..

ان المعاني الانسانية التي يكابد من اجل الفوص إلى أعماقها ، جعلته كادحاً  
كبقية الكادحين الذين ، كان يعدو لاهثاً وراء المباعث التي تسبب شقاءهم . لقد كان  
يندس في حنايا كهوفهم المظلمة ويتعلق بالحبال الواهية التي كانت تشد زوارقهم  
الى صخور الشاطئ .. كان إنساناً يعيش واقع كل منهم ويؤثر ان يذوق ما  
يذوقونه من مرارة البؤس والحرمان من غير ان ينسى ان نظراته ما زالت ممتدة  
الى البعيد . ترتعش فيها آماله المكتومة ، التي هي في نفس الوقت . آمالهم  
وأحلامهم المتواضعة البسيطة ..

ان « غوركي » في الصميم عانى تجربة الحياة ، ومن الصميم ينقل رؤياه  
والصميم منا أخيراً كان يرمي .. فأصاب ..

المترجم

لقد استلقى والدي على الأرض تحت نافذة غرفة صغيرة داكنة قد ازدحت بالغبار ، وقد بدا لي طويلاً بشكل يلفت الانتباه ويثير الدهشة ، وقد اكتسى البياض من أعلى رأسه حتى قدميه . وقد انفرجت أصابع قدمه الحافية بشكل غريب ، وتباعد ما بينها بحركة تشنجية ، وبدت أصابع يديه اللطيفتين ، ملتوية بعناد فاضح ، وقد التف حول عينيه إطار مغلق ، وقد أصبح وجهه شديد الزرقة ، وقد راعني بصورة خاصة انكماش أسنانه الإصطناعية وبروزها بين فكين متوترين .

وقد جلست بالقرب منه والدي النصف عارية في تنورتها الحمراء القصيرة ، مهتمة بتسريح شعرها الطويل الحريري ، المتدلي بعناد على جبينها ، بمشط أسود قد اعتدت استعماله كمنشار احزبه قشر البطيخ ، وكانت تنتم بأشياء كثيرة مبهمة بصوت مبجوح .

وكانت جدتي - امرأة نحيلة الجسم ، كبيرة الرأس ، بارزة العينين ، وقد برز انقها بشكل يدعي الى الهزاء والتهكم - تمسك بيدي ، وكانت كثيرة النعومة ، عظيمة الكتابة ، وكل شيء فيها فائق الفئنة ... وكانت أيضاً تدرف الدموع ، بطريقة خاصة تشكل لحناً عذباً يصطحب بكاء أمني . وكانت تهتز كلياً ، وهي تدفع بي باصرار نحو والدي ، بيد انني كنت أعود الى الوراء . وأبجت عن ملجأ لي خلف تنورتها ... لقد كنت خائفاً ومنزعجاً في وقت واحد .

انني لم ابدأ الكبار بيبكون من قبل ، ولم اكن افهم معني لتلك الكلمات التي اخذت جدتي تردها على مسمعي :

- تقدم ودع والدك ، لأنك لن تشاهده بعد الآن . لقد مات . يا عزيزي . ذهب قبل ان يحل اجله ، قبل ان تدق ساعته ...

كنت قد شفيت حديثاً من مرض عضال الزماني الفراش فترة طويلة ، زارني اثناءه والدي ، وما زلت اذكر جيداً . وبدأ يلاعبني ويمارحني في شيء من المرح والسعادة . بيد انه توارى ، فجأة ، واخذت مكانه هذه المرأة الغريبة ، جدتي ا

سألها :

- هل سرت كثيراً حتى بلغت هذا المكان ؟

فأجابتي :

- انني لم أسر ، بل ركبت ! فانك لا تقدر السير على وجه الماء ، ايها الفاسق الصغير ! لقد نزلت من نيجي نوفجورود ، من فوق ...

لقد كان هذا الكلام مبهماً بالنسبة إلي ، وان ترك في نفسي اثراً مضحكاً : كان يقطن القبولكليكي أصفر البشرة يعمل في تجارة الجلود ، جلود الغنم ، وكان في مقدورك ان تنزل اليه بالترحلوق على حافة السلم ، أو تدحرجاً إذا زلت بك القدم ، بيد ، ما دخل المياه في هذا الموضوع ؟ إنها سخاظة ، هي تخلسط بين الأشياد بشك كل غريب .

نقلت :

- لماذا تناديني بالفاسق الصغير ؟

ندوى جوابها الضاحك .

- لأنك كبرت كثيراً .

كان اسوأها في الكلام لطيف ، جميل ... لذلك أصبحت ، جدتي سديتين عميمين ، منذ اليوم الاول الذي التقينا فيه . أما الآن فالقلق يسيطر علي ، وأريد ان تخرج معاً من هذه الغرفة بأقصى سرعة .

كانت دموع امي تثير في مخاوف غريبة لا تحصى ، فللمرة الاولى اشاهدها في تلك الحال .. فهي واجبة صامتة دائما ، أنيقة الهندام دائما ، عريضة الكتفين ، متينة الجسد قويته ... بيد انها الآن أصبحت مترهلة الأعضاء ، وهندامها لا يبعث الارتياح ، مشعثة ، مهترئة الثياب ، وقد تبعثر شعرها على كتفيها العاريتين وانقلت منه خصلة راحت تدغدغ وجه ابي النائم . ولم تنتبه لي مطلقاً فقد شغلها عني تصفيف شعر زوجها ، وانهار الدموع عليه .  
وفجأة فتح الباب ، ورمى الجندي وبعض الفلاحين بنظرة عجلى على العرفة ، ثم صاح الفقير بمجدة :

— اسرعوا ، وخذوه خارجاً !

كان النطاء الاسود اللون المنسدل على النافذة ، ينتفخ بسبب مجرى الهواء ، كأنه شراع قارب صغير ، ذكرني بما جرى لي ذات يوم عندما رافقت ابي في تزهة على متن قارب شراعي ، ودوت عاصفة من الرعد فجأة . ففقهه وضمني بين ركبتيه وقال .

— لا تخف ، فلا بأس عليك ، يا بني !

وعلى حين غرة ، تحاملت أمي على نفسها بصعوبة ، ثم ما لبثت أن هوت على الارض ، فالتفت شعرياً ، انزوت وجهها . وتواوى منه كل مهتر ، والتحمت اسنانها كالقمام اسنان ابي قماماً .

قالته في هوته مخوف وشي قلته .

وه انتفخ الباب . وانخرجني انكسري .

تدثمتني جهدة . جازبا ، ردي نفسي . باتجاه الباب .

ثم صاحت :

— لا نلقها ، أيها الطييون ! لا تلمسها ا اذهبوا ، عيبة بالمسيح ! انها ليست

توليرا ، بل ابتداء آلام الخاض .

تواريت خلف صندوق الملابس في زاوية ممتدة ، انطلع إلى أمي وهي

تتلوى ، وتشد على اسنانها ، فيما كانت جدتي ترقمي على الارض بجانبها وهي  
ترقل بلطف وجذل :

— باسم الآب والابن ؟ تشجعي يا فياريوشا ، يا أم الاله الحنون ، ارحمينا ...  
كنت وجلا . فقد كانت جدتي وأمي تواتران الحركة والتلعل على الارض  
بجانب ابي ، الراقد من غير حراك في مكانه ، تلتطيان الوجنت أسفاً عليه ،  
واحياناً تلامسان جسده البارد .

تواتر هذا المنظر فترة طويلة ، وامي تحاول الوقوف على قدميها ، لتسقط من  
جديده على الارض ؛ في حين اخذت جدتي تذهب وتجيء داخل الغرفة  
وخارجها . وانا ساكن لا ادرك معنى ذلك الاضطراب ... وفجأة ، علا بكاء  
طفل صغير في الظلمة ...

فتنفست جدتي الصعداء ، وهتفت :

— حمداً لله ! إنه صبي !

واشعلت قنديلا ...

لا شك انني استسلمت لسنة من النوم وانا قابض في زاوية الغرفة ، لأنني لم أعد  
أذكر شيئاً مما جرى بعد ذلك .

أما ثاني ذكريات حياتي فكانت بقعة مهجورة في مقبرة . في يوم ماطر...  
كنت اقف فوق رابية واطئة من الارض ، وكان التراب موحلاً ، أقامل تلك  
الحفرة التي واروا فيها نعث ابي . كان قاع الحفرة مملوءاً بالماء والصفادع . وكنا  
نقف جماعة مؤلفة من جدتي والغفير وفلاحين يحملان معموليها وانا ، وقد تساقط  
الغيث بشكل بديع ...

صاح الغفير وهو يبتعد .

— انزلا عليه التراب !

فانهمرت الدموع من عيني جدتي ، واثنتي الفلاحان وهالا الدفعة الاولى من  
الوحل في الحفرة ، فتناثر رذاذ الماء ، واندفعت الضفدعتان تقفزان على جوانب  
القبر طلباً للنجاة . فتصدما دفعات التراب من جديد الى اعماق الحفرة .



ربتت جدتي على كتفي ، وهتفت :

— لنعد يا يوشا !

فتخلصت من يدها . آبياً العودة .

فندت عنها تنهدة اثارث في بعض الارتباب :

— آه يا ربي !

تري ، أشكواها مني أم من رب السماء ؟

بقيت ساكنة في مكانها مدة طويلة ، حانية الرأس . وقد لبثت مكانها ولن تتحرك قيد انملة ، حتى بعد ان مهد الفلاحان سطح الارض بموليهما ؛ وهبت الرياح حاملة معها الغيث بعيداً . فأمسكت جدتي بيدي ، وقادتني إلى كنيسة قريبة تقوم بين غابة من الصلبان السود .

وبعد ان خرجنا من المقبرة ، التفتت جدتي إليّ مستفسرة :

— لماذا لا تبكي ؟ ينبغي ان تبكي قليلاً !

فأجبتها :

— لا أشعر بميل إلى البكاء .

فأجابت بتؤدة :

— حسناً ، ان كنت لا تشعر بميل إلى البكاء ، فلا حاجة لك به إذن .

استغربت طلبها مني البكاء ، وكنت لا أبكي إلا نادراً ، وإذا بكيت يكون احدأ قد جرح شعوري -- ولم ينتزع الألم الجسدي الدموع مني ابداً -- فاذا ما اهرقتها مرة ، كان ابي يضحك من دموعي ، أما والدتي فتصرخ :

— لا تبك ! لا تفعل ذلك !

بعد انقضاء ايام عدة اتخذنا . جدتي وامي وانا ، حجرة صغيرة على مستن مركب بخاري . كان اخي الوليد مكسبم قد توفي ، وقد لف الآن بشيايب بيضاء حزمت بشريط احمر ، يضطجع في إحدى الزوايا على طاولة صغيرة .

جلست فوق امتعتنا ، أرنو إلى الخارج من كوة صغيرة ، متدبرة . كانت المياه الهائجة القائمة الزرقة تندفق تحت الزجاج المبتل ، ود مخ احيان بموجة

عاقبة لتعمر الزجاج برذاذها .. عندها ، كنت أقفز مجبراً الى الارض .  
وتساعدني جدتي على النهوض بذراعيها اللدنتين ، وترجعني إلى مكاني السابق  
فوق الامتعة ، وهي تهتف :  
— لا تخف ، يا عزيزي .

كان كل شيء يتحرك من حولنا ما عدا والدتي ، التي كانت تقف بثبات ،  
مستندة الى الحائط ، مغمضة العينين ، وقد بدا وجهها كالحلزون ، عابساً ، ولم  
تنبس بكلمة طوال الوقت .  
كانت جدتي من وقت لآخر تلتفت اليها ، وتحادثها بعطف ورقوة لا  
متناهيتين :

— هلا تناولت بعض الطعام ، يا فاريرشا .. لقمة على الأقل .  
بيد ان والدتي ما تنفك معتصمة بصمتها ، محتفظة بهدوئها ...  
ما فئات جدتي تكلمني همساً كعادتها ، فهي اذا كلمت والدتي توجهت اليها  
بصوت أعلى نبرة ، لكن بشيء من الخجل والحذر ، مما جعلني اعتقد بانها تخشى  
والدتي ، مما ضاعف توددي إلى جدتي ، وامتد الروابط بيننا ...  
قالت امي ، على حين غرة ، بصوت عالٍ أجش .  
— سارا قوف ؟ ابن النوتي ؟

ودخلت الصخرة رجل عمي يضر المتكلمين : أليس يدعي بوزة زوقاه ،  
ويحمل صندوقاً صغيراً أمتعة دنه جدتي . وهو يصمت في حينه ، يجسد انجيل الصخرة ،  
وهي ثم حباته ، سارت فاحشة الباب ، تهادت بيديها إلى الأمام ، ثم ردت به عند  
الباب ، وبجانبه ، فقد كانت الضمير بها يهدج لها يا فاريرشا ، يا بوشة كلى ، يا باني .  
وهتفت امي بدمع . وهي تتشغل التمشي في نزهة ،  
— أو آه ، أماه ؟

في اربابنا .. وتركتاني في الصخرة برفقة ذلك الرجل الأزرق . فقال ، وهو  
ينثني بعطف عليّ .

— لقد رحل أخوك وتركتنا هنا .

— من أنت؟

— فوتي .

— ومن يكن ساراتوف ؟

— انها بلدة . التي نظرة من النافذة ، ها هي ذي .. هناك .

كانت الارض خارج النافذة تسير ، سوداء ، متعددة المرتفعات ، يتصاعد منها الضباب كاللدخان ، وقد ذكرتني بقطعة كبيرة من الخبز اجتزت من رغيف ساخن .

— اين خرجت جدتي ؟

— انها تدفن حفيدها .

— هل ستواريه في جوف الارض .

— اجل !

وفجأة . علت فوقنا ضجة عظيمة قد اختلط فيها الصراخ بالأنين ولم يملكني الذعر فقد فهمت ان مصدرها عملية تسيير المركب البخاري . وانزلي النوتي من بين ذراعيه بعجلة ، وانطلق خارجاً وهو يقول :

— ينبغي ان اذهب ؟

رغبت بدوري في الخروج ، فعدوت خارج الحجرة . كان المشي الضيق المظلم قفراً من الناس ، يلمع في نهايته نحاس السلم ، نظرت إلى الأعلى فرأيت بعض الناس يحملون امتنهم ... فكان عن الجلي ان الجميع يفادرون المركب . سباً يعني انه يجب علي مفادرتة ايضاً .

رما ان بلنت السطح ، وأصبحت بين اولئك المسافرين المزدحمين على السلم الذي يربط المركب بالبر ، اخذ بعضهم يصيح في وجهي :

— من انت ؟ اين أملك ؟

— لسبب ادوي .

أخذوا يدفعوني حيناً ، ويستطونني على الارض حيناً آخر ، ريدفونني دون انقطاع .

لكن النوتي الأشهب الشعر بدا اخيراً ، وقال :  
- انه صبي من استراخان ، خرج من حجرتة فجأة ...  
ورجع بي عدواً وهو يحملني إلى الحجرة حيث اجلسني على الصناديق وانتهرني  
هازراً لإصبعه في وجهي وهو يقول :

- إياك ان تقوم بذلك مرة ثانية ، وإلا ...  
وخيم السكون ، شيئاً فشيئاً ، على المركب الذي سكن إهتزازة ولم يعد  
رذاذ الماء يتطاير إلى الكوة ... بيد أن غشاء من الرطوبة سد نافذة الحجرة ،  
فأصبحت معتمة خانقة ، وتخلت في ظلمتها ان الصناديق تنتفخ وتحقق في بعناد.  
فأصابني شيء من الذعر ، فأخذت أتساءل :

- 'مري ، أتركوني وحيداً في هذا المركب الخالي إلى غير رجعة ؟  
سرت نحو الباب . كان مقفلاً ، ولم أستطع إدارة قبضته النحاسية ، فأخذت  
قنينة حليب كانت على منضدة بالقرب مني ، وهويت بها على القفل بكل ما  
استطعت من قوة ، فتكسرت ، وانساب الحليب على قدمي ، وتغلغل إلى  
حذائي .

لقد اثقل عليّ فشلي ، فارتيمت منتحباً فوق الأمتعة ، وحاولت أن انام .  
وما ان استيقظت حتى رأيت جديتي قابضة إلى جانبي تسرح شعرها تدمدم- ،  
بينها وبين نفسها بأشياء عدة ... كانت تملك شعراً غزيراً تمتزج فيه الزرقعة  
بالسواد ، ينساب بغزارة فوق كتفها ، حتى يصل الارض . وكان فمها يفقر  
ألماً . وقد بدا وجهها صغيراً جميلاً وسط تلك الغزارة من الشعر الكثيف ،  
وعيناها السوداء وان تلمعان من خلاله غضباً .

وقد بدا صوتها لطيفاً ناعماً وهي تجيبني على سؤالي لم شعرها طويل على تلك  
الصورة :

- إنه جزاء من الله - لقد قال لي : إليك ، فأمضي حياتك كلها في تسريح  
العرف الملعون ! لقد احببته في صغري ، ولعننته في كبري . عسد إلى النوم يا  
عزيزي ، فالشمس لم تشرق بعد ، فما زال الوقت مبكراً .

— لم يعد لي رغبة في النوم .  
فأجابت وهي تلف شمرها ، وترنو نحو الأريكة حيث تستلقي أُمِّي باستقامة  
السهم :

— حسناً . إذا لم يعد لك رغبة في النوم فلا تنم ، كيف كسرت الفئنة  
البارحة ؟ تكلم بصوت خافت .

كان لكلماتها لحن خاص . ما أحببها من الحسان تنحفر في ذاكرتي بسهولة  
كبيرة . وكان ينبعث من عينيها نور ساطع دائم الاشعاع ، يلقي على داخلتها  
هالة رائعة من الضياء . كانت فارغة القامة ، قد تقوس ظهرها وان بقيت حركتها  
سريمة كحركة هرة فتيمة . وفيما خلا ذلك ، فقد كانت قائل هذا الحيوان الوردود  
لطفاً ورقة .

كنت قبل مجيئها كفارق في ظلمة غريبة . فاذا بها تبعثني من رقادي ،  
وتقودني الى النور ، وتغزل كل ما يحيطني في خيط واحد متصل ، جاعلة منه  
شبكة زاهية الألوان .

وسرعان ما غدت ، إلى الأبد ، رفيق حياتي ... رفيق قادر على فهمه كل  
الفهم ... وكان فهمها المجرى للحياة يتقني ، ويهني قدرة كبيرة احتجتها فيما بعد ،  
لإواجه بعزم وقوة مستقبلي القاسي .

\*\*\*

قبل أربعين سنة ، كانت المراكب البخارية تسير ببطء كبير ، بحيث أمضينا  
مدة طويلة حتى بلغنا ينجني نوفجورود .. ولم أزل اذكر تلك الايام العذبة ،  
المليئة بهجة وسرورا .

بقي الطقس جميلاً ابداً . ومنذ الصباح حتى المساء ، كنت افترش وجدتي  
سطح المركب ، عائنين تحت قبة السماء اللازوردية ، بين ضفتي نهر الفولغا المزدانيتين  
بالسندس الموشى باصفرار الخريف . وكان كل شيء حولنا يتغير بين الفينة  
والفينة .. والروابي الخضرة تتوج الأرض الغنية . وأوراق الخريف الذهبية اللون  
تطفو فوق سطح المياه وتسبح .

كانت أمي نادراً ما تصعد الى سطح المركب ، وتبقى معتصمة بالصمت ..  
وما ازال أذكر حتى الآن جسمها الطويل الجميل ، ووجهها الكالح وقد انسابت  
عليه صفائر من الشعر الاشقر المتموج . إن كل هذا يتراءى لي من خلال غيوم  
شفافة .. من وراء السنين يحضرنى حتى اليوم بريق عينيها المتوحشتين .  
ذات يوم قالت بحفوة :

– إنك تجملين من نفسك أضحوكة يا أماء !

فقلت جدتي بمرح :

– ليضحك الناس إن أحبوا ذلك . فهذا يجعل حياتهم أكثر سعادة . كان  
الله معهم !

وما ازال اذكر تلك السعادة الصيانية التي استولت على جدتي عندما وقع  
نظرها على نييجني نوفجورود .. صاحت ، وهي تمسك يدي وتدفعني ناحية  
حاجز المركب :

– انظر ، انظر ، ما أجملها ! هي ذي نييجني ، مدينة الله ، حيث ستعيش ،  
يا لروعتها ! انظر إلى قباب الكنائس ، كم تتعالى في الجو !  
والثفت نحو أمي ، وقد سبقتها الدموع  
– انظري ، يا فاريوخا ! لا شك انك نسيتها ، على ما اعتقد .. هيا ، تملي  
من سعادة لقيائها .

بيد ان والدتي ابتسمت بألم ...

والقى المركب بمرساة ناحية المدينة ، وتوقف في منتصف النهر الذي يعرج  
بالزوارق ... وصعدت الينا جموع حتى السطح ... وكان يدب في أول تلك  
الجموع شيخ فارغ الجسم ، نحيل القوام ، مرتدياً معطفاً اسود اللون . تتقدمه  
لحية حمراء تلتمع كالذهب . .

وما ان رأته أمي حتى صاحت ، وهي تلقي بنفسها بين ذراعيه :

– أبتاه !

فأخذ يلامس رأسها بيديه الصغيرتين ، وأخذ يدغدغ وجهها بلطف ، ثم صاح  
مغتنباً :

- آه ، آه ، أخيراً ، ابتها الطائشة ، ها انت هنا ! آه ...  
وراحت جدتي تعانق الجميع ، وهي تدور حول نفسها ...  
هتفت وهي تشدني نحووم :

- هيا ، بسرعة ! هو ذا خالك ميخائيل ، وهذا ياكوف ، وهذه العممة  
ناتاليا ، وهذه ابنة خالك كاترينا ، وهذان الولدان ابنا خالك ، وكل منها اسمه  
ساشا ، والجميع يؤلفون عائلتنا - تأمل جيداً في هذا العدد .  
ثم انتشلني الجذ من بين الجميع ، ممسكاً برأسي :

- وانت ! من تكن ؟

- ولد من استراخان ، ترك غرفته صدفة ...

فاستوضح الجذ مندهشاً ، وقد التفت نحو امي :

- ماذا يقول ؟

ودفعني إلى الأمام دون أن يتلقى الجواب ، هائجاً :

- لقد ورث هزال أبيه . لننزل إلى القارب .

وما ان بلغنا الشاطئ . حتى تسلفنا الطريق العتيق المنحدرة بين صفيين من  
الحجارة العالية . وقد اكتست بالعشب الاخضر الريان .

مشى جدي في المقدمة برفقة امي . يدب على الارض بجانبها بخطواته المعجلى  
القصيرة ، يكاد لا يبلغ كتفيها ، بينما هي ترنوا اليه من عل ... وسار خلفهما  
خالاي ، وقد خيم الصمت عليهما ، وبعدهما بعض النسوة السمينات وقد ارتدين  
أثواباً زاهية الألوان ، وحوالي ستة أطفال أكبر مني سنأ واكثر مني هدوءاً .  
أما أنا فقد سرت برفقة جدتي في المؤخرة ، وقد صحبتنا العممة ناتاليا .

كنت أسير كالفريب بين هذه المجموعة العائلية ، التي لم يرقني أحد من  
أفرادها جميعاً . حتى أن جدتي نفسها قد ازدادت بعداً عني ..

وقد كرهت ، بصورة خاصة ، ذلك الذي يسمونه جدي ، فقد شعرت منذ  
اللحظة الأولى بأنه عدو لي . وبلغنا نهاية المرتفع ، فمثل أمامي بيت منخفض  
مكوّن من طابق واحد . يقوم تجاه الرصيف الأيمن من تلك البقعة المرتفعة

حيث تبدأ الطريق العامة بالقرب منه . كان لون البيت وردي بالي ، وقد طلعت  
نوافذه تحت سقف عتيق مهدم ، وقد ظهر لي من الخارج كبيراً ، بيد ان الغرف  
في داخله صغيره معتمه ، تضيق يجهور مضطرب يعج بالحركة والضوضاء .  
وأراني في ساحة لا تبعث السرور ابداً . وقد عجت هي الاخرى ببعض  
الادوات الزجاجية التي بدت كرية المنظر بمائها الملون . وكان لهيب نار، ينبعث  
من زاوية معتمه ، يتعالى من بين الاخشاب في الموقد . يتبمه صوت قرقره  
وغليان .. وثمة شخص غير مرئي يصيح بكلمات غريبة :  
- سانتالين .. حامض الكبريت !





كان ذلك بداية حياة دائبة الجريان ، مليئة بالوقائع ، غريبة ، معقدة ، يصعب وصفها بدقة . ولكن ذكرها ترافقني وتعيش في خاطري كقصة حزينة حكها لي جني طيب القلب ، بيد انه واقعي حتى درجة الإيلام . ولم أجده صعباً علي حتى اليوم ، إذ عدت إلى الماضي ، أن أتصور ان هذا الماضي قد جرى على هذا النحو ، فأحاول إنكار بعض الحوادث كما اقتضت في مجرى حياة تلك « العشيبة الغبية » وما كانت عليه من ظلام وحفوة .

بيد ان الحقيقة تعلمو كل هفوة ذاتية . وأنا لا أحاول الكتابة هنا عن نفسي ، بل عن تلك البيئة الغريبة التي كان يعيش فيها ، ولم يزل ، الروسي العادي . كان بيت جدي يعج بدخان العداوة الخائتق ، عداوة كل فرد للجميع ، وقد اختنق بها الكبار وانتقلت عدواها الى الأطفال ايضاً .

وعلمت اخيراً ، من جدي ، أن امي أنت الدار وأخواها يطالبان والدهما ، بإلحاح زائد ، بتقسيم أملاكه فيما بينها . وان رجوع والدتي غير المتوقع قد زادهما جشعاً ونهماً في التقسيم ، مغبة ان تطالب أمي في مهرها الذي حجزه جدي لأنها انتقت زوجها دون رضاه . وقد وقعا في جدلٍ مرٍ حول من سيفتتح المصبغة في البلدة ، ومن سيرتك المنزل الى ككونافينو ، على الضفة الثانية لنهر أوكا .

ولم يمض كثير وقت على وصولنا ، حتى وقع شجار عنيف على مائدة الغداء ، فقد انتفض خالاي بسرعة ، وانكبوا فوق المائدة ، ينبجان ويزعقان في وجه

جددي كالكلاب . وإذا يجدي هو الآخر ينتفض بسرعة ويضرب على المائدة بلمقته وقد علت الحمرة وجهه ، وأخذ يصيح بصوت أجش :  
- سأجعلكما تستمطيان الناس في الشوارع .

فقال جدتي ، وقد احتقن وجهها ألماً :  
- أعطها كل شيء هيا . اعطها وسوف ترتاح كثيراً لذلك . أعطها  
والجهد والدتي ، بعد ان نهضت ، نحو الناظفة ببطء ، حيث بقيت واقفة  
مدبرة ظهرها للجميع .

وعلى حين غرة . وجه خالي ميخائيل ضربة جبارة إلى أخيه على وجهه ،  
فندت عن هذا الأخير صرخة عنيفة وتعلق به وشده إليه بقوة فتدحرج الاثنان  
على الارض يلهثان ، ويتشامتان ...

وشرع جددي يهرول كالجنون حولهما صارخاً :

- إخوة ، ها ! إخوة دمويون ! قفوا !

كنت في بدء الشجار قد قفزت مذعوراً فوق الموقد . ومن هناك اخذت  
أراقب جدتي ، وهي تمسح الدم عن وجهه ياكوف بينما هذا كان يعول ويضرب  
الأرض بقدميه ، في حين قالت الجدة بنبرة يائسة :

- أفلا تعقلان ، أيها المتوحشان ! تبا لها من عشيرة متوحشة !

وما ان خرج ياكوف حتى قبعت جدتي في إحدى زوايا المطبخ محدثة  
نفسها :

- يا أم الاله الطاهرة ! ارجوك أن تعيدي إلى ولدي عقلها !

فقصدها جددي ووقف بالقرب منها ، متأملاً الطاولة التي تكسرت عليها  
الأواني ، ثم قال واجماً :

- أنت ايتها الأم ! أولى بك أن تراقبي ولديك اللذين انجبت ! لأنهما يودان  
التخلص من قارقارا ...

- لا سمح الله ! لا سمح الله ! والآن ، إنزع قميصك حتى أرتيه لك .

أخذت رأسه بين يديها ، وطبعت قبلة على جبينه ، فدفن رأسه ، لقصره ،  
بين كتفها ... ثم زاد موضحاً :

- الاجدى على ما يظهر أن تتقاسم ، يا أماه !

- صدقت ، يا ابتاه ، صدقت !

تجاوزا هكذا فترة طويلة . وقد ابتدأ بمحديث لطيف سرعان ما تحول الى صياح ، واذ اخذ جدي يلطم الارض بقدمه كديك يتأهب للبراز ، ويهدد جدتي .

ثم همس عالياً بلهجة شاكية :

- انني اعرفك جيداً ! فأنت تهتمين بيها اكثر مني ، وميخائيل هذا دجال كبير ، وياكوف ذاك جبان ملحد ، وسيبدران كل ما املك في سكرهما وعربدتهما ، وسينفقانه عن آخره !

وبحركة بدئية لا شعورية من كتفي القيت باللكواة على الارض ، حيث دوت وهي تتدحرج فوق درجات الموقد ، حتى استقرت في سطل ماء وسخ . فقفز جدي مذعوراً ، وشدني بقسوة ، وحدجني كأنه يشاهدني للمرة الاولى .

- من اجلسك هناك على الموقد ؟ هل هي أمك ؟

- لقد صعدت لوحدي .

- انك تكذب .

- كلا ! انا لا اكذب ، كنت وجلا .

فقدفني بمبدأ عنه بضربة من راحة يده على جيبني :

- أخرج ! لست سوى صورة عن ابيك !

و كنت مغتبطاً كثيراً للتخلص من ذلك المطبخ ...

\* \* \*

كنت احس بشكل جلي ان جدي لا يكف عن ملاحقتي بعينيه الحادتين الخضراوين ، فكنت اخافه ... وما زلت اذكر ذلك الرعب الغريزي الذي كان يدفعني دائماً الى الاختباء من هاتين العينين المشتعلتين . وتصورت أنه دنيء النفس شرير ، فهو يكلم الجميع بلهجة هازئة ، ويقنط باغاظه الناس واستفزازهم دائماً :

- تفوا تبأ لهم من قوم ا

إنه شغوف بهذه الكلمات ، ويعمد بلفظها مط الغاء والواو ، الامر الذي يبعث في قشعريرة باردة .

ولم يمض على وصولنا بضعة ايام ، حتى ارغمني على حفظ صلواتي . وقد اوكل الى العمه نائليا امر تعليمي هذه الصلوات . وكانت امرأة هادئة رزينة ، وكنت احب ان تطلع اليها ملياً من غير ان يطرف لي جفن ، فيزعجها هذا مني ، فتأخذ باسبال اهدابها ، والواء رأسها للهروب من نظراتي ، ثم تطلب بصوت أشبه بالهمس الناعم :

- ارجوك ، قل معي هذا : « أبانا الذي .. » .

- وماذا تعني كلمة « الذي » ؟

فتجيبني ، وهي تسترق النظر بما يحيط بنا :

- لا تسأل ا فالسؤال يزيد الامور تعقيداً . ويكفي ان تردد خلفي

« أبانا ... » هيا ا

لم اكن ادرك لماذا يزيد السؤال الامور تعقيداً ... إن كلمة « الذي » تحوي معنى خفياً ، فكنت اتعمد تشويها :

- ألزي ، اللاندي .

فتصحح قولي العمه ، التي تبدو وكأنها تذوب شيئاً فشيئاً ، بصبر طويل :

- كلا ، قل ذلك ببساطة هكذا : « أبانا الذي .. » .

واستفسر جدي ، ذات يوم ، عن مدى نشاطي قائلاً :

- حسناً ، يا ألكسي ، ماذا فعلت اليوم ؟ هل كنت تلهو ؟ انني الاحظ ذلك من هذه الحذبة المترتبة فوق جبينك . والان اخبرني ماذا حفظت اليوم

من « أبانا » ؟

فقلت صمتي :

- ان ذاكرته رديئة .

فقهه جدي ، وهو يرفع حاجبيه الاحمرين :

— اذا كان الحال كذلك ، فيجب جلده إذن .

واستدار ناحيتي ، واستفسر :

— ترى هل جلدك والدك ذات يوم ؟

فلم أفهم ما يعنيه بكلامه . فلذت بالصمت .

ثم اجابت والدتي :

— إن مكسيم لم يضرب الطفل ابداً . وقد كان يمنعني عن فعل ذلك .

— لماذا ؟

— كان يعتقد ان الضرب لا يعلم المرء شيئاً .

فأجاب جدي وقد استشاط غضباً .

— لتد كان مكسيم غيباً احق ، غفر الله له .

لقد اثارت كلماته غضبي وقد احس بذلك :

— فيم عبوسك ؟ يحذر بك ان تنتبه لنفسك ا

وخيم الصمت على الجميع ...

كانت الطريقة التي يتبعها الكبار في تغيير لون الثياب يعجبني ويشير فضولي واهتمامي . فهم يأخذون مادة صفراء اللون ويغطسونها في ماء اسود . فيحصلون على لون ازرق ضاربا الى السواد « نيلياً » . او يغسلون ثوباً اشهب اللون في ماء احمر ، فيصبح اسود اللون ضارباً الى الحمرة « خمرياً » . وكل ذلك يبدو بسيطاً ، لكن غير مفهوم ابداً .

وقد راودتني رغبة خفية في تجربة العمل بنفسي ، فاطلعت ساشا بن ياكوف على رغبتني هذه ، وكان ساشا صبي مهذب جدي ، يتبع العمال دائماً عارضاً عليهم خدماته ، فيشكره الكل ، ما عدا جدي ، على نشاطه ومساعدته .

كان المعجوز يصرخ ، وهو ينظر بازدراء إلى الصبي :

— تفوا ! يا للدجال الصغير !

وعندما علم ساشا برغبتني هذه في تعلم مهنة الصبّاغ نصحتني باللجؤ ، في تجربتي الاولى ، إلى غطاء المائدة الكبير ، الخاص بالمآدب ، فأخذه من مكانه

في الدولاب ، واصبغه باللون الازرق الداكن .

قال لي بجدية :

- الأشياء البيضاء تقبل الالوان اكثر من سواها ، وانا واثق من ذلك .  
فاحضرت الغطاء الثمين ، وعدوت به حتى الساحة ... ولم اكد انزل احد  
اطرافه في حوض « النيل » حتى قذف تسيجانوك بنفسه عليّ واتشل الغطاء  
من بين يدي ، وعصره بكلتا يديه الكبيرتين ، وزعق بابن خالي الذي كان  
يتابع العملية :

- اسرع ، واحضر جدتك !

واستدار ناحيتي ، وحك رأسه الكبير منذراً بالسؤ . قال

- ستنال جزاءك بدون شك .

اقبلت جدي مسرعة ، لاهثة ، وقد سكبت بعض الدموع لدى رؤيتها ما  
أتيت به من جرم ، ثم اخذت تومخني بطريقها المضحكة .  
- آه منك ايها الخبيث . ليدفعك الشيطان وليقذف بك ارضاً . لا بد من  
تقييدك وجاهلك ...

وبعدما اخذت تتذرع الى تسيجانوك :

- لا تخبر جده بما فعل . يا فانيا .. سأخبره ... ربما تجري الامور خيراً ..

فأجابها فانيا مغتاضاً ، وهو يمسخ يده الندية بمئزره الملوث بالصباغ :

- من جهتي لا تقلقي ، فهذا ليس يعنيني ا بيد انه يجدر بك ان تأخذي  
حذرك من ساشا وثرثرته .

فقالت وهي تقودني ناحية البيت :

- سأعطيه بعض الدراهم يسد بها فمه .

في غروب ذلك النهار ، السبت ، قادي احدهم الى المطبخ ، كانت الظلمة  
والهدوء ينشران وشاحها هناك ... كان الطقس خريفياً والمطر خلف النوافذ  
يداعبها بلطف وهو يتساقط عليها . وقبالة الموقد جلس تسيجانوك اسوان حزين  
على غير عادته ... وقبع جدي يجانب برميل كائن في احدى الزوايا ، يسحب

من الماء عدة قضبان طويلة فجمعها في رزمة واحدة ، ولاحسها في الهواء بقوة كبيرة ... وكانت جدتي تجلس في احدى الزوايا وقد غمرتها الظلمة ، وهي تدمدم :

- انه سعيد ، هذا الوحش الظالم !

وفي وسط المطبخ جلس ساشا ، ابن الخال ياكوف على احد المقاعد وهو يفرك عينيه بيده ويصرخ مثل متسول هرم :

- ساحني لأجل المسيح ...

فعلا صوت جدي مجيباً ، وهو يمسخ بكفه قضيباً مبللاً طويلاً :

- سأسأحك بعد ان تأخذ نصيبك كاملاً . حسناً ، انزع سروالك .

نهض ساشا ، ونزع سرواله وانزله حتى ركبتيه ، وقد جثى متقوس الجسم . كان التطلع اليه يحز بالنفس حتى ان قدمي اخذتا ترتجفان بقوة . ثم انحنى جدي ، وامسكه من عقبيه ...

هتف جدي :

- ألكسي ! تعال هنا ! حسناً ، من أكلم ؟ تعال وشاهد ما قصدت بالجلد ،

تأمل جيداً ! واحد ...

واهوى بالقضيب على جسد ساشا العاري . ففرق في العويل والصراخ ..  
قال الجد :

- لا تكذب ، فتلك لم تلمسك ! لكن هذه ستفعل !

وضربه ضربة شديدة رسمت على جلده ، بسرعة جنونية ، تورداً ظاهراً . ثم تركت تورماً احمر اللون ، فتتابع صياح وعويل ابن خالي ، يبعث الالم في قلب السامع .

- لن اقوم بذلك ثانية ! الم اخبرك عن غطاء الطاولة ؟ انا الذي أخبر .

- وشيئت ؟ لن تنفعلك وشايتك او تخفف ذنبك ! ان السوط الاول

للاوشي ، اما الآن فدورك انت بسبب الغطاء !

فارتمت جدتي علي ، واخذتني بين ذراعيها :

- لن اسمح لك بالكسي ابدأ .. لن اتركك تفعل ذلك ، ايها الوحش !  
واخذت تضرب الباب ، وتصيح :  
- فارفارا ! فارفارا !

فهجم جدي عليها ، واسقطها ارضاً ، وانتشلي وحملني حتى وسط  
المطبخ ... وكنت احاول عابثاً الخلاص من بين ذراعيه ، اشده من لحيته واعض  
يده ... ولم ازل اذكر جيداً صياحه الوحشي :  
- اربطه ! سأقتله !

ولم ازل اذكر ايضاً وجه امي الابيض ، وعينيها الكبيرتين ... تعدو وراء  
وامام جدي وهي تحسرج متوسلة :  
- كفى يا ابتاه ! اتركه ! ارجعه الي.

بقي جدي يضربني حتى فقدت الوعي ، ولازمت بعد ذلك ، الفراش عدة  
ايام اعاني المرض ، ممدداً على صدري في حجرة صغيرة دافئة ذات نافذة واحدة ،  
ينبعث في انحاءها ضوء قنديل احمر خافت ..

كانت مرحلة مرضي من المراحل الهامة في حياتي ، فقد كنت خلالها ابدو  
وكأني اتمو سريعاً . وشعرت بقلق عميق نحو المخلوقات البشرية ، فكأن الجلد  
قد تمزق عن قلبي ، فأمسيت حساساً بشكل غريب لا يصدق حيال الامتهانات  
والآلام الانسانية التي اكابدتها شخصياً ، او التي يعانيتها غيري من البشر .  
وقد تأملت بادىء الامر ، بذلك الجدال الذي حدث بين امي وجدي ...  
كانت هذه الجدة الكبيرة ، في تلك الحجرة الصغيرة ، تنقض على والدتي  
وتحاصرها في احدى الزوايا وهي تدمدم :

- لماذا لم تأخذه بعيداً ؟ تكلمي !  
- كنت خائفة .

- ينبغي انك تنجلي ، يا فارفارا ، المخلوقة مثلك تخاف ؟ انالم اخف رغم  
كبر سني ! ان ذلك للخجل حقاً !  
- اتركيني بمفري ، يا أماه ، لقد ضاق صدري !



- انت لا تحبينه ا ولا تكنين عطفاً لذلك الصغير اليتيم المسكين ا  
- انا الاخرى يتيمة ، كنت وسأبقى يتيمة طوال حياتي ا  
قالت امي هذا بصوت حزين المهجعة ...  
واخذنا تبكيان ، وهما قابعتان على صندوقة بالقرب من الزاوية .  
قالت أمي :

- لولا ألكسي لتهت الى مكان بعيد ، فلم اعد اطبق الحياة في هذا الجحيم ا  
لا استطيع ا يا اماء ا وليس عندي طاقة كافية ا  
وادركت ان امي ليست على شيء من القوة . فهي ، كالأخرين . تخاف  
جدي ... وأنا مسؤول عن بقائها في ذلك البيت حيث لا تقدر تحمل الحياة ..  
ما أقسى ذلك ا وسرعان ما توارت أمي بعد فترة قصيرة ، أعلموني انها ذهبت  
تزر بعض الامكنة . ولم اعلم أبداً أين مضت ...  
وذات يوم عادني جدي ... جرى ذلك فجأة ، فكأنه نزل علي من السقف .  
جلس على حافة السرير ، واخذ يدغدغ رأسي بأصابعه الباردة كالثلج .  
- صباح الخير ، ايها الشاب الصغير ا لا تحقد علي ، كيف حالك ؟  
فشعرت برغبة في رفسه ، بيد ان الحركة كانت تؤلني كثيراً . واخرج من  
جيبه كعكة من الزنجبيل ، وتفاحة ، وبعض الزبيب ، وقضيبين من سكر  
النبات ، ووضعهم على المخدة بالقرب من أنفي :  
- انظر احضرت لك بعض الهدايا ا

ثم انثنى وقبلني في جيبني .. واخذ يتكلم وهو يلامس من حين لآخر  
بلطف جببتي ، بيده السمينة ، المشوهة بالصفرة الفاقعة ، وخاصة حول اظافره  
الشيبة بمخالب النسور :

- ضربتك اكثر مما ينبغي ذلك اليوم ، يا عزيزي . لقد فقدت صوابي ،  
وانا اعترف بذلك . كنت مجنوناً . وينبغي ان تتذكر شيئاً واحداً ، ان  
ضربك احد من ذويك فهذا الا يعني امانتك ، بل تربيتك ... لكن اياك  
ان تترك احداً غريباً يمك بسوء .

ودنى مني يجسمه الفارغ المحكم البناء ، وشرع يروي لي قصة طفولته ، كانت كلماته تسترسل ، الواحدة تلو الاخرى ، بلباقة دون صعوبة على الاطلاق ، - لقد اتيت الى هنا على ظهر مركب بخاري . بيد انه عندما كنت صغيراً كانت قوتي وحدها تعارك امواج الفولغا ، وهي تسحب العوامات الخشبية . كانت العوامة تشق عباب الماء ، اما انا فأسير على الضفة ، حافي القدمين . منذ طلوع الفجر حتى مغيب الشمس ، ويجب ان تسير بدون تدمر حتى التلاشي وعندما يجب عليك ان تستريح او تموت من شدة الاعياء . هكذا كنا نغضي حياتنا تحت نظر الله ورحمة شفيعنا السيد المسيح ... ثلاث مرات في حياتي قست طول أمنا الفولغا رغم عرضه واتساعه : من سميرسك حتى ريبنسك . ومن ساراتوف حتى هنا ، ومن استراخان حتى ماكاريف ، وهي تقدر بما يزيد عن ألوف القراسخ ، وفي السنة الرابعة رقيت الى رتبة بحار .

وعلاوة على ذلك كله ، يا الكسي ، كنا نستريح في إحدى ليالي الصيف في ريحولي ، ونوقد النار عند سفح إحدى الروابي الخضراء ، انها كانت فعلاً فترة سعيدة ، فالحساء يغلي في قدره وبعض الركاب يرددون أغنية حماسية يزيلون بها بعض الغناء عن قلوبهم ، فنشاركهم في الغناء ، آه لقد كان الغناء يبعث كل جارحة فينا ، ويشدنا للاستزادة منه ، حتى يخيل اليك ان الفولغا يضاعف سرعته ، كحصان غاضب يهاجم بقوة عنان السماء ! وعند ذلك كانت همومنا ومتاعبنا تتلاشى مثلما يتلاشى الغبار في وجه الريح ا ولا نعد نذكر ذلك الحساء حتى يفور على النار . فنتطلع الى الطاهي نصب على رأسه جام غضبنا :

« بوسمك التمتع بالغناء ما اردت ، لكن اياك ان تهمل مهنتك ! »

واتوا الى الحجرة مرات عدة يطلبون جدي ، فأطلب اليه في كل مرة :

- إبقى لحظة اخرى !

فيقفه ويشير بذراعيه ويهتف :

- انتظروا ! هناك ....

وبقي مستمراً في سرد حكاياته حتى هبوط الليل . وعندما دعني  
استنتجت ان جدي ليس شريراً أو غديفاً .

كلما تذكرت انه هو الذي ضربني بتلك الوحشية في ذلك اليوم ، كان  
الأم يعنصر قلبي بشدة ، واحاول دون جدوى ان اتناسى تلك الحادثة .

ادركت فيما بعد ، عندما تحسنت صحتي ، أن تسيجانوك يحتل مركزاً كبيراً بين سكان منزلنا ، فاذا كلمه جدي لا يصيح في وجهه يجفوة كما يعامل ولديه ، بل يحك برأسه ويضيق عينيه كلما تكلم عنه اثناء غيابه :

- ان أيدي ايفان مجبولة بالذهب ، أخذه الشيطان اسينمو حتى يصبح مثل الجبل اذكروا قولي . هذا الذي يشار كنا حياتنا ليس بالانسان الوضيع ، سوف يشق طريقاً لنفسه ...

وكذلك علاقات خالي بتيجانوك ، فمها لا يجربان التلاعب عليه كما يفعلان مع المعلم جريجوري . فقد كانا يجعلان من هذا الاخير لعبة مزرية بافعالها التي يوقعانه بها .

و ذات يوم اخبرتني جدي ان تسيجانوك ليس إلا لقيطاً .. عثروا عليه في ليلة ممطرة بالقرب من بوابة منزلنا .

قالت ، وبوادر التفكير والابهام ترتسم على محياها :  
- كان راقداً هناك . وقد لف في صرة من القماش ، يرتعد من البرد حتى غدا عاجزا عن الصباح والبكاء .

- لماذا يترك الناس اولادهم هكذا ؟

- عندما تجد الام ان الطعام والحليب ينقصانها لتغذية رضيعها تبحث عن منزل فيه طفل آخر قد مات فور ولادته ، فتحضر طفلها إليه وتتركه هناك .  
كنت أحب ايفان ، ويشدني اليه اعجاب غريب ..

وفي كل سبت ، كانت حياة جديدة تنتشر في المطبخ ، بعد ان يذهب جدي لتأدية صلاة المساء بعد ان يعاقب من اذنبوا خلال الاسبوع ، كانت هذه الحياة تملؤنا غبطة لا تقدر . اذ ان تسيجانوك كان يصطاد من خلف الموقد عدة صراصير ، ثم يربطها بخيط إلى عربة من الورق يصنعها بمهارة فائقة ، ثم ينهر الصراصير ذهاباً واياباً على طاولة مدهونة بلون اصفر وهاج .

كان يهتف مغتبطاً ، وهو ينهرها بعضاً رفيعة :  
- إنهم غادون لاحضار الاسقف ...

ثم يعلق بمؤخرة صرصار آخر قطعة ثانية من الورق ، ويبعثه وراء العربة السابقة قائلاً :

- لقد نسوا متاعهم ، وها هو ذا احد الرهبان يحمله اليهم .  
ثم يوثق اقدام صرصار آخر ، فيأخذ يجر نفسه متعثراً ، على رأسه ويصرخ قانياً ، وهو يفرك يديه سرورا :

- ها هوذا الشمس يغادر الخمارة الى صلاة المساء !

كان بمقدور تسيجانوك ان يقوم ببعض الالاعيب بالورق والدرهم . وان يصرخ بصوت مرتفع لا يماثله فيه احد من الاطفال . وفي الحقيقة ، كان من الصعب ان تميزه عنهم . وفي احدى الامسيات فاز عليه الاطفال مرات متتالية ، فانسحب من اللعب وقد اعتلاه الحزن واعتصرقه الكتابة .. ثم يقول شاكياً :  
- لقد كانت مؤامرة ضدي . فانا اعلم ذلك ! انهم يتغامزون ويتبادلون الورق من تحت الطاولة . هل تسمي ذلك لعباً ؟ لقد كان بمقدوري ان اغش بدوري كما يفعلون !

لقد كبرت صداقتي لايفان كثيراً ، واصبحت جدتي مشغولة عني ، منذ الفجر حتى المساء ، باشغالها البيتية . وهكذا غدوت أمضي معظم ايامي أخب في اثر تسيجانوك الذي بقي دائماً يحميني بذراعيه من سوط جدي كلما جلدني ، ثم يريني في اليوم التالي اصابعه المتورمة ، وهو يقول :

- لا فائدة من ذلك ! انظر ما يجره عليّ ! انها المرة الاخيرة ، وستنال في

المستقبل جزاء نصيبك بنفسك ..

بيد انه يتلقى مرة اخرى ، عندما تسنح الفرصة ، الجزاء الذي لا يستحق .

– لقد قلت لي انك لن تفعل ذلك مرة اخرى ؟

– لم اقصد ذلك ، فقد وجدتني امد ذراعي ، من غير ان انتبه لما افعله .

وقد ادركت ، بعد مرة من الزمن ، شيئاً عن تسيجانوك زاد اهتمامي به  
واخلاصي له . ففي نهار كل جمعة ، كان تسيجانوك يسرج المهر الخصي « ساراب »  
الاشهب اللون ، وكان حيواناً خبيثاً ، تلتصق اسنانه الجديلة في ثغره ، وكان  
مفضلاً عند جدي ، إلى مزلة للجليد ، ويعتمر قبعة غريبة الشكل وقد  
ارتدى معطفاً قصيراً من جلد الماعز قد ربط بزنا مرتين أخضر اللون ، ويذهب  
الى السوق لشراء مؤونة الاسبوع من الطعام . وفي بعض الاحيان كانت غيبته  
تطول . فيفقد الجميع عندئذٍ رباطة جأشهم ، ويأتون النافذة للقاء نظرة  
على الشارع .

– هل اتى ؟

– كلاً لم يأت بعد !

وعلى الاخص كانت جدتي تعاني من القلق الشيء الكثير ، فتقول لزوجها

وولديها :

– يا للكارثة ! ستكونون السبب في موت انسان طيب ، وحصان طيب .  
انكم في امس الحاجة الى ضمير حي ، أيتها المخلوقات المزرية ! ولا يكفيكم  
ما كسبتموه ابدأ ، يا لها من عشيرة غيبية وعائلة طماعة ! سوف يجازيكم  
الله جميعاً ، وسترون .. فيعقد جدي جبينه ويتمتم .

– أوه . حسناً ! انها المرة الاخيرة !

وفي بعض الاحيان لم يكن تسيجانوك يعود ، الا بعد الظهر ، فيعدو  
جددي وخالاي حتى الساحة للافاقة ، ثم تتبعهم جدتي مفتاظة وهي تهمهم  
كالدب .. ويعدو الاطفال الى الساحة . ويبدأون في غبطة كبيرة ، بنقل ما  
في العربة من لحوم طازجة . وسمك وطيور ، وماكل من جميع الانواع .

ويسأل جدي ، وهو يحدق في العربية بعينيه الصغيرتين :

— أحضرت كل ما أوصيناك به ؟

فيجيب ايفان مغتبطاً وهو يفرك يديه طلباً للدفع ، قافزاً من فوق العربية

— كل شيء ، حسب الأوامر !

وذات يوم اخبرني جدتي ان تسيجانوك يسرق أكثر مما يشترى من الحوائج

قالت بصوت حزين :

— اذا أعطاه جدك ورقة فئة الخمسة روبلات ، فيصرف منها ثلاثة ، ويسرق

الباقى . انه يحب السرقة ، ياله من وغدا وقد اتخذها عادة . وقد عرف جدك

الفقر والشقاء أيام شبابه ، مما جعله يقتر نوعاً ما في شيخوخته . فعنده المال أعز

من الاولاد . ويحاول له الحصول على شيء من لا شيء .

ثم صمت برهة ... وتابعت :

— بيد انه اذا ما قبضوا على قانيا مرة بجريمة السرقة ، فسيعاقبونه حتى

الموت .

ولزمت الصمت من جديد ، فترة قصيرة ، وعندما تابعت حديثها كان صوتها

ينبعث ناعماً :

— إيه ! عندنا قوانين كثيرة ، لكنه ليس من حقيقة تقوم عليها هذه

القوانين أو عدالة تحتضنها !

وفي اليوم التالي ، عندما شاهدت تسيجانوك ، توسلت اليه ان يكف عن

السرقة :

— سيعاقبونك حتى الموت !

فضحك ضحكة سرعان ما توارت خلف تقظبية علت وجهه ، وهتف :

— لن يقبضوا علي ، سألوذ بالهرب ، فجوادي من الخيول السريعة ، انسي

اعلم ان السرقة جريمة يعاقب عليها ، لكنني الجأ اليها لمجرد التسلية . فخالاك

ياخذان مني جميع ما أسرق خلال الاسبوع . وانا لا اهتم لذلك ، فليأخذه ، طالما

انني أحصل على كفايتي من الطعام .

وفجأة رفعتني عن الارض ، وهزني بلطف :

- انت هزيل البنية ، بيد ان عظامك متينة للغاية وستغدو شاباً قوياً .  
أصبح ، تعلم العزف على القيثارة . واسأل خالك ياكوف تعليمك ذلك . انا لا  
أهزأ فأنت ما زلت صغيراً . وهذا هو البلاء ! طفل صغير ، بيد انك لطيف !  
واعتقد انك لا تحب جدك ، اليس كذلك !  
- لا اعلم .

- حسناً . أما انا فلا احب أحداً من آل كاشيرين ، سوى جدتك ...  
الشیطان وحده قادر على محبتهم !  
- وانا ؟

- انت لست من كاشيرين . انت من بشكوف ودمك غير دم هذه العشيرة .  
وشدني اليه بلطف ، ثم قال بلهجة كئيبة :  
- يارب لو استطيع الغناء لفطرت القلوب بغنائني . والآن ، دعني ...  
يجب ان ابدأ في العمل .

وأعادني الى الارض ، واخذ قبضة من المسامير ، وشرع يسمر قطعاً سوداء  
مبلة في لوح كبير من الخشب مربع .  
ولم يمض على ذلك طويل زمن حتى لقي حتفه .  
وهذا ما حدث :

كان يستند إلى السور في ساحتنا ، صليب عظيم من خشب البلوط ، بالقرب  
من البوابة ، منذ أمد طويل ، حتى انني لم أزل أذكر انه لفت انتباهي يوم  
أتيت ذلك البيت للمرة الأولى .

وقد ابتاعه الخال ياكوف لرفعه على قبر زوجته ، وأقسم على حمله الى المقبرة  
على كتفيه في الذكرى الأولى لوفاها .. وفي بكرة الشتاء ، صادفت الذكرى  
نهار سبت . كانت الرياح تعصف وتهب فأشرة الثلج من فوق السطوح حين مضى  
جدي وجدتي والأحفاد الثلاثة الآخرون إلى المقبرة لحضور الجنائز ، في حين  
خرج الباقيون جميعاً إلى الساحة وتركوني وحيداً في الدار جزاءً على جرم سبق  
ان اقترفته .



وارتدى خالاي معطفين سوداوين متماثلين ، ثم رفعنا الصليب عن الارض ،  
وركزا ذراعنا الواحدة على كتف احدهما ، والثانية على كتف الآخر . وبصعوبة  
بالغة ، رفع جريجوري ورجل آخر غريب ، قاعدة الصليب العظيمة والقياسها  
على كتف تسيجانوك العريض ، فتمايل من حملة وأوسع ما بين قدميه تفادياً  
للسقوط .

سأل جريجوري :

— ألا تقدر على حملة ؟

— لا أعلم . يبدو أنه ثقيل جداً !

وصاح الخال ميخائيل :

— افتح البوابة . ايها الشيطان الأعمى !

وزاد ياكوف :

— ألا تنجى من نفسك ، يا فانيا ؟ كلانا أضعف بنية منك .

بيد ان جريجوري التفت الى فانيا ، وهو يفتح البوابة ، وحذره بشدة :

— انتبه من إجهاد نفسك ! حسناً ، زادك الله قوة .

وقادني جريجوري من يدي الى المعمل . ثم قال :

— اعتقد ان جدك لن يجلدك اليوم . يبدو أنه حسن المزاج .

ثم اجلسني فوق ستفة من الصوف أعدت للصباغ ، وأخذ يحدثنى وقد

أحاطني بلطفه وهو ينفخ البخار المتصاعد من الأحواض .

كنت أجد لذة في الجلوس والاصغاء الى حديثه ، وأنا أتأمل النار المتأججة

الذهبية تتراقص في الموقد . وكانت ضجة انزلاق المركبات على الجليد تدف من

الشارع . بينما الدخان الأزرق يتموج متصاعداً من مداخن البيوت ، وتتساقط

على الثلج اخيلة منورة وكأنها ، هي الأخرى تحكي حكايتها وأقاصيصها .

— ما هذا ؟

قال ذلك ، وقد نهض فجأة على قدميه ، ثم أرهف السمع وهو يغلق بساب

الموقد بقدمه ، وانطلق نحو الساحة وأنا أعدو في أثره .

كان تسيجانوك مضطجماً على ظهره في وسط المطبخ ، وقد مرّ من النافذة شعاعان عريضان من النور ، وقد سقط أحدهما على رأسه وصدره ، وانتشر الثاني على قدميه . وقد التمع على جبهته نور غريب ، وارتفع حاجباه ، وتركزت عيناه الى السقف ، وأخذت شفتاه السوداء ان ترتجفان وترسل زبداً وردي اللون ، وقد سال من فمه الدم وجرى على وجهه ورقبته ، ثم على الارض ، يتسابق في خطوط نحو الباب .

كان تسيجانوك ممدود الذراعين يضطجع دون حراك ، ينقر على الارض باصبعه ، وقد جثت المريية يفجئياً بجانبه تحاول وضع شمعة في يده فلم يتالك الامسالك بها ، فسقطت وذوى نورها في الدماء ، فالتقطتها المريية ثانية ، وجففتها بطرف مئزرها ، ثم عاودت الكرة محاولة وضعها بين أصابعه المتحركة بدون توقف .

قال الخال ياكوف هازاً رأسه ، وقد خلاصوته من أي تعبير :  
- لقد تعمر ا... فسحقه ... هوى على ظهره . وكاد يسحقنا نحن الآخرين . لولم نزع في الوقت المناسب .  
فأعلن جريجوري بصوت متهدج :  
- اذن ؛ أنتم اللذان سحقتمه ا...  
- لكن ، ماذا تعتقد أننا ؟  
- أننا ا

بقي الزيد الوردي اللون يتابع جريانه ، والدماء تتدفق بحرية حتى كونت بالقرب من الباب بحيرة صغيرة اسودت وبدت انها ترتفع ، وبقي تسيجانوك يرسل زفراقه ، وجسده يتهاوى ويزداد اضمحلالاً ..  
همس الخال ياكوف :

- لقد مضى ميخائيل ، ممتطياً جواده ، الى الكنيسة يُعلم والدنا ، بينما قلبته أنا على عربية وأحضرتة الى هنا ... لقد فعلت حسناً بعدم حلي قاعدة الصليب بنفسى ، ولو فعلت ، ماذا كان حدث لي ؟

ومرة اخري ، ثبتت المربية الشمعة في يد تسيجانوك ، وهي ترسل الشمع  
والدموع على راحته ، فصرخ بها جريجوري بقسوة :  
- ثبتي الشمعة على الارض بجانب رأسه ، أيتها البلهاء !  
- هذا صحيح !  
- إنزهوا له قبعته !

وما ان نزعت المربية القبعة ، حتى ضرب رأس ايفان بالارض تاركاً صوتاً  
أصم ، وإثر ذلك استدار رأسه ، فانهمر الدم من فمه ، ودام الأمر كذلك مدة  
طويلة مفزعة . ولم أفهم جيداً ماذا جرى ... ظننت ان تسيجانوك يأخذ قسطاً  
من الراحة ، ولن يلبث ان ينهض ويبصق بأشمتزاز ، ويدمدم بنعمته المعتادة .  
« تفو ! يا للحرارة ! »  
هكذا ما كان يتفوه به أبداً ، بعد ان يصحو من غفوة الظهيرة أيام  
الاحاد ...

وتوارت الشمس ، فاكفهر لوننا على حافة النافذه ، وأصبح وجه ايفان داكن  
اللون ، وتوقفت أصابعه عن الحركة ، وانقطع الدم عن التدفق من فمه .. كانت  
شمعات ثلاث تضيء بنورها شعره الازرق القاتم ، وتلتف حول رأسه ، فبدت  
قمة انفه ضيقة . وقد تماوجت انوارها فوشحت خديه الحمرين .

بقيت المربية جاثية الى جانبه تبكي ، وهي تهمس :  
- آه ، أيتها الحمامة الصغيرة المسكينه ! لقد كنت عزاءً حقيقياً !  
دخل جدي المطبخ في فروته السوداء ، تدب خلفه جدتي في معطفها الثقيل ،  
وبدا وراءهما الحال ميخائيل ، واطفال ، وغرباء عديدون ...  
لقى جدي بفروته على الارض ، وزعق :

- يا لأولئك الاوباش ! يفعلون هكذا بهذا الفتى ! خمس سنوات أخرى  
ويغدو ثميناً كالذهب !  
ثم توجه الى خالي هازأ قبضته الحمراء في وجهها .  
- ايها الذئبان !

وألقى بنفسه على مقعد مطبقاً أصابعه بعنف عليه ، وهو يدمدم ويحشرج في صوت أجش :

- آه ، أنا اعلم ، لقد كان شوكة في حلقيكما ! آه ! يا فانيبا ، ايها الشاب الفتى ! ماذا نستطيع ان نفعل الآن ؟ اسألك ماذا نستطيع ان نفعل ! الخيل غريبة ، واللجام قديم مهترى . . . انظري يا أماه ، كأن الرب في هذه السنوات الأخيرة قد عدل عن جنبنا ، اليس كذلك ، يا أماه ؟  
فارتمت جديتي على الارض بجانب ايفان تلمس وجهه ورأسه وصدره ، وتأخذ يديه وتفرسكها ، ثم تنفخ في عينيه . فانطفأ نور الشمعات كلها ، واستقامت أخيراً على قدميها كشيخ أسود داكن ، وقد التمع ثوبها وقذفت عينها السوداوان شرراً مخيفاً ، وهي تهمس في صوت محشرج :

- اخرجوا من هنا ، ايها الشياطين !

فتوارى الجميع عدا جدي . . .

ووري تسيجانوك الثرى ببساطة ، دون ان يلفت الانتباه .

كنت أصغي الى جدتي وهي تصلي، وانا ارقد في سرير واسع ، وقدالتفتت بلحاف ثقيل يضفي من كل جانب ... كانت تجثو على ركبتها واضعة إحدى يديها على صدرها ، بينما راحت ترسم بالثانية إشارة الصليب بكل تودة .  
كان نور القمر الموشى بالاخضر يطل من خلال الستائر المزرکشة ، التي تنطوي زجاج النافذة ، كان نوره الموشى بأنوار فسفورية يسطع على غطاء الرأس الحريري ، الذي يحجب شعر جدتي ، يشع كالفضة ، وقد تدلى ثوبها الاسود على كتفيها بثنيان مناسبة تجمعت على الارض وأحاطتها من كل ناحية ، بينما كانت تدغدغ اسماعي أصوات قرقة تكسر الجليد وراء النافذة .  
وتنتهي جدتي من تلاوة الصلاة ، فتززع عنها ثيابها بهدوء ثم تودعها فوق صندوق الملابس الكائن في زاوية الغرفة ، ثم تدنو من السرير ، فأنظأهر بالنوم .  
فتقول بلطف :

— كفى قميلاً ، أيها الخبيث الصغير ! فأنت لست نائماً ايها الطير الصغير !  
أترك لنا شيئاً من هذا اللحاف .  
كنت أعلم ما سيحدث بعد ذلك ، فلا استطيع مقاومة ابتسامه . فتصيح  
جدتي .

— آه ، تريد أن تجعل من جدتك لعبة ، أليس كذلك ؟  
وتمسك بطرف اللحاف وتشدّه نحوها بطريقة لبقه بحيث تجعلني أدور حول نفسي . فأعود ثانية إلى السرير ، بينما تفرق جدتي في عاصفة من الضحك !

- خذها ، ايها الشيطان الصغير ا فأنت تستحقها ا  
وفي بعض الأحيان كنت انا دون أن أشعر بها حين تلج الى السرير لأنها  
كانت تصلي طويلا .

واكثر ما كنت أصغي اليها بانتباه ، عندما كانت تحتتم ايام الشجار والمتاعب  
بمثل هذه الصلوات الطيبة ، كانت تجتر كالطود تصارح ربه بدقائق حوادث  
النهار جميعها . ثم تبدأ صلاتها بهمس مبهم ما يبرح أن يغدو دمدمة قوية :  
- انت تعلم ، يا ربي ، أن كل انسان يسعى باحثاً عن مصلحته الخاصة ، وهذا  
أمر بديهي ، وولدي البكر ميخائيل من المتمسكين بحب البقاء في البلدة هنا ،  
وانها جريمة لا تقفتر بالنسبة اليه ان يرسل به عبر النهر إلى موضع جديد لم يعرفه  
احد من قبل . بيد ان الأب يفضل عليه يا كوف . وهل من العدل ان يجب أب  
أولاده بصورة غير متساوية ؟ انه مخلوق قاسر ، ذلك العجوز ا وانت تفعل  
خيراً يا إلهي ، ان قومت عقله .

وقبل ان تنحني ماسة جبهتها بالسجادة ، كانت ترسم إشارة الصليب . ثم  
تتابع باقتناع ، وهي تنهض :

- ولماذا لا تبعث السعادة في قلب فارفارا ؟ ماذا أتت هذه المسكينة حتى  
تغضب عليها ، يا إلهي ؟ ومن سمع بامرأة شابة متينة البنية تيمش في مثل هذا  
الشقاء . ومن ثم احفظ يا إلهي عيني جريجوري اللتين تسوءان يوماً بعد يوم . فإن  
امسى كفيفاً ، ماذا يسي لديه سوى التسول في الشوارع ؟ وهل ذلك من العدل  
بشيء ؟ انه يفني شبابه في أعمال الجد .. بيد انه إن كف بصره هل يساعده ؟  
آه ، يا ربي ، يا ربي القدير ا

ثم تركز الى الصمت مدة طويلة ، حانية الرأس وقد قدلت ذراعها و كأنها  
غارقة في سنة من النوم ، وبدت كتمثال جامد هاديء .

كنت شغوفاً باله جدتي . الذي يبدو مقرباً وعزيراً عندها . ففي بعض  
الأحيان أقول لها :

- حدثيني عن الله ...

كانت تتحدث عن الله بطريقة خاصة ، فتقتعد السرير ، وتسدل عينيها ،  
وتبدأ الحديث بصوت هامس . وتسلح بئديها على رأسها ، وتبدأ بحبك قصتها  
الخيالية حتى أغرق في سبات من النوم ...

وما زلت اذكر انني مررت يوماً أمام غرفة خالي ميخائيل ، وكان الباب  
مفتوحاً ، فشاهدت العمة ناتاليا ، قد اكتست البياض ، تلف الغرفة ذهاباً وإياباً ،  
واضعة يديها على صدرها ، وهي تهمس بصوت يبعث الرهبة والخوف :

– آه ، يا إلهي خلصني من هذه العشرة . خذني اليك ...  
وقد ادركت ما ترمي من صلاتها ، كما ادرك ما يقصد جريجوري حينما  
يدمدم :

– سامضي وأتسول عندما أمسي كفيفاً ، وسأكون عندئذ أحسن حال  
مني هنا !

كنت أتمنى ان يصبح أعمى عما قريب حتى أغدو دليله ، فنخرج معاً محبوب  
العالم ونطوف في الآفاق ، نتسول كفاة عيشنا . وذات يوم بحت اليه بأمنيته  
هذه . فضحك وقال :

– حسناً ! سنخرج سوياً . وسأنادي في الطرقات حتى اسمع كل الناس :  
« هذا هو فاسيلي كاشرين . صاحب معامل الصباغ ، واعتقد ان ذلك سيكون  
مضحكاً ، اليس كذلك ؟

وكثيراً ما كنت ألاحظ تورماً في شفتي العمة ناتاليا ، وبقع سوداء وزرقاء  
تعمر في وجهها الاصفر اللون . فاستوضحت جدتي مرة ؟  
– ترى أضر بها خالي ؟

– لعنة الله عليه ، انه يفعل ذلك خفية ، فقد منعه جدك عن ذلك ، لذلك  
فهو يضربها في الليل ، إنه شرير ، وهي جبانة .

ثم تتابع حديثها متحمسة :

– لكن في هذه الايام لا يضربون كما اعتادوا ان يفعلوا في الماضي . لقد  
اصبح الناس أقل وحشية منهم بالامس ! أجل ، قد يضربون أحياناً على الاسنان ،  
والآذان ، أو الوجه ، مدة دقيقة أو دقيقتين ، وينتهي الامر ... لكنهم ، في

الماضي ، كانوا يعضدون المذنب ساعات طوال ؟ لقد ضربني جدك مرة ، من الفجر حتى مغيب الشمس ، كان يأخذ قسطاً من الراحة بين الفينة والفينة ، ثم يرجع الى ضربتي ثانية .. كان يضربني بلجام الفرس ، أو حبل ، أو أي شيء آخر يقع في متناول يده .  
— ولماذا ؟

— لست قادرة على التذكر الآن . فقد ضربني مرة حتى غدوت شبه ميتة ، ثم منمني من تناول الطعام مدة خمسة أيام ، وقد نجوت من الموت بأعجوبة في تلك المرة ..

لقد أذهلتني هذه الأحداث ، فحجم جدتي يساوي ضعفي حجم جدي ولم استطع ان التخيل كيف كان يتغلب عليها...

\*\*\*

وحدث ذات ليلة ، بينما كانت جدتي جاثية على ركبتها ، تناجي الله في حديث مفعم بالآمان ، ان دفع جدي الباب على مصراعيه ، وصرخ بصوت جهوري :

— هيا ! يا أماء ! نحن نحترق ... انه شيء من الله ! هيا ! ..  
فصرخت ، وهي تحاول النهوض !  
— ماذا ؟

وانطلقت وجدي في عتمة الرواق الفسيح يصرخان ...  
واخذت تصدر اوامرها بصوت عالٍ رزين :  
— أنزلي الأواني ، يا ينجينيا ! وانت يا ناطاليا ، ألبس الاولاد ثيابهم .  
واخذ جدي ينتحب وينوح :  
— آه - ه - ه !

فعدوت الى المطبخ .. كانت النوافذ المطلة على الساحة تشتعل لهباً ، وكتل صفراء تتدحرج على الارض وتسيل ، وأخذ الحال ياكوف يقفز عالياً وهويدافع



ميه كأن تلك الكنتل محرق حذاءه ... دمدم بصوت أجش :  
- آه ، لقد أشعل ميخائيل النار ، شغلنا بها وتواري .  
فقدفته جدتي خارج الباب حتى كاد يسقط على الأرض ، وصاحت :  
- صه ، أيها الوحش ؟

كنت أشاهد المعمل يحترق ، من خلال الجليد المتكاثف على زجاج النوافذ ،  
وألسنة النار تندفع عبر الباب المفتوح على مصراعيه . وأخذت الشهب الحمراء  
تعلو في الجو الحر ، وترسل نفاثها الأسود فيجتمع غيوماً كثيفة في ذلك الليل  
الهادئ .. ورأيت الثلج يتورد بانعكاسات أرجوانية ، وأخذت جدران البيت  
تترنح وتهتز ... وأخذت النار تشتد ، وأخذرونقها يضيء على المعمل فتنة  
وجملاً ، يشدني اليه بقوة خارقة لم استطع مقاومة إغرائها .

تدثرت بمطف سميك من جلد الماعز ، واتلمت أول حذاء عثرت عليه ، ثم  
أسرعت في المشي حتى عتبة الباب حيث قبعت مذعوراً ، فلهيب النار قد  
أغشى بصري ، وصم أذني صوت تأججها ، وصيحات جدي وخالي وجريجوري ..  
وذهلت من تصرف جدتي ، فقد القت على رأسها بكيس فارغ ، ودثرت نفسها  
بحرام سميك نستعمله في كسوة الخيل عادة ، وقذفت بنفسها داخل المعمل ،  
وهي تصرخ :

- حامض الكبريت ، أيها البلهاء ! حامض الكبريت سيشتعل !  
فصاح جدي :

- اثنيها يا جريجوري ! أوه ، لقد قضي عليها ..  
وحدات جدتي مسرعة ، وقد انعقد الدخان فوق رأسها ، منخنية تحت  
عبياء إناء حامض الكبريت الضخم .

زعقت بصوت جهوري ، وهي تسعل !  
- يا أبتاه ، أخرجوا الحصان ! وازعوا هذا الشيء عني ، ألا تشاهدون  
أنني احترق .

فالتزع جريجوري عن كنفها حرام الحصان المحترق ، ثم تناول معولاً

واثنى يزيد الثلوج المتراكمة على مدخل المعمل ، ويلقي بها في جوف النار ،  
واخذ خالي يقفز حواه والناس في يديه ، وهروا جدي في اعقاب جدي يغمرها  
بالثلج ، وهي تواري إناء حامض الكبريت في الجليد ، وما ان انتهت ، حتى  
غدت تفتح بوابة الساحة ، وأخذت تصرخ هناك ، وهي تتطلب من الناس الذين  
أتوا يعدون :

— ايها الجيران ، انقذوا مخزن الغلال ، ستطاله النار ، ومخزن العشب اليابس .  
انزعوا السقف والقوا بالأعشاب داخل الحديقة ، إن كل ما جمعناه ، سيحترق ،  
وسياتي دوركم بعدنا ! انثر الثلج عالياً ، يا جريجوري ، فأني فائدة في نثره على  
الارض ؟ وانت يا ياكوف ، كفاك عدواً ، ناول القوم فؤوساً ومعاول ، اساعدونا  
ايها القوم الطيبون ، ليكن الله في عونكم !

وعدا ساراب داخل الساحة ، ثم قفز على قائمتيه الخلفيتين ، فالقى جدي  
بقدميه ارضاً . كانت عيناه تلتصقان حمرة بانعكاس اضواء النار فيها ، وأخذ  
يعدو هنا وهناك ، نافخاً بمنخريه ، ويقفز في عنف حتى افلت له جدي اللجام  
وابتعد عنه هارباً ، وهو يصرخ :

— أمسكيه ، يا أم !

فألقت جدي بنفسها بين قوائم ذلك الحصان الهائج ولبثت دون حراك  
وقد فتحت له ذراعها ، فتعالى صهيله حزيناً ثم هدأ ، وهو يتطلع بنظرات  
إلى النار المتأججة .

وأخذت جدي تربت على رقبتة وتمسك اللجام بكلتي يديها ، ثم تقول  
بصوت عميق :

— لا تجزع ! هل التخلي عنك في مثل هذه اللحظة المخيفة ؟ انت ايها الفأر  
الصغير الطائش ؟

فأخذ الفأر ، الذي يكبرها بثلاث مرات حجماً ، يتبعها يهدوء وطاعة حتى  
البوابة ، صاهلاً كلما رأى وجهها المتورد .

واندفعت المريبة يفجئياً مع الأطفال من المنزل ... وقد تدثرن جميعاً

بالأغطية وهم يصرخون بأشياء مبهمه ..  
صاحت المربية :

- لم اجد الكسي ، يا فاسيلي فاسيليفيتش  
فتواريت تحت درجات السلم حتى لا تاخذني بعيداً مع الباقين ، في حين صاح  
جدي منهمكاً :

- دعينا ، دعينا !

وتهاوى سقف المعمل تاركاً وراءه سحباً من الدخان الكثيف بقي مدة  
يتطاول نحو السماء ... وبدأت الأحواض تتفجر وتفور ثائرة ، وهي ترسل  
بغيوم من الدخان والابخرة فتتشر رائحة غريبة في أرجاء الساحة ، تجعل  
الدموع تتهدل وتنساب من العيون ..

انطلقت من مخبئي وتهاويت بجانب جدتي ، فصرخت بي :

- اذهب من هنا ! وإلا رفسوك ! ابتعد .

ولج إلى الساحة خيال يعتمر خوذة فولاذية كبيرة ، وقد علا الزيد فم  
جواده الأشقر ، وشرع يلوح بسوطه ويصرخ مهدداً :

- افسحوا الطريق !

وقمالت أصوات اجراس صغيرة تدق بتتابع . كان كل شيء بهيجاً مسلياً  
كأيام الأعياد والأفراح . ونهرتني جدتي من جانب الباب قائلة :

- ألم تسمعي ؟ قلت لك ! ابتعد من هنا !

ومن الاستحالة ان اعصياها في مثل هذه الظروف . فعدت ادراجي الى  
المطبخ .. وقبعت الى النافذة من جديد . كانت تلك الجموع من الناس تتوارى  
أحياناً وأحياناً أخرى تجب عن مشهد النار فلا اعد اشاهد غير لمعان الخوذة  
الفولاذية وهي تتناقل في كل مكان .

وسرعان ما اخمدت النيران بعد ان حصرت في منطقة واحدة . وتساقط  
المياه الغزيرة عليها . ووزعت الشرطة الجماهير المحتشدة . وبعد ان انتهى كل شيء  
عادت جدتي ببطء الى المطبخ ..

- من هناك ؟ اهذا انت ؟ ألم تم بعد ؟ هل انت وجل ؟ لا تخف ! فقد انتهى كل شيء الآن !

ارتقت بالقرب مني إلى الورا والامام من غير ان تنبس ببنت شفة ، كنت مسروراً بهبوط الليل يخيم عليه الهدوء وتغمره الظلمة ، يسد انني في الوقت نفسه ، كنت جد آسف على حرمانني من مشهد النار .

بدا جدي في العتبة :

- أماء !

- ماذا بك ؟

- هل أصبت ؟

- لا شيء يسترعي الانتباه ..

اشعل الشمعة الكائنة على الطاولة ، فبدا وجهه السنجابي الملطخ بالدخان .

ثم اقتعد الارض بجانب جدتي ، قالت :

- يجب أن تذهب وتغتسل !

فتنفس جدي الصعداء :

- ما اوسع رحمة الله إذ اعطاك هذا الذكاه !

وربت بلطف على كتفها ، وأردف وقد علت ابتسامة ثغره :

- اقصد انه يهيك اياه في فترات قصيرة متباعدة . بيد انه على كل حال يرسله .

وندت عن جدتي ضحكة وفغرت فاهها تريد ان تقول شيئاً ، بيد أن جدي

قطب وجهه ، وأردف :

- ينبغي ان ننته من جريجوري ، فكل ما وقع كان بسبب إهماله ، إنه لم

يعد ينفع شيئاً . ان ياكوف ينتحب عند العتبة . يجدر بك ان تذهبي اليه .

فنهضت وهي ترفع يدها وتنفخ على أصابعها ، ثم خرجت .

وبدون ان يلتفت جدي اليّ استوضحني قائلاً :

- هل شاهدت الحريق من بدايته ؟ حسناً ، ما رأيك يجسدتك ؟ واذكر

دائماً انها امرأة هرمة .. منهارة .. إن في هذا عظة لك ، وللجميع أيضاً ، تفوا !

ولاذ بالصمت فترة ، واطفاً الشمعة باصابعه بعد ان نهض ، قائلاً :  
- هل شعرت بالخوف ؟

- كلا

- حسناً ، لم يكن من داعٍ للخوف . هيا امض الى سريرك .  
خضعت للأمر ، بيد ان النوم لم يراد اجفاني تلك الليلة ، فعدت ادراجي  
الى المطبخ ، وتسلمت الموقد ، وقبعت في زاويته .  
وجهت جدتي اوامرها الى جريجوري :  
- اوقد النار اولاً !

فصعد جريجوري بهدوء الى الموقد ، فوقع بصره على قدمي ، فاذا به يصرخ  
مرتعباً :

- من هناك ؟ تفوا لقد اخفتني ا انت لا توجد الا حيث لا حاجة اليك  
على الاطلاق .

- ماذا هناك ؟

فأجاب بصوت هادئ ، وهو يعود الى الارض :  
- العمة ناتاليا تلد !

وتذكرت ان امي لم تصرخ بهذا الشكل حين وضعت ، وعندما رفع  
جريجوري الغلايات على الموقد ، صعد حتى اصبح مواجعتي ، ثم اخرج من  
جيبه غليوناً .

قال وهو يتطلع إلى الغليون :

- اعتقد ان التدخين افضل ، لذا بدأت أدخن لأن في ذلك ابراء لعيني .  
جلس على حافة الموقد ، ينو الى نور الشمعة الخافت ، وقد لوث الدخان  
الاسود اذنيه ووجهه ، وشق قميصه بحيث اشاهد اضلاعه تهبط وتملؤ وتكسرت  
إحدى زجاجتي نظارته السوداء وسقطت منها قطعة كبيرة ، فأفسحت فرجة  
يستطيع المرء ان يشاهد من خلالها عينه الحمراء التي بسدت كجرح مشقوق  
يدمي .

وحشى غليونه تبغاً ، وأخذ يرهف السمع إلى تأوهات تلك المرأة الماخض ،  
ويحدث نفسه كالرجل الثمل :

- اعتقد ان النار نالت من جدتك . ترى ، كيف ستدبر امر توليد عمته ؟  
هل علمت كيف امضت عمته نهارها ؟ لقد تركوها وقد بدأ المخاض منذ  
نشوب الحريق ، وقد تأملت نديجة الخوف تأمل ، كم هو صعب حمل مخلوق  
جديد إلى هذا العالم ! ومع ذلك ، فليس من أحد يعير تلك المرأة أدنى  
انتباه . ينبغي ان تحترم المرأة ، فهي أم ، وهذه هي الحقيقة ، فلا تنسها  
مطلقاً .

غفوت فترة من الزمن استيقظت بعدها على صوت جلبة شاملة وصيحات  
الحال ميخائيل .. وأصبحت الحرارة لا تحتمل بالقرب من الموقد فنزلت عنه  
مسرعاً . بيد انني لم أكد أدنو من خالي حتى كأل لي رفسة بقدمه فارتميت ارضاً ،  
وقد اصطدم رأسي بالارض ، فصرخت :

- أحرق !

فشب واقفاً ، وانتشلي ، مارجحاً بي الهواء وهو يدمدم :  
- سأسحقك على الموقد !

وعندما افقت مستعيداً صوابي وجدتني ممددا على ركبتني جدي في الصالون  
الكبير ، في زاوية يهددني ، وقد علفت عيناه في السقف وهو يدمدم :  
- لن يصيب أحد منا المغفرة ابداً ...  
سألني جدي وهو يلاطفني  
- ماذا يؤلمك ؟

كنت أشعر ان كل عضو في يؤلمني ، فرأسي نديان وقد شعرت بثقل  
جسمي . بيد انني لم اجد رغبة في الافصاح عن ذلك . ووجدت ان كل من  
حولي غرباء ، وكان خالي ياكوف واقفاً باستقامة بجانب الباب وقد وضع يديه  
خلف ظهره . قال جدي :  
- اقترب يا ياكوف ، وخذه إلى فراشه .

فأشار إليّ خالي ، فسرنا الى الغرفة على رؤوس أصابعنا . وما ان تمددت على السرير حتى همس الخال في أذني :  
- لقد توفيت عمّتك ناتاليا ...

فلم استغرب للخبر ، لأن عمّتي بقيت فترة طويلة لم تبدُ ملامحها في انحاء البيت ، ولا تلج المطبخ ، ولا تقعد الى الطاولة لتناول الطعام .

- اين جدتي ؟

فأجابني ، مشيراً بيده :

- هناك ، في الاسفل !

وعاد كما جاء ، يمشي على رؤوس اصابعه الخافية ...

استلقيت على السرير اتأمل حولي قلقاً . وبدأت تتصوّر لي ، على زجاج النافذة ، وجوه عديدة وقد كللها الشيب . وفي الزاوية كان ثوب جدتي قد علق فوق الصندوق ، كنت اعلم هذا بيد ان الثوب تراءى لي وكأنه مخلوق حي يتربص هناك بين الظلال . فدنست رأسي تحت الغطاء ، تاركاً إحدى عيني مثبتة في الباب . كنت أود ان اقفز من السرير وألوذ بالهرب .. وكانت الحجرة حارة ، وقد غصّ المنزل برائحة غريبة ، تذكرني بموت تسيجانوك ، والدم يتصبب من فمه على الارض ، وشعرت ان رأسي ، بل قلبي ، يذتفخ ...

وأصغيت السمع الى الباب يفتح بهدوء ، ثم ولجت منه جدتي ، ثم اغلقتسه بكتفها ، وبقيت مستندة اليه ..

دمدمت في لهجة بلهاء شاكية :

- يا ليديّ المسكينتين ا ... كيف احترقتنا ا ...

وفي مطلع الربيع حصل تقسيم الاملاك ، فبقي ياكوف في المدينة ، وعبر ميخائيل النهر إلى كوناينو . واشاد جدي لنفسه بيتاً جديداً جميلاً ، حجري البناء في شارع بوليفوي ، واقام في الطابق الارضي منه خمارة كبيرة ، واقام على السطح غرفة انيقة صغيرة . وامتدت امام البيت حديقة تطل على وادٍ تهايل فيه اشجار الصفصاف العارية .

كنا نجوب ارجاء الحديقة ، انا وجدي ، ونطوي المرات الناعمة التربة ، قال جدي يخاطبني وقد غمزني بطرف عينه مغتبطاً :

— ما اكثر القضبان في هذه الحديقة ! وعما قريب سأبدأ بتعليمك الكتابة والقراءة . وعندئذ سأكون بحاجة ماسة الى هذه القضبان !

كان المنزل يفتح للمستأجرين ، فأفرد جدي له غرفة رحبة في الطابق العلوي واعدتها لاستقبال الضيوف كذلك . وكان نصيبنا ، انا وجدتي ، غرفة تطل نوافذها على الطريق ، كائنة على السطح ، حيث تتمكن من مشاهدة السكاري وقد لفظتهم الخمارة في ايام الاعياد والامسيات .. وفي كل صباح كان يذهب جدي الى معمل ولديه لمساعدتهما في تنسيق الاعمال ، ثم يعود عشية ، منهوك القوى ، كئيب الفؤاد . صلب الطباع .

بينما كانت جدتي تتدبر أمور المنزل ، وتطهي الطعام ، وتجفف وجهها الذي يتصبب عرقاً :

— شكراً سرمدياً لجميع الملائكة والقديسين ! ها قد انتقلنا أخيراً الى



حياة هائلة هائلة .. شكراً للذراء البتول !

بيد انني لم اشعر بشيء من الهدوء في حياتنا .. فقد كان المستأجرون يملؤن المنزل ديبيا وصياحاً ، منذ الصباح حتى المساء يأتون وهم في عجلة من امرهم .. وكانوا ينادون جدتي :

— أكلينا ايفانوفنا !

فكانت تبادرهم بإبتساماتها العذبة توزعها عليهم بلطف زائد . وترهف السمع الى احاديثهم .. كانت قابلة ، وحكماً في المشاحنات البيتية ، وتعالج المرضى من الاولاد الصغار ، وتحكي قصة ( حلم العذراء ) عن ظهر قلب وتعلمها للنسوة فيزددن سعادة وغبطة ، ثم تدلي بنصائحها في امور البيت ومتطلباته . اما انا فقد كنت اتبع انرها طوال النهار ، ممسكاً بثوبها في الساحة او في الحديقة أو عند الجيران ، حيث تمكث بعض ساعات ، تروي ما لديها من اقايصيص واخبار .. وهي ترتشف الشاي .. وكنت أبدو ، عند ذلك . كأنني جزء منها ، وخلال تلك الفترة من حياتي لم اعد اذكر أحداً ، سوى هذه العجوز النشيطة اللطيفة .

وفي بعض الاحيان كانت تبدو امي بيننا في لحظات قصيرة ، وكانت لا تزال غير مبالية ، تلاحظ كل شيء بعينين باردتين قاتمتين كأشعة شمس الشتاء المكفهرة . ولا تمكث بيننا طويلاً ، فسرعان ما تتوارى من غير ان تترك في اثرها شيئاً يذكرنا بها .

استوضعت جدتي ذات يوم :

— هل انت ساحرة ؟

فندت عنها ضحكة :

— حقاً ؟ من اين استنتجت ذلك ؟

وعادت الى محياها علائم الجذ والصرامة ، واردفت :

— ومن انا لاكون ساحرة ؟ الشعوذة فن شائك . وانا لا الاحظ الالف من

البساء تأمل جدك ! ياله من رجل مثقف ! بيد ان العذراء النقية لم تهيني ،

الكثير من المعرفة والحكمة .

واقضت حينذاك مجزء آخر من حياتها الخاصة :

- لقد نشأت يتيمة . وكانت والدتي تعمل فلاحه معدمة . وذات يوم انزل سيد نبيل الرعب في قلبها وكانت ما تزال عذراء بعد .. ففي ذات ليلة رمت بنفسها من إحدى النوافذ ، فتحطمت خالصتها وكتفها . وشلت يدها اليمنى عن الحركة ، عنصر العمل الهام ، اذ كانت تعمل في التطريز . وقد اعتنقها النبيل بعد ذلك بفترة قصيرة من الزمن لعدم جدواها .. وهكذا امست تستجدي في الطرقات . وقد كان اهل بالاخنا في ذلك الوقت ، اطيب قلباً واوسع غنى ، وكانت قلوبهم من ذهب وكل واحد منهم افضل من الآخر . فلم نترك المدينة ، واخذنا ، انا وامي نستجدي الناس طوال الحريف والشتاء ، وغادرنا بلدتنا بعدما نضى جبرائيل سيفه ، فأذاب الجليد ، فاذا الربيع يخطر على وجه الارض ويتأيل باهى حله .. فمضينا الى موروم ، ومنها الى بوريفست ، ثم سرنا على طول نهر الفولغا ونهر اوكا الهادىء . وكم كان مسيرنا جميلاً ! فالارض تبعق برائحة الربيع ، والاعشاب تتأيل ندية في طراوتها كالحرير ، وقد نثرت العذراء الزهور في جميع الارجاء ، فيعتمر السرور نفسك ، ويمتد الفضاء الواسع امام ناظريك يطفح بهجة وحبورا .. فاذا بغناء امي يتعالى في الآفاق ، وقد اغمضت عينيهما نصف إغلاقه ، ويتراءى لك ان كل ما يحيط بنا قد ركن الى الهدوء والسكون ، يصفي السمع الى تلك التسابيح .. فقد كان صوتها آسراً .. ولكن ما ان بلغت العاشرة من عمري ، حتى رفضت والدتي ان اصحبها للتسول . كانت ترى ذلك مخزياً .. بل فضيحة شائنة .. وهكذا استقرت في بالاخنا ، حيث كانت تدق الابواب طلباً للطعام ، وفي ايام الاحساد كانت تقف على باب الكنيسة تستجدي الناس والمصلين . بينما كنت انا ابقى في البيت لأتعلم التطريز ، ولم أقدر ان اتقنه بسرعة ، رغم اني كنت شغوفة بمساعدة أمي المسكينة ، وعندما يكون النموذج شائكاً ولا انجح في اتمجاهه ، كنت استرسل في النحيب والدمع يذرف مبراراً من عيني . وسرعان ما اتقنت في سنتين ، تصور ، تلك

المهنة الشائكة ، واصبح لي شهرة في البلدة وضواحيها ولم يكن يأتنا من القوم إلا من اراد عملاً ممتازاً ، ويقولون : «حسناً يا أكرلياً . هلا لعبت باصابعك وإبرك ؟» . وكنت مسرورة بذلك ، وإن كنت ، في الحقيقة غير جديرة بتلك الشهرة التي كانت والدتي أولى بها مني ، لأنها هي التي لقتني الدروس رغم شلل يدها اليمنى .. وكنت متعجرفة جداً . فقلت لها : «تستطيعين الآن ، يا اماء ، التوقف عن الاستجداء ، فقد اصبحت قادرة على إطعامك من عمل يدي !» فأجابتنني : «صه ! الا تعرفين ان هذا المال ينبغي ان يكون مهراً لك ؟» . وسرعان ما بان جديك بعد ذلك ، رجل شاب في الثانية والعشرين من عمره ، وكان يعود بمال لا بأس به من عمله .. وتأملتنني والدته كثيراً ، وادركت ما انا عليه من البؤس ، وانني امرأة مستعطفية ، مما جعلها تفكر بانني سأكون الزوجة الصالحة المطيعة .. هل سمعت .. وكانت هي بائمة للحاوي والكمك ، خبيثة مأكرة ، لكن ليساخني الله ، لماذا اتحدث بالسؤ عن الموتي ؟ وما الفائدة من ذلك ! ان الله يراهم ، والشيطان يجهم ..

وندت عنها ضحكة صادرة من الاعماق فأخذ انفها بالاهتزاز على نحو يبعث السخرية ، واخذت ترنو اليّ بعطف يفصح عن مقصده اكثر مما تعني الكلمات ..

\* \* \*

ولم ازل اذكر ليلة هادئة ساكنة بينما كنت ارشف الشاي مع جدتي في حجرة جدي . كان المرض قد المّ به . فأوى الى فرشه ، وقد نزع عنه قميصه ، ودثر كتفيه بمنشفة كبيرة يحفف بها ، بين الفينة والفينة ، العرق المتصبب على جبينه كانت انفاسه تتلاحق مسرعة ، وقد غطت عينيه سحابة قاتمة .. ويداه ترتجفان كلما حاول ان يمسك بفنجان الشاي بشكل يبعث الشفقة فعلاً . كان لطيفاً ، في ذلك النهار ، على غير عادته .

اخذ يشتكي لجدي بلهجة طفل مدلل :

— لماذا لم تضعي لي قطعة من السكر ؟

فأجابته بنعومة هادئة ، ولكن بصرامة ايضاً :

- لأن العسل انفع لك .  
 فارتشف فنجان الشاي متمللاً شاكياً . قال :  
 - حاذري ان اموت .  
 - لا تخف ، فانا ساهرة بجانبك .  
 - حسناً ، فانني لو مت الآن لكنت كمن لم يعش ابداً ، او من عاش من  
 اجل لا شيء .  
 - ثم يكفيك ثرثرة .  
 بقي مضطجعاً فترة قصيرة ، مغمض العينين ، لا يأتي حركة .. ثم نهض  
 فجأة ، وكان احدهم لمزه .  
 - ينبغي ، يا اماء ، ان تزوجي ياكوف وميخائيل في اقرب وقت . ربما  
 جعلها ذلك أكثر الفة وتعقلاً . ما رأيك ؟  
 وبدأ يستعرض فتيات البلدة اللواتي يلقن الزواج من ولديه ، في حين  
 شرعت جدتي ترتشف الشاي ، الكأس قلو الآخر ، دون ان تعيره أدنى  
 اهتمام بالموضوع .  
 وعقاباً على اخطاء اقترقتها ، منعت من النزول الى الحديقة .. فجلست غروب  
 يوم الى النافذة اشاهد بريق نوافذ المنازل وقد انعكست فيها اضواء الشمس  
 الصفراء ، واسرح النظر فوق تلك المدينة .. كانت ترد من الوادي ، وراء الحديقة ،  
 اصوات اطفال يلهمون بين الاشجار الغضة ، فيدفعني شوق يائس ، وقد انقلبت  
 كتابة الغروب على نفسي ، ان اشارتهم في هوم .  
 وفجأة ، أخرج جدي من جيبه كتاباً انيقاً ، وضرب عسليه براحة يده ،  
 وفاداني بصوت اليف :  
 - انت ، ايها الحسون الصغير ! تعال هنا ! اجلس . ايها التتري الوجه ! هل  
 ترى هذه العلامة ؟ إنها « الف » في أب . ردد ذلك : « الف في أب »  
 « ب » في باب ، « ت » في توت . ما هذه ؟  
 - « ب » في باب ..

- صح ويهد .  
- « ت » في توت .  
- خطأ : « الف » في أب . انظر هنا . « د » في دار ، « ج » في جار  
ما هذه ؟

- « ج » في جار .  
- صح ، وهذه ؟  
- « د » في دار .  
- عظيم ، وهذه ؟  
- « الف » في أب .  
فقاطعتنا جدتي قائمة :  
- من الافضل لك ان تنام بهدوء ، يا ابتاه !  
- صه ! ان هذا يزيل عني بعض المتاعب ، تابع ، يا السكني !  
وطوق رقبي بساعده الحار الرطب ، واخذ يشير الى الحروف ، وقد امسك  
في اليد الثانية بالكتاب تحت انفي توأ .  
كان مزيج من رائحة الحل والبصل المشوي والعرق تفوح منه ، تكاد ان  
تخنقني . . .

كنت ارنو اليه مغتبطاً ، وقد جلست جدتي ومرفقاها على الطاولة ،  
وأصابعها على خديها ، تبتسم وهي تتأملنا .. قالت :  
- كفا كما ثرثرة !

واستدار جدي إلي ، يشرح لي بمودة :  
- انني اثرثر لانني مريض .  
ثم حك رأسه المتصبب عرقاً ، وقال موجهاً حديثه الى جدتي .  
- لقد اخطأت المرحومة ناتاليا عندما قالت : إن ذاكرته سيئة ، انها اشبه  
بذاكرة حصان اصيل ! تابع ، يا افطس الانف !  
ثم شدني اليه ، فيما بعد نحو السرير مازحاً :

- يكفي الآن ! احتفظ بالكتاب ، سأسألك غداً عن جميع الاحرف  
الايجدية ، فأياك ان تغلظ في قراءتها ، وسأهبك خمسة كوييكات لقاء ذلك .  
وعندما دنوت منه لأخذ الكتاب ، ضمنى اليه ، وقال بلوعة :  
- ما الذي حمل والدتك الى الذهاب وتركك هنا ، يا بني ؟  
فتدخلت جدتي :

- ما الفائدة الآن من الكلام عن ذلك ، يا ابتاه ؟  
- الاسى يحملني على ذلك .. آه ، يا لها من فتاة ، بش ان تضل !  
وابعدني عنه بحركة عنيفة :  
- اذهب من هنا والعب ، ابق في الساحة او في الحديقة لكنني امنعك  
من الخروج الى الشارع . أسمع ؟  
وهذا ما كنت أبعيه ، اذ لا اكاد ابدو فيها حتى يأخذ الاطفال الذين يلعبون  
في الوادي برشقونني بالحجارة ، فأرد لهم الصاع صاعين .  
كانوا يهتفون ، عندما يشاهدونني :  
- ها هي ذي البقة !  
ثم يتجمعون في كتلة واحدة ، ويصرخون :  
- اضربوه !

لم يكن عندي فكرة عن ماهية البقة ، وهذا يفسر انه لا يمكنني ان اعتبر  
أقوال الاطفال إهانة موجبة إليّ . وكنت اجد نفسي سعيداً باعتباري خصماً  
لجميع تلك الجماعة ، واراهم يتزاحمون هرباً عندما أصب عليهم وابلا من الحجارة ،  
ويتوارون خلف الادغال الكثيفة . وكانت هذه المعارك تنتهي دائماً على خير  
وجه ، بدون ان تقع أذية .

تلقنت القراءة بسرعة ، مما جعل جدي يزيدني عناية واهتماماً ، ويخفض من  
عدد مرات جلدي ، مع انني كنت ، في الواقع ، استأهل الجلد اكثر من ذي  
قبل . وبما انني أزداد نمواً عقلياً وجسدياً ، فقد بدأت في مخالفة اوامر جدي .  
فكان يكتفي بتعنيفي أو بهز أصابعه في وجهي .

تصورت عندئذٍ ، انه كان في غالب الاحيان يجلدني في صغري دون سبب وجيه ، وذات يوم بحت له بوجهة نظري ، فنقر نقرة ناعمة تحت ذقني ، ورمقني بنظرة ، وهو يتشدد في كلامه :

— ما .. ذا ؟

ثم اردف وهو يقهقه :

— انت ايها المسخ الصغير ! من انت حتى تدرك عدد المرات التي يجب ان تضرب فيها ؟ انا وحدي ادرك ذلك ! هل فهمت ؟

وامسكني من كتفي ، بينما كنت اشيح عنه ، ومرة اخرى اخذ يرمقني بنظراته :

— أأنت خبيث ام أبله ؟

— لا ادري .

— لا تدري ، ماذا ؟ حسناً ، سأعلمك إذن ، انت خبيث ، وهذا افضل

من البلاهة ! الحيوان ابله ، هل فهمت ؟ والآن ، امض والعب ..

وسرعان ما ابتدأت في تهجية كتاب المزامير ، وكان جدي يدرسنني ، في اغلب الاحيان ، بعد تناول الشاي ، حيث كنت اقرأ في كل يوم مزموراً بأكمله . كنت اتوقف عن القراءة لأستمع اليه ، وارنو الى وجهه المضطرب . كانت عيناه تحدقان من فوق رأسي ، وقد امتلأتا بكآبة عنيفة تدوب في جبروته المعتاد ، كان حاجباه الاحمران يرتعشان ، واظافره تنقر على الطاولة بعصبية ، وقد التمع الصباغ الذي يلوث اصابعه .

-- جداه !

— ماذا ؟

— قص علي حكاية ..

فياخذ في فرك عينيه كأنه قد استيقظ لتوه من النوم :

— هيا ! اكمل قراءتك ، ايها الكسول ! انك تفضل الاصغاء الى الحرفات

اكثر من المزامير !

كنت متأكداً انه ، بدوره يفضل الروايات الخرافية على المزامير التي حفظها عن ظهر قلب . وقد آل على نفسه ان يقرأ جزءاً منها كل ليلة قبل ان يذهب للنوم .

وابقى الح عليه حتى يعطف عليّ ، فيقص لي احدي قصصه قائلاً :

— حسناً : ستحتفظ انت بالمزامير طوال حياتك . أما انا فقريباً سأمضي

لاقابل ربي ..

ويستند الى حافة الكرسي ملقياً رأسه الى الوراء ، ويركز عينيه في السقف ، ويفرق في تأملاته ، ثم يبدأ بالكلام عن والده والايام الغابرة . لقد حدث ، ذات مرة ، ان جماعة من اللصوص سطت على بالاخنا قاصدة دكان التاجر زالييف . فأسرع والد جدي عدواً حتى قبضة الكنيسة لينبه الناس ، فأدركه اللصوص فأخذوه بسيوفهم والقوا به من فوق البرج .

— كنت لا ازال طفلاً صغيراً فلم ادرك تلك الحادثة ، ولم اعد اذكرها . وتعود ذكرياتي الاولى الى مجيء الفرنسيين عام ١٨١٢ ، ولم اكن اتجاوز الثانية عشرة حينذاك ، عندما اقتادوا حوال ثلاثين اسيراً حتى بالاخنا ، وقد كانوا ضامري البنية ، فبرزت عظامهم ، وتهدلت اسمالهم حتى غدوا كالمسولين ، وقد تجمدت اطراف بعضهم من البرد فاصبحوا عاجزين عن الحركة يستطيعون النهوض على اقدامهم ، واراد الفلاحون قتلهم عن بكرة ابيهم . بيد ان الحراس وحامية المدينة منعوهم عن ذلك ، وارجعهم عنوة الى اكواعهم . ثم جرت الامور على ما يرام ، واعتاد الفريقان بعضهم بعضاً ، وكان الفرنسيون طيبو القلب ، ثاقبو الفكر ، يتغنون باجسادهم حينما طاب لهم .. واخذ نبلاؤنا يأتون من نييجني نوفجورود في العربات ليتفرجوا عليهم .. وما زلت اذكر ان شيخاً كان من كبار النبلاء ، حجب وجهه بيديه مرة وراح يبكي ويصيح : « هل شاهدتم ما اتاه ذلك الشيطان نابليون بحق هؤلاء الفرنسيين ؟ » تأمل ذلك ، روسي طيب القلب ، تحمله الشفقة على هؤلاء البؤساء الاجانب .

ويركن جدي الى الهدوء والسكون فترة ، ويسدل عينيه ، ويسوي شعره



الطويل بيده ، ويحني رأسه .. ثم يتابع حديثه باهتمام ، مفتشاً في زوايا ذكرياته العتيقة :

- وأتى الشتاء باعاصيره الهائجة ، ورياحه القارسة تزجر بعنساد فوق الاكواخ ، فكان الفرنسيون يعدون حتى نوافذنا ينادون والدتي ، وكانت تصنع الكعك ، يتسمرون في مكانهم وهم يقرعون الباب على والدتي ويطلبون منها الكعك الساخن ، وكانت والدتي لا تسمح لهم بالدخول الى المنزل بل كانت تناولهم الكعك من خلال قضبان النافذة ، فيتخاطفونه ساخناً تقوح منه رائحة زكية فيضعونه فوق القلب تماماً . ولم ادرك كيف كانوا يتحملون تلك الحرارة الشديدة ! ومات اكثرهم من الصقيع ، لأن سكان البلدان الحارة لا يستطيعون تحمل ذلك الجليد . وقد اقام اثنان منهم عندنا ، احدهما ضابط والثاني مرافقه ويدعى ميرون ، وكان الضابط فارغ الطول ، نحيل القوام ، يتجول في معطف نسائي يصل حتى ركبتيه . كان طيب النفس لطيفاً ، مدمناً على الشراب . وكانت امي تصنع الجعة بالسر ، فكان يبتاع منها مقادير كبيرة .. ويأخذ في انشاد اغانيه اللامتناهية في ساعة نشوة السكر . وأخذ شيئاً من لفتنا ، فكان يردد في بعض الاحيان : « بلادكم ليست بيضاء ، إنها سوداء جافة .. » اما مرافقه ميرون فقد كان مولعاً بالتحليل كثيراً ، يتجول بين الاسطبلات ويسأل القوم السياح له العناية بالتحليل بلغة الاشارات . بيد أن القوم قد خافوا منه بادىء الامر ، فهو عدو وليس من شيء يمنعه من إتيان السوء . ولم تمض مدة من الزمن حتى أمسى الفلاحون ، بعد ان جرّبوه ، بأنونه من تلقاء أنفسهم .. ولكنه فقد عقله فيما بعد وذات يوم امطره رجال الاطفاء ضرباً حتى مات .. اما الضابط فبقي يذوي ويذوي مع اطلالة الربيع ، وبعد ذلك مات ، دون اي ضجة في عيد القديس نيقولا . واحسست بالاسف لأجله وذرفت عليه بعض الدموع سراً . فقد كان انساناً لطيفاً . والعالم لا يوجد فيه عدد كبير من أصحاب القلوب الطيبة ..

كان جدي يتمدد في ذلك الجو الداكن بشكل مريع وقد اشتدت الظلمة .  
كانت عيناه تشمان كعيني هر في الظلام . وهو يتحدث عادة يهدوء . وتأمل ..  
بيد أنه ، وقد اخذ يتكلم عن نفسه ، أكثر حمية وتفاهرا . ولم تكن عظامه  
تروق لي :

— « تذكر ذلك ا » .. « إياك ان تنساه ا » .

ولم يكن يقص علي " شيئاً من اقصيص الجن ، فقد كانت اقصيصه من صميم  
الواقع الحياتي من ماضيه بصورة خاصة . وادركت ان كثرة الاسئلة تزعجه  
كثيرا لذلك كنت عندما تسنح الفرصة اطرح عليه وابلا منها :

— قل لي ايها افضل الروسي ام الفرنسي ؟

فيجيب غاضباً :

— ومن يستطع الاجابة على هذا السؤال ؟ انالم اشاهد الفرنسيين عن

كثب في وطنهم الاصلي .

ثم يضيف .

— الفأر نفسه في حجره عظيم الفضيلة .

— وهل الروسيون طيبون ؟

— البعض كذلك والبعض الآخر لا ! لقد كانوا اناساً طيبين يوم كانوا عبيدا

تقيدهم الاغلال . اما وقد امسوا أحرارا فقد تناسوا العادات القديمة . ولا شك

ان النبلاء قساة القلوب نوعاً ما ، لكن النبيل اذا كان طيب القلب ، كان

فاضلاً جداً .. وبعضهم حقى تماماً .. وكل ما نحتاجه ان نشحذ عقولنا . بيد

انه ليس من ثمة ما تشحذها به ..

— هل الروس اشداء ؟

— البعض منهم اشداء ، بيد ان القيمة ليست كائنة في القوة بل في الحذاقة ا

فانت مهما بلغت من القوة ، يبقى الحصان متفوقاً عليك في هذا الميدان .

— ولماذا حاربنا الفرنسيون ؟

- الحروب من شأن الحكومات والقيصر . وليس علينا ، نحن عامة الشعب ان ندرك مثل هذه الامور ..  
بيد انني لن انسى طوال عمري ، ما اجابني به جدي عندما سألته عن نابليون بوناپرت ومن يكون .. قال :  
- كان رجلا شجاعاً ، وقد اراد الهيمنة على العالم باسره حتى يتمكن من نشر المساواة فيما بينهم ، وإمكان العيش معاً . فلا نبلاء ، ولا عامة ، بل الجميع سواسية . ومهما اختلفت الاسماء سيبقى الجميع متساوين في الحقوق ..  
كان معظم الوقت ، يتأملني بعينيه الواسعتين فترة طويلة ، وكأنه يشاهدني للمرة الاولى ، وهذا ما كان يزعجني كثيراً .  
بيد انه لم يحدثني البتة عن ابي او عن امي ..

\* \* \*

اثنا هذه الاحاديث كانت تدلف جدي احياناً الى الغرفة ..  
فتجلس على كرسي في الزاوية ، في هدوء تام ، وتركن الى الصمت فترة طويلة ، ثم تسأل ، على حين غرة ، بصوتها الناعم :  
- هل تذكر ، يا ابتاه ، كم كانت تلك الايام جميلة ، يوم حججنا فيها الى ميرون لزيارة العذراء البتول ! في اي سنة حدث ذلك ؟  
- لا اذكر بالضبط ، بيد ان ذلك حدث قبل الكوليرا ، في العام الذي طهروا فيه الغابات من الأولنخاريين .  
- بالضبط ! فما زلت اذكر كم كنا نرهبهم !  
- اجل ، اجل !  
فسألت عن هؤلاء الأولنخاريين ومن يكونون ، وما الذي اجبرهم على التواري في الغابات . فأجاب جدي مشمئزاً :  
- لم يكونوا سوى فلاحين عبيداً ، هربوا من العمل في المصانع والحقول .  
- وكيف امرهم ؟

— هل لك ان تعرف؟ لقد كان ذلك شبيهاً بلعب الاطفال .. البعض يعدون ويختبثون ، والآخرون يسكون بهم . وبعد ان انتهى القبض عليهم جلدوا بالسياط ، وضربوا بالهروات ، ثم جدعوا لهم انوفهم وكووا لهم جباههم بالنار كي يشاهد الناس العقاب الذي احل بهم .

— ولماذا فعلوا ذلك ؟

— من يعلم ؟ ذلك امر غامض مبهم . ومن المسير التمييز بين الحابل والنابل من الطرفين ..

فقلت جدتي مرة ثانية :

— هل تذكر ، يا ابتاه ، ماذا جرى بعد النار العظيمة ؟

فاستوضح جدي ، وقد عقد جبينه :

— اية نار عظيمة ؟

كانا يفرقان في ذكرياتها ويتسيبان وجودي في هذه الاحوال ، فتدافع احاديثها موزونة منسقة حتى يخيل لي انها يشدوان أغنية شجية ، بيد انها اغنية كثيبة ، موضوعها النار ، والامراض ، والمصائب التي تنزل بالمخلوقات البشرية ، واللصوص والنبلاء المنحدرون من الطبقة الراقية ، والمشردون ..

ويدمدم جدي :

— ما اكثر ما رأينا : وشاهدنا في حياتنا !

فسألت جدتي !

— وهل كانت حياصة رديئة ؟ هلا تذكر جمال ذلك الربيع الذي ولدت

فيه عارفارا ؟

— كان ذلك سنة ١٨٤٨ ، عام الحملة على المجر .. وقد اقتادوا تيخون بما

يوم واحد من عمالها .

فتعالت من جدتي تنهيدة ، وقالت :

— ولم يعد منذ ذلك الحين !

— اجل لم يعد ! ومنذ ذلك الحين الى الآن ورحمة الله تنزل بعيداً عنا كالماء  
اذا سال على سطح مشحم . آه . إن فارغارا ..  
— كفى يا ابتاه .  
فاجاب محتدأ :

— لماذا كفى ؟ ان اولادنا يغدون اردالاً رغم كل العناية التي بذلناها لهم .  
لقد ذهبت جهودنا التي بذلناها ! كالبنار في ارض قاحلة ! كنا نعتقد اننا نضع  
اشياءنا في مكان امين ، بيد ان الله اراد ان ينثر كل شيء من بين ايدينا .  
وكن لذع بالنار ، راح يقفز في زوايا الغرفة ، يشتم ابنائه هزازاً قبضته  
الصغيرة العظيمة في وجه جدتي ثم صرخ :  
— لقد كنت تدافعين عن هؤلاء اللصوص وافسدتم بتدليلك اياهم . انت  
ابتها الساحرة ! انت ابتها الساحرة !

ورمى نفسه في زاوية من زوايا الحجرة منتحباً ضارباً صدره الفارغ بيديه ،  
باكياً بصورة جد مؤثرة :  
— لم يا ربي ؟ هل اخطائي اكثر من اخطاء الناس حتى انال هذا الجزاء  
القاسي ؟  
وأخذت عيناه تلتمعان سخطاً والماء بالدموع ، واخذ جسمه يرتجف كورقة  
في مهب الرياح ..

كانت جدتي تبقى قابضة في زاوية معتمة ترسم شارة الصليب ، ثم تنهض  
بجذر وتمشي اليه ، وتقول معزية :  
— لماذا تعذب نفسك بهذه الصورة ؟ ان الله بكل ما تأتي يداه علم ا ..  
فليس ثمة اولاد افضل من اولادك . ان الامر متشابه في كل بقعة من بقاع  
الارض ، يا ابتاه .. منازعات ، خصومة .. وجميع الآباء والامهات يغسلون  
خطاياهم بدموعهم السخية ، ولست الوحيد الذي ...  
كان حديثها ، في بعض الاحيان ، يرد اليه الهدوء والسكون ، فيدس نفسه

في الفراش متعباً وتتابع ، انا وجدتي ، الى غرفتنا . وذات يوم دنت منه تك.  
بكلها اللطيفة ، فاستدار حول نفسه وكال لها لظمة على وجهها . فتأيد  
جدتي ، حاجبة شفقتها بيدها ، حتى إذا استعادت سكونها ، همست في صو.  
أنيس :

— يا لك من أحق !

ثم تبصق الدم عند قدميه ، فيرفع يده فوق رأسه ، ويصرخ :

— إ مض من هنا قبل ان اقتلك !

فاجابته جدتي ، وهي تشير ناحية الباب :

— احق .

فرمى بنفسه وراءها ، بيد انها تجاوزت العتبة ببطء ، واغلقت وراءها الباب  
في وجهه . فصرخ وقد تأجج وجهه كشملة من النار ، ممسكاً بقبضة الباب ضار  
عليه بيديه :

— يا للفاجرة المعجوز !

كنت في هذه الاثناء قابلاً على ظهر الموقد ، غير مصدق عيني ، فهذه المر  
الاول التي يضرب فيها جدتي وانا حاضر ، وقد تأملت من بشاعة ذلك  
وادركت من خصلته تلك عن صفة جديدة ، اخذت تثقل كاهلي بصورة  
تطاق .. بقي هناك متشبهاً بقبضة الباب وقد علت وجهه الزرقة ، وعلى ح  
غرة اصبح في منتصف الغرفة ، ثم ارتقى على ركبتيه مستنداً على ذراعه . ثم قف  
واقفاً ، وضرب صدره بكلتا يديه ، وهو يصرخ :

— يا الله ! يا الله !

فاعطيت ساقى للريح ووليت الادبار ..

كانت جدتي في الطابق العلوي لا تهدأ لها ساكنة . وهي تفرر كمية م  
الماء في قمها .

— هل تتألمين ؟

فمضت حيث المنسلة وبصقت فيها الماء . ثم اجابت بصرامة :  
- لا ابدأ ا لقد جرحت شفتي ولم تصب اسناني بسوء .  
- لماذا فعل ذلك ؟  
فاجابت وهي ترفو الى النافذة .  
- لقد فقد صوابه ! .. اذهب الى فراشك ، وانسى ما حدث ..  
فسألته عن شيء آخر ، بيد انها صرخت بشدة غير مقصودة ، على غير  
عادتها !  
- الم تسمعي ؟ امض الى فراشك ! يا لك من ولد عاق !  
بقيت قرب النافذة تمص شفتها وتبصق . من حين لآخر ، في منديلها .  
وبقيت قابلاً اطلع اليها ، وانا انزع عني ثيابي ، وقد التمتت فوق رأسها جمهرة  
من النجوم في غسق الليل . وعندما تدهرت بالحاف اقتربت مني ودغدغتنني  
بلطف على جبينني :  
- نم في امان ، سأهبط اليه الآن .. فلا تأسف من اجلي ، ايها الحسون  
الصغير ! هيا ، الى النوم !  
قبلتنني وانطلقت . وتركتني غارقاً في بحر من الاسى والالم . فنهضت من  
السريير ، وتوجهت حتى النافذة . حيث قبعت أتأمل في الطريق الخاوي ، وانا  
ارزح تحت وطأة من العذاب القاسي .

ومرة اخرى اصبحت الحياة غير محتملة ! ففي مساء يوم ، وقد انتهينا من تناول الشاي واخذت في قراءة المزامير بصحبة جدي ، بينما انهمكت جدتي في توضيب الصحون وغسلها ، ، إذ بالخال ياكوف يدخل الغرفة كريح صرصر . فقد كان مشعث الشعر كعادته ، يشبه في منظره الخارجي مكنسة بالية ، والقي بقبعته في احدى زوايا الغرفة واخذ يتحدث بسرعة من غير ان يرمي السلام ، وأثناء ذلك كان يأتي بحركات غريبة همجية :

– ميخائيل غاضب ، يا ابتاه ! لقد تناول الغداء عندنا ، وشرب حتى الثمالة ، واصبح كالجنون ! فحطم الصحون ، ومزق ثوباً لأحد العمال ، وهشم النافذة ، وشتمني وجريجوري ، وهو الآن آت الى هنا . وقد حلف على النيل منك ! كان يذبح : « سأززع شعر لحيته ! » ثم يصرخ ! « وسأقتله ! » . يجدر بك ان تأخذ حذرک منه ..

وانثنى جدي فوق الطاولة ، ونهض متحاملاً على نفسه ، وقد تشنجت عضلات وجهه ، وصرخ قائلاً .

– هل تسمعين ذلك ، يا اماء ؟ ما رأيك ، ايه ؟ يرد قتل والده ! هذا الذي من لحي ودمي ! حسناً ، لقد حان الوقت ! ايها الفتيان ..

واصلح وضعه ، ثم اخذ في الذهاب والمجيء في الغرفة ثم توجه الى البساب وانزل المزلج الثقيل . ثم قال :



- انتمآ تعدوان وراء مهر فارفارا ! انني اعلم ذلك ، لكن اليك ما ستصيبه ..  
والتفت نحو ياكوف ، وانثنى هازئاً تحت انفه توا . فتراجع هذا الاخير ،  
وقال بصوت حاد :

- وما ذنبي انا ، يا ابتاه ؟

- انت ؟ انني اقهملك جيداً ، انت الآخر !

لم تنبس جدتي ببنت شفة ، بل اخذت ، بكل هدوء ، تضع الفناجين في  
الدرج ، ثم تقفل عليها :  
- لقد ايت احرسك !  
فقمقه جدي بمكر :

هاها ! انه جميل اعلمه ! اشكرك يا بني ! اصغي ، يا اماء ! اعطي هذا  
الماكر شيئاً يلهو به ، قضيب النار او المكواة ، وانت يا ياكوف ، في اللحظة  
التي يتوصل فيها اخوك الى الدخول فاعطه اياها ، على رأسي ..  
فابتعد خالي في احدى الزوايا ، واضعاً يديه في جيبه .

- حسناً بما انك لا تريد ان تصدقني .

فصرخ جدي ، وهو يرفس الارض بقدمه :

- اصدقك ؟ أنت ؟ انني استطيع ان اصدق خنزير ، او هر او جرد ،  
اما انت فلا : انت الذي ناولته الشراب المسكر واهجته ، انني اعلم ذلك !  
حسناً .. اما الآن ، ينبغي عليك ان تتخلص من أحد الاثنين . هيا اختر .  
واقتل أحدهما ، انا او هو !

والتفتت الي جدتي ، وهمست :

- امض الى الطابق العلوي ، وراقب خالك ميخائيل من خلال النافذة ،  
واعلنا عندما تراه بسرعة ! هيا امض إلى فوق ، اسرع !  
فصعدت السلم عدراً وقبعت الى النافذة ..

كنت مضطرباً ببعض الشيء عندما كنت افكر بما سيفعله خالي الفاضل

عندما يصل المنزل ، بيد انني كنت فخوراً بالمسؤولية التي انيطت بي .. كانت المناظر المحيطة تبعث في السأم ، حتى غدوت لا احتمل هذه الحالة ، فاخذ صدري يغلي كأناء مليء بالبخار ، وقد ضاقت الاضلاع به حتى كاد ان ينفجر تحت وطنة الانتظار ..

وعلى حين غرة ، لمحت خالي يطل من خلف أحد المنازل ، وقد غطت قبعته رأسه حتى اذنيه . كان يرتدي معطفاً قصيراً ، وقد توارت احدى يديه في جيب سرواله ، بينما راحت الاخرى تشد على لحيته بغيظ وعنف . ولم استطع تمييز ملامح وجهه ، بيد ان شكله قد اوحى لي انه قادر على القفز عبر الشارع ، واغماذ مخالفه السوداء المليئة بالشعر في بيت جدي . كان ينبغى علي ان اذهب واخبرهم بمجيئه ، ولكنني لم اقدر ان انتزع نفسي بعيداً عن النافذة ، بل بقيت اراقبه باهتمام وهو يقترب بجذر شديد ، يجتاز الشارع ، ومن ثم يبلغ الى أسماعي صرير باب الحانة يفتح ، ثم يلج الى الداخل .

فزلت الدرج اربعاً اربعاً وقرعت بشدة باب حجرة جدي ، فصرخ المجوز بغيظ دون ان يفتح الباب :

- من هناك ؟ انت ؟ حسناً هل ولج الى الحانة ؟ ماذا تقول ؟ لا بأس ارجع من حيث جئت .

- إنني مضطرب ا

- لا حيلة لي في ذلك .

فعدت ادراجي الى النافذة ... كان الظلام قد بدأ يدب بخيوطه .. واخذت الاضواء الصفراء تلتهم في النوافذ .. وكان احدهم ينشد في الحانة ، وكلما فتح الباب رن في اذني صوت منكسر منهك اعرف فيه صوت المتسول نيكيثوشكا الاعور ، وكان صرير الباب يتعالى على صوته ، فتتوارى الاغنية وكأنها اصبحت صدى ..

كانت جدتي تحسد ذلك المتسول على عيشه ، وعندما تستمع اليه ينشد تتعالى

منها تنهدة ثم تقول :

- ما اسعده على هذه النعمة ، لانه يعرف هذه الاغاني الرائعة .  
وكانت تناديه احياناً الى ساحتنا ، فيقعد عتبة الباب وقد أتكا على عصاه  
ينشد مقطوعات من الشعر، بينما تجلس جدتي بجانبه تمطره بأسئلتها الغزيرة :  
- اتقصد ان تقول ان العذراء الطاهرة ظهرت في ريازان ؟  
فيجيبها بلهجة واثقة :  
- انها في كل مكان !

ثم غرقت في بحر من الذكريات كما يغرق المرء في حلم بديع لا يبسد ان  
ضجيجياً وصراخاً وأصواتاً ترد من الحانة والساحة في الاسفل قد اعادتني الى  
الواقع ، فانتثيت على حافة النافذة لأشاهد جدي والحال ياكوف ، ورجلا آخر  
من عمال الحانة ، يشير منظره الضحك ، يدفعون خالي الثمل ميخائيل خارج  
الحانة الى الطريق ، كان يشق طريقه متعثراً فيكيلون له اللطبات ويركلونه ،  
حتى تواري اخيراً في غبار الطريق .. واغلقت البوابة واوصدت بالزلاخ ورمي  
بقبعة الحبال الثمل من فوق الحاجز . ثم خيم الصمت والسكون .  
وبعد فترة من الزمن قضاها خالي ميخائيل مضطجعاً ، رجع فانتصب على  
قدميه ، وامسك بنجر من على الارض ودك به البوابة ، فاحدث دويماً هائلاً ،  
تدافع على اثره الناس من الحسنة وقد ائتمرت أعناقهم ، كما غصت النوافذ  
بالرؤوس ، وامسى الشارع يضيق بالصياح والضحك . كان ذلك مشهداً بديعاً  
شبيهاً بأساطير الجنيات ، بيد انه كان مزعجاً ومرعباً في الوقت نفسه ..

وفجأة ذهب الجميع وانتهى كل شيء ، قران الهدوء ..

... وهذه جدتي قد قبعت على صندوق للثياب ، حانية الظهر ، لا  
تأتي حركة ، وانا اقف مواجهتها أربت على خديها النديين الناعمين الدافئين ،  
من غير ان تأخذ بالها متني على ما يظهر ، وهي تهمس بأشياء عديدة :  
- رباه القدير ، اليس لديك كفاية من العقل لتوزعه علينا ، انا واولادي ؟

رباه ، سكن عطفاً بنا ..

\* \* \*

لم يمض على وجود جدي سنة كاملة في منزل شارع بوليفوي ، من الربيع الى الربيع . حتى اكتسبت الدار ، في تلك الفترة القصيرة ، سمعة سيئة جداً . فكان الاولاد يأتون متزاحمين ، عصر كل احد ، الى بوابة بيتنا ، فيجتمعون امامها ويشرعون بالهتاف مبهجين فرحين :

- لا بد معركة جديدة في منزل آل كاشرين !

وفي مساء كل يوم كان الخال ميخائيل يأتي ، ويقم طوال الليل ، وقد جعل من المنزل هدفاً لحصاره ، ومن سكانه فريسة للقلق الدائم .

وفي اغلب الاحيان كان يصطحب معه مساعدين او ثلاثة ، من مستخدميهم في معمل كونا فينو ، فيتسلقون السور سوية ، ومن ثم يهبطون الى الحديقة ، حيث يطلقون لحياهم الثمل العنان ، فينتزعون جذور الفريز ، والاعصان الندية ، وكل ما يقع في متناول ايديهم . وذات مساء اندفعوا الى غرفة القسيل ، ومن ثم شرعوا في تحطيم كل ما يمكن تحطيمه ، وقد اخذوا معهم الموقد بعدما انتزعوا بلاط الارض ، وخلعوا الباب ، واخشاب النوافذ .

ويبقى جدي ملازماً للنافذة ، مكفهر الوجه ساكناً ، يرهف السمع اليهم وهم يحطمون املاكه ، اما جدتي فكانت تعدو عبر الساحة ، حيث تتوارى في العتمة فلا يصلنا منها سوى صوتها المتوسل :

- ميخائيل ! فكر فيما تفعل ، يا ميخائيل !

لم افكر مطلقاً في اللحساق يجدي في مثل هذه الاحوال ! لقد كان ذلك مستحيلاً . بيد ان البقاء من دونها امر مخيف جداً ، فاذهب الى حجرة جدي ، الذي يصرخ في وجهي بشدة :

- اخرج من هنا أيها الشيطان !

فاعدوا الى الطابق العاوي ، افرس في الظلمة الداكنة حديقة بيتنا ، مركزاً

بصري على جدتي، محارلاً عدم تضييعها ، وانا دياها واصرخ خوفا من أن يقتكوا بها ، بيد أنها ذأبى العودة .

وذات مساء اقعد المرض جدي ، فاضطجع في فراشه واخذ يثن بشكل يقطع نياط القلب . هازأ رأسه ذات اليمين وذات اليسار فوق الوسادة :

— اهكذا ما حيدت من اجله ، وادخرت المال في سبيله ؟ لولا الفضيحة لاستدعيت الشرطة ، ونهرتها امام المحكمة . يا للفضيحة ! من سمع عن ابوين يسلان اولادهما للشرطة ؟ لا بد لك ايها المعجوز ، سوى تحمل ذلك او ان تبقى ممدداً هنا بدون حراك !

وعلى حين غرة ، القى بقدميه على الارض ، ومضى يجر نفسه الى النافذة . فصرخت به جدتي ، وقد تعلقت بذراعه :

— قف ، الى اين تمضي ؟

فنهرا ، وهو يكاد يخنق :

— احضري لي شمعة !

فأشعلت جدتي الشمعة واحضرتها له . فامسك بها كجندي يمسك بندقيته ، فصاح ساخراً من خلال النافذة :

— تقو ، ميشكا ! ايها المخنون ! ايها الكلب الهائج ! يا سارق الليل !

وفي ذات اللحظة اذ بلوح زجاج من النافذة يتحطم ، وتقع قطعة منه على المائدة قرب جدتي . فصاح جدي ببلهجة لم اقبينها إن كانت بكاء ام ضحكاً :

— لقد اخطأت الهدف !

فانتسلته جدتي بين ذراعيها ، وجرته الى السرير ، وهي تدمدم بصوت مرتجف :

— ماذا تفعل بحق المسيح ؟ لو وقع شيء لكانت سيبريا بانتظاره ! اتعتقد

انه يفهم ماذا تعني سيبريا عندما يكون على هذه الحال ؟

وتمدد جدي وقد ارتجفت ساقيه ، وهو ينتحب بصوت اجش :

— ليقتلني ...

وترامى الينا من الخارج صوت زججرة وغضب ... فأختطفت قطعة الزجاج  
عن المائدة . وعدوت نحو النافذة . فامسكت بي جدتي ، وشدتني نحو الزاوية ،  
وهي تصيح :

– ايها المجنون الصغير !

ومرة اخرى تسلق خالي الباب الخلفي ، وأخذ يحطمه بهراوة غسيلية ،  
وقبع جدي ينتظره في الصالة ، يسانده اثنان من الجيران ، وقد حمل كل منها  
هراوة في يده . اما جدتي فقد قبعت وراء الجميع تتوسل :

– اتركوني ابلغه .. اتركوني أقل له كلمة واحدة ..

ومنعاً لكل طارئ ، رفع جدي هراوته ، وقد وضع قدماً الى الامام ،  
فامسى بذلك يشبه الفلاح حامل الرمح في لوحة «صياد الدببة» . وعندما اقتربت  
منه جدتي دفعتها بقدمه ومرفقه بعيداً .. كان الجميع يقفون في وضع تأهب ،  
وانتظار .. وكان ضوء القنديل الكائن فوق رؤوسهم على الحائط ينير وجوههم  
بانواره الباهتة ، اما انا فبقيت في الطابق العلوي اراقب ذلك المنظر الخفيف ،  
وتدفعني الرغبة في انتشال جدتي الى جانبي ، بعيداً عن ذلك المكان المرعب .  
بقي خالي يضرب الباب هانجاً ، حتى تهشمت مفصلته السفلية وتركته  
يتأرجح في المفصلة العلوية التي أوشكت على الانهيار . وتوجه جدي الى مساعديه ،  
قال لهم بصوب كنيب :

– اضربوه على ساقيه ويديه . واحذروا من اصابته في رأسه !

وبالقرب من الباب كانت تركت نافذة صغيرة لا تسمح لأكثر من الرأس  
بالمرور من خلالها ، فحطم خالي زجاجها ، وتركها تفغر فاهاً في الظلمة الداكنة  
من بين شظايا الزجاج المتكسر . فصعدت جدتي حتى بلغت تلك النافذة ، ومدت  
يديها من خلالها ، وأشارت بها الى ميخائيل وهي تقول :

– ميشا بحق المسيح ، عد من حيث جئت ! انهم سيهشمون احد اعضاءك  
ان بقيت هنا اعد !

بيد انه كال لها بهراوته .. وتمكنت من مشاهدة شيء غليظ يلوح قرب

النافذة يصيب ذراعها . فاذا بها ترتمي على الارض ، وهي تصرخ من جديد :  
- ميشا ! لذ بالهرب ..

ثم تكورت على نفسها ، وسكنت .

فصاح جدي ، بصوت مرعب :

- آه .. اماء !

وانبلج الباب ، وانطلق خالي داخل الغرفة ، بيد انه سرعان ما تبايل وسقط  
على العتبة .

ثم نقلت جدتي الى حجرة جدي الذي لحقنا بعد قليل .

استوضح مهتبا ، وقد إنثنى عليها :

- هل تحطم العظم ؟

فأجابته ، من غير ان تفتح عينيها :

- اعتقد ذلك ! لكن ماذا فعلتم به ، ماذا فعلتم به ؟

فصرخ جدي هائجا :

- ارجعي إلى عقلك ، يا امرأة ! اتظنيني وحشا ؟ لقد اوثقناه ، وهو ممدد

الآن في الاسطبل . وقد صببت سطلا من الماء على وجهه . يا لذلك الشيطان

الذي انجسته ! ترى ، من اين اتيت به ؟

فتأوهت جدتي ..

ثم اضاف جدي ، وهو يجلس على السرير بجانبها :

- لقد بعثت في طلب المجبرة . حاولي تحمل ذلك بعض الوقت . سوف

يحملان الموت اليانا يا اماء ، سيرسلان بنا الى المثوى الاخير قبل ان

يحين اجلنا !

- اعطها كل شيء .

- وفارقارا ؟

بقيا مدة طويلة يتحدثان ، جدتي بلهجتها الرزينة الكئيبة ، وجدي بلهجته

الغاضبة .

وفي النهاية اطلت امرأة صغيرة متكورة ، يلاً فمها وجهها ويصل من الاذن الى الاذن ، وقد فتح كفم السمكة فوق فكها الاسفل المضطرب بدون انقطاع ، أما منخارها فحاد ناتيء يشطر الشفة العليا حتى يبدو للناظر اليه أنه يسعى الى الارتقاء في أحضان الجوف الفاجر شديقه . أما عينها فقد بدتا صغيرتين غائرتين يستحيل للناظر رؤيتها . ولم تكن تسير على الارض ، بل بالاحرى تزحف على الارض متكئة على عكازين ، وقد حملت في احدى يديها صرة صغيرة ينبعث منها صوت رنين غريب .

اعتقدت انها الموت يزحف باتجاه جدتي ، فعدوت نحوها وشرعت اصرخ بكل ما اوتيت من قوة :

- اخرجي من هنا !

بيد ان جدي انتشلني ، ورفعني بين ذراعيه ، وصعد حاملاً بي حتى الطابق العلوي .



## ٧

لقد فهمت في وقت مبكر أن إله جدي يختلف اختلافاً كلياً عن إله جدتي فكانت هذه الجدة ، عندما تنهض صباحاً ، تبقى فترة طويلة في السرير تسرح شعرها ، فيهتز رأسها ، وتصبر اسنانها ، وهي تمشط خصله الحريرية الناعمة ، السوداء الطويلة ، وتلعن بصوت هامس ، مخافة إيقاظي :

- لتحل بك الجدري .. ليأخذك الطاعون .. لتحل عليك اللعنة ..

وفي بعض الاحيان كانت تمتنع عن تسريحه فتجمعه ، من غير عناية ، في ضفيرة واحدة ، وتسرع بالاغتسال ، وتند عنها طوال الوقت دمدمة غاضبة ثم تعود اليها نضارقتها .. ثم تقوم عمودها الفقري ، وتحرك رأسها الى العلاء ثم قليلا الى الورا . وتتأمل بعطف وجه عذراء قازان المستدير ثم ترسم شارة الصليب باندفاع زائد وهي تهمس :

- ايها العذراء المباركة يا أم الاله ، هيينا بركاتك في هذا اليوم الطالع ..

وتثنى حتى تلامس جبهتها الارض ، وتنهض بعدها بهدوء ، ثم ترجع الى الهمس بحمية زائدة وحنان كبير :

- يا منبع السعادة والسرور ، أيها الجمال الطاهر ، يا شجرة تفاح في عز نوهها ...

كانت كل صباح تجد تعابير جديدة من المديح والعبادة ، مما جعلني اتعلق بصواتها . فاعبرها كل اهتمامي :

- ايا القلب الكبير الزائد الطهارة والالوهية .. يا نور نفسي ، يا شمس السماء البهية ، ويا ام الاله الحبيبة ، ويا حارسة مأواي ، انقذينا من أعمال الشيطان الرجيم ، واحميني من ان اهين احدأ . او من تلقي إهانتك من غير فائدة .. وتلتصع ابتسامه رقيقة في عيناها السوداءوين . فيخيل اليّ انها تستعيد شبابها وقتوتها ، ثم ترسم بيدها الثقيلة وبجركة هادئة اشارة الصليب ، وتضيف :

- يا يسوع الحبيب يا ابن الله ، إرحمني انا الخاطئة بشفاعه امك الطاهرة .. كانت صلواتها ، دائما ، تصدر عن قلب نقي طاهر ساذج . ولم تكن صلاة الصباح تستغرق وقتاً طويلا ، اذ لا بد من القيام بأعمال البيت . وكان ان تأخرت في تقديم شاي الصباح ، يطرها جدي بوابل من اللوم والتأنيب لا ينتهي .

كان جدي في اغلب الاحيان يستيقظ قبل جدتي ، فيصعد الى الطابق العلوي حيث يجدها مستغرقة في صلواتها ، فيفرق في سكون عميق وهو يرهف السمع اليها ، وقد علت على شفتيه الصغيرتين ابتسامه احتقار ، ثم يخاطبها بعد ذلك اثناء تناول الطعام :

- كم مرة علمتك الصلاة ، انتها العجوز البلهاء ؟ ومع ذلك فأنت مصرة ، في تعنت ، على تلاوة سخافات من صنعك ! كيف يتقبل الله ذلك ؟ هذا ما يفوق إدراكي !

فتجيبه جدتي بلهجة صارمة واثقة :

- اما هو فيدرك .. ان المرء يستطيع ان يفاتحه بكل شيء وهو يدركه بكل تأكيد ..

- إنك معنوه ، هذه هي حقيقتك ! تقوا !

كان الهها يرافقها طول اليوم ، حق انها تكلم الحيوانات عنه ، وكنت احس ان جميع المخلوقات من بشر وطيور ونحل وكلاب وحتى النباتات كذلك ، تخضع لذلك الاله القدير ..

وذات يوم تشاجر جدي مع امرأة صاحب الحان ، فأنت هذه الاخيرة في قدحها وذمها على ذكر جدتي ، واكثر من ذلك قدقنتها بجزرة كبيرة . فلم تأت

جدتي شيئاً بل قالت لها :

— انك بلهاء يا سيدتي العظيمة !

بيد أنني استأت كثيراً من افعال تلك المرأة تجاه جدتي ، واتخذت قراراً بالثار لها .. فبقيت فترة طويلة افلتش عن طريقة حسنة أنال بها من تلك المرأة الضخمة . وفتشت عن طريقة لم يستعملها احد من الناس ..

واستقر رأيي في النهاية على التدبير التالي : انتظرت ذات يوم امرأة صاحب الحان السمينة حتى أتت الى القبو طلباً لحاجة ما ، فأغلقت الباب خلفها واقفلته ، واخذت أرقص رقصة الثار ، ثم رميت بالفتساح على السقف . ومن ثم انطلقت بسرعة فائقة الى المطبخ حيث كانت جدتي تهيء الطعام . ولم تدرك اول الامر مبرر بهجتي ، حتى إذا علمت ذلك صفعتني مرات عدة ، ثم نهرتني حتى الساحة طالبة مني احضار المفتاح . فأثيت به صامتاً ، مندماً لهذه النهاية غير المتوقعة ، ثم انطلقت الى احدي زوايا الساحة ، واخذت اراقب جدتي تطلق سراح الاسيرة التي أتت الي بصحبتها ، واخذتا في الضحك ، وكأنها صديقتان حميمتان . وأمسكتني جدتي من عنقي ، وجرتني حتى المطبخ ، واستوضحت :

— لماذا فعلت ذلك ؟

— الم ترمكِ بجزرة ؟

— آه .. لقد فعلت ذلك من اجلي ، أليس كذلك ؟ سأذكر لك ذلك ، أيها المصفور الصغير ، سأرميك تحت الموقد مع الفئران حتى تستعيد بعض الشعور ! .. لو علم جدك بذلك ، حتى سلخ لك جلدك عن قفاك ا هيا إمضِ إلى الطابق العلوي وذاكر في كتبك ..

ولم تكلمني بقيمة ذلك اليوم مطلقاً ، بيد أنها قبل أن تجثو للصلاة مساء ذلك اليوم ، جلست بالقرب مني على حافة سريري ، وهمست في اذني كلمات لن انسها ابداً :

— أصغ ، ايها الطير الصغير ، واذكر ابداً ما سأقوله لك : لا تتدخل مطلقاً في امور الكبار ، لأنهم جماعة أشرار ، قد اجتازت العقبات والتجارب .. اما

أنت فما زلت صغيراً ضعيفاً ، وينبغي عليك ان تعيش في سنك ، وتتصرف في امورك حسب ما يليه عليك قلبك النقي حتى يجد الرب إنه حان أن يلامس قلبك ، ويقودك الى الطريق التي يجب عليك أن تسلكها .. هل فهمت ؟ إن الله يحاكم ويفرض العقاب ، وذلك ليس من شأننا ..

وركنت الى الصمت فترة ، ثم ضيقت عينها اليمنى ، و اردفت :  
- وأؤكد لك أن الله نفسه يصعب عليه ، في بعض الاحيان ، تمييز البري .  
من المذنب .

فسألتها مندهشاً :  
- لماذا ، ألا يعلم الله كل شيء ؟  
فأجابت مكتئبة :

- لو كان يعلم كل شيء ، فلا بد للناس من ان يمتنعوا عن إتيان إمرور عديدة ،  
إنه كائن هناك في السماء ، يراقب اعمالنا نحن الخطاة ، وغالباً ما يذرف بعض الدموع ، وهو يتنهد ويقول : آه يا اولادي ، يا أولادي المساكين الاحباء ا  
كم يتألم قلبي من اجلكم !  
وشرعت في البكاء بدورها ، ثم سارت ، من غير ان تحفف دموعها ، حيث بدأت بالصلاة ..  
ومنذ ذلك الوقت ، أصبح الهما قريباً من قلبي وغالباً أكثر من ذي قبل ،  
واقرب الى إدراكي وفهمي كذلك ..

\* \* \*

كان جدي يلقنني في الدرس أن الله يعلم كل شيء ، ويرى كل شيء ، ويوجد في كل مكان وأنه على استعداد لتخفيف مشاكل الناس . بيد انه كان يصلي بأسلوب يختلف كثيراً عن أسلوب جدتي . فكان قبل تلاوة الصلاة في الصباح ، يغتسل بعناية فائقة ويرتدي ثيابه . ويسوي شعر رأسه ولحيته ، ثم يصلح وضع

قميصه على المرأة قبل أن يذهب للصلاة ويعقد ربطة عنقه السوداء . كان يقف دائماً في نفس المكان حتى تركت قدماه أثراً في الأرض ، ويسمر ذراعيه إلى جانبيه كالجندي ، ويبقى فترة من الوقت ساجداً في بحر من الصمت العميق . ثم يتمتم بتأثر :

— باسم الأب والابن والروح القدس !

ومن ثم يلقي برأسه إلى الوراء ، ويعقد ما بين حواجبه ، ويبسداً بتلاوة صلاته بلهجة رزينة وكأنه يعيد أمثولة ينبغي ان يحفظها عن ظهر قلب ، وكان يشدد على الكلمات .

— وسيأتي يوم الحساب ، على حين غرة . وعند ذلك تتكشف أعمال البشر ...

ومن ثم يبدأ بضرب صدره بلطف ، ثم يلتبس العفو قائلاً :

— امام وجهك وحدك اخطأت ... فاصرف وجهك عن خطاياي ... كنت احفظ صلاة الفجر التي يتلوها ، وكذلك صلاة الغروب ، عن ظهر قلب ، لذلك كنت أصغي اليه بانتباه فائق آملاً أن يخطيء ولو مرة ، أو ينقص ولو كلمة واحدة . وقد كانت تلك الفرص نادرة جداً ، ولكنها تثير في شعوراً خبيثاً بالنصر .

وعندما ينتهي جدي من صلاته ، كان يلتفت إلينا ويلقي السلام :

— سعدتما صباحاً !

فنحنني ، ثم نأخذ أماكننا إلى المائدة ...

قلت ذات مرة ، وانا التفت ناحيته :

— لقد اسقطت اليوم كلمة « يكفيني » من صلاتك .

فاستوضح مرثاباً :

– حقاً؟ هل انت واثق من انك لا تكذب؟  
– نعم! كان ينبغي أن تقول: « واجعل ايماني يكفيني لأستغني به عن كل شيء... » فاسقطت كلمة يكفيني .  
كنت ادفع غالباً ثمن ملاحظاتي هذه . إلا انني كنت أحس بالنصر والغبطة طالما أجد جدي متضايقاً مرتبكاً .  
وذات مرة ، قالت جدي مازحة :  
– لا شك ان الاصغاء الى صلاتك امرٌ يبعث السأم بالنسبة الى الله ، يا أبتاه!  
فأنت دائماً تردد نفس العبارات .  
فيتوعد متشوقاً بكلامه :  
– م... ل... ذا؟ بماذا تحرفين؟  
– اقول انني لم استمع اليك مرة واحدة تخاطب الله بعبارة واحدة تابعة من صميم فؤادك .  
فاحمر وجهه ، وأخذ يصطك فوق مقعده ويتراقص ، ثم قفز على قدميه والقى صحناً بوجهها ، واخذ يصرخ ويعر كمنشار يقطع الزجاج :  
– اخرجي من هنا ، ايتها العجوز الماكرة !  
كان جدي ، عندما يكلمني عن قوة الله الجبارة ، يشدد في الدرجة الاولى على قسوة الله وغضبه . كان الله ، بالنسبة اليه حساماً مشهوراً دائماً ، مسلطاً فوق رؤوس الأشرار...  
كنت اشك في احاديث جدي بالنسبة الى قسوة الله ، واعتقدت انه يحدثني بها ليس ليبعث في مخافة الله ، بل مخافته هو...  
وذات يوم سأله بصراحة :  
– اتحدثني بهذه الاشياء لتجعلني اطيعك وحدك؟  
– بالطبع ، ان شيئاً عظيماً سيحدث إن لم تطعني !

- لكن جدتي ...

فصرخ بجدة :

- لا تأل بالأ لتلك البلهاء . فانها طوال حياتها ، كانت جاهلة ، غبية ،  
مجنونة ، وسأمنعها من ان تحدثك بهذه الأمور . اما الآن ، اجب على هذا السؤال  
كم طبقة يوجد بين الملائكة ؟

فأجبت ، ثم سألته :

- ماذا تعني هذه العبارة : « فرد من الطبقة الراقية » ؟

فتنفس الصعداء ، وعض على شفته ، وزفر !

- تود أن تعلم كل شيء !

وبعد فترة قصيرة ، شرح لي ذلك ، بلهجة مترددة :

- ذلك ليس له صلة بالله ، بل هو من امور البشر ، أفراد من الطبقة الراقية ،  
انهم كموظفي الحكومة . فالموظف هو احد الذين يعيشون من القوانين ، يمشونها  
ثم يتلعونها .

- أية قوانين ؟ وما هو القانون ؟

فرد المجوز ، وقد شمت عيناه النديتان باللذة :

- القانون ؟ على حد قولهم ، الشيء الذي يتخذه الناس عرفناً . فالناس  
يعيشون في مجتمع واحد ، ويتفقون فيما بينهم على عقد اجتماعي ينظم امورهم ،  
ويتخذونه عرفاً أو قانوناً كما يسمونه . .

- والموظفون ؟

- انهم يشبهون الاولاد الأشرار الذين يخونون القانون ، مع انه اوكلت اليهم

مهمة حراسته وتطبيقه .

- لماذا ؟

فأجاب ، وهو يهدر :



جوركي مع السيدة كاترين بشكوف وولديها مكسيم  
وكاتوشكا ، سنة ١٩٠٣



— ذلك ما لا لم تستطع إدراكه الآن؟ انك أصغر من ان تعلم هذه الأمور كلها ..

ثم يرجع إلى متابعة الدرس :

— ان الله يراقب أعمال جميع الناس . انهم يريدون شيئاً ، وهو يريد شيئاً آخر . بيد ان إرادة الإنسان ضعيفة ، ويكفي ان ينفخ الله عليها حتى يذهب كل شيء مع الرياح فكأنه هباءً منثوراً .

بقيت مدة طويلة احتفظ بتقويم جدي الكنسي ، وقد دونت على حواشيه ملاحظات مختلفة بخط يده . ففي الصفحة المقابلة لعيد يواكيم وحنّة مثلاً دون بالجر الأحمر : « تخلصنا من بلاء عظيم بفضلها » ... وانا ادرك حقيقة ذلك « البلاء » ... فقد كان جدي يتعامل بالربا سرّاً لكي يساعد ولديه اللذين اخذت اعمالهما تتدهور يوماً بعد يوم ، وكان يتلقى لقاء ذلك بعض الاشياء الغالية الثمن رهناً وضمانة ... فوشى به احدهم لدى الشرطة التي داهمت الدار ذات مساء ، واخذت بتفتيشها .. وكانت الضجة كبيرة ، بيد أن كل شيء انتهى على صورة حسنة ، وقبض جدي يصلي حتى بزوغ الفجر . وقبل تناول طعام الافطار في الصباح ، دون هذه الكلمات في هذا التقويم .

\* \* \*

كنت قبل العشاء ، اطالع معه ، فصولاً من المزامير ، أو مقاطع من كتاب الصلوات ، أو من مجلد ضخيم من تأليف يفريم سيرين . فاذا ما انتهينا من تناول طعام العشاء ، يعود الى صلاته ثانية ، فتنبعث في سكون الليل تراقيله المتواترة النغم زمناً طويلاً :

— الله وحده وهب ، وهو وحده أخذ ... يا أيها الاله الممجّد الحي ابدأ ..  
لا تتركنا ندخل في التجربة .. نجنا من الأشرار ..

وغالباً ، كانت جدتي ، تقاطعه قائلة :

- آه ! كم انا مرهقة ! يظهر انني سأوي الى الفراش من غير ان أتلو صلاتي  
هذه الليلة .

كنت اذهب بصحبة جدي الى الكنيسة بصورة دائمة ، نهار السبت لصلاة  
المغرب ، ونهار الأحد لخدمة قداس الصباح .. فأستطيع حتى في الكنيسة من  
تمييز الناس الى قسمين مختلفين في صلاتها ، فالكاهن والشماس يصليان لإله جدي  
أما بقية المزلتون فيرفعون اصواتهم في المديح لإله جدتي .

كان التفكير في الله ، في تلك الايام ، بشكل غذاء نفسي الاساسي ، فهو  
الجمال الوحيد الذي وجدته في هذه الحياة ، بينا الانطباعات الاخرى توخزني بما  
فيها من وحشية ورذيلة . فالله ، واقصد إله جدتي ، ابني وأحسن من أي شيء  
آخر يحيط بي في هذه الحياة .

ومن المدهش حقاً ، وهذا ما لم استطع إدراكه ، ان يعنى جدي عن هذا  
الإله الطيب القلب ...

كنت قد منعت من النزول الى الشارع لكثرة ما كان يستهويني ، وكنت  
ميلاً إلى القتال ، والعصيان ، فكنت فيه محوراً للخصومات ، لذلك لم تكن  
لي صداقات بل ان الجميع كانوا يناصبونني العداة . وعندما ادركوا ان اسم  
كاشرين يقبطني ، كانوا يتلذذون بإغاظتي فينادونني به عندما يلحونني من  
قريب او بعيد :

- هو ذا حفيد كاشرين ، ذلك العجوز المقتر ، انه قادم الينا !

- ارموه ارضا !

وتتشب معركة حامية في تلك اللحظة ...

كنت قوي البنية بالنسبة الى عمري ، ومقاتلاً شجاعاً .. حتى ان أخصامي  
كانوا يعترفون بذلك ، فلا يداهوني إلا مجتمعين ، لذلك كانوا يتغلبون عليّ  
دائماً ، وأتلقى من ضرباتهم الشيء الكثير ، واعدود إلى المنزل والدم ينزف من

انفي ، وقد جرحت شفقي" ، ومرقت ثيابي .

وتلتفاني جدتي في المنزل ، مضطربة ، ينبع منها الختان :  
- ماذا ؟ أقشاجرت ثانية ، ايها الجرذ الصغير ؟ سأكيل لك ضرباً لمن  
تساه ابدأ .

ثم تغسل لي وجهي ، واضعة بعض القطع النحاسية من العملة على جروحي ،  
أو تستعمل بعض الأعشاب ، أو الأملاح الخاصة ، وتبقى تدمدم طوال  
الوقت :

- ما الذي يدفعك الى مشاجرة الاولاد ؟ انك طفل هادىء في البيت ،  
وما ان يستقبلك الشارع حتى تنقلب عفريتاً . ألا تخجل ؟ سأعلم جدك بذلك  
فيمنعك من الخروج إلى الشارع مطلقاً .

وكان جسدي يلوح آثار الجروح والمشاجرة فلا يشور ، بل يقول بكل  
بساطة :

- هل ارتديت أو ممتك ثانية ؟ يا للمقاتل الشجاع ! ولكن ، إياك ان تتيح  
لي مشاهدتك في الشارع مرة ثانية ، هل تسمع ؟

لم يكن عندي رغبة في الانطلاق إلى الشارع عندما يهيمن عليه الهدوء  
والسكون ، بيد انه ما ان تصلني اصوات الأطفال وصياحهم حتى أنسى تهديد  
جدي ووعيده ، وانطلق من المنزل بأي وسيلة كانت .

لم أكن أهتم بآثار الجروح مطلقاً ، بيد انني كنت اشمئز من الألعاب  
الوحشية المسيطرة على الاطفال ، ووحشية كانت تبعث في الثورة والنقمة وتشدني  
الى ما يشبه الجنون . كانت تثور نغمتي عندما اشاهدهم يدفعون الكلاب والديوك  
إلى المشاجرة ، أو يعذبون الهررة ، أو يطاردون المتسولين في الطرقات ، وخاصة  
ذلك التقى المسكين ايجوشا ، الملقب بـ « حامل الموت في جيبه » .

كان رجلاً فارغ القامة ، نحيل العود ، غائر الوجه وقد تدلت لحيتته

وتمر كزت في أسفله . محدودب الظهر ، وقد ركزت عيناه في الطريق بعناد كبير . وكان يرتدي دائماً . سترة من جلد الماعز قد تدلت بشكل يثير الضحك كنت أتأمل عينيه الحزيبتين ، فأتصور ان مشاكل عديده تشغل باله ولا يجوز بالتالي ازعاجه وعرقلة المهات الملقات على عاتقه .

كان الاولاد يعدون ورائه يرشقون ظهره المحدودب بالحجارة . بينما يبقى هو مدة طويلة من الوقت لا يميرهم أدنى انتباه ، وكأنه لا يشعر بما يرمونه به من ضربات . حتى إذا نفذ صبره اخيراً يقف فجأة ، ويلتفت بصعوبة ، ثم يتفحص قبعته الشعثاء ، بجر كات مضطربة . كان يعدو خلفهم وهو يعرج ، فيلف معطفه الطويل قدميه ويطرحة أرضاً ، وعندئذ يطره الاطفال بوابل من الحجارة ..

بيد ان أشد المشاهد في الشارع وخزاً وإيلاماً ، بالنسبة إليّ ، كانت مشاهدة رئيس عمالنا السابق جريجوري ايفانوفيتش الذي كف بصره تماماً ، وأمسى يمضي أيامه متجولاً في طرقات البلدة يستجدي الناس . كان يهي الطلعة ، نحيل العود ، تقوده امرأة صغيرة الجسم ، هرمة ، قد شاب منها الشعر ، تستوقفه تحت كل نافذة ، ثم تنادي بصوت رفيع ، وقد وجعت انظارها :

— ساعدوا المتسول الضرير ، حباً بالمسيح !

أما جريجوري فيلوذ بالضمنت ، فيما تلتفت نظاراته السوداء وان الى جدران المنازل أو النوافذ بثبات ، وتسرح يده الملوثة ببقايا الصباغ تدغدغ لحيته الكثة . بينما تبقى شفتاه مطبقتين باحكام .

كنت التقيه مراراً ، بيد انني لم اسمع ابدأ كلمة واحدة تنبعث من بين تلك الشفتين المطبقتين باحكام دائماً ، فاتألم لذلك الصمت الرهيب الطويل . وكنت عندما ألح له لا أذهب اليه ، بل انطلق أعدو حتى ابلغ المنزل وأعلم جدتي :

— جريجوري في طريقه الينا .

فتقول ، وقد انتابها اضطراب حزين :

- آه ، صحيح ، انطلق وناوله هذه ا

فارفض بشدة ، وعند ذلك تسير جدتي الى البوابة بنفسها ، وتقف هناك تكلمه مدة طويلة . كان يضحك ، وهو يلامس لحيته ، لكن من غير ان يتفوه بكلمة واحدة . وفي غالب الأحيان كانت جدتي تدعوه الى المطبخ ، فتناوله الطعام وتقدم له الشاي . وذات مرة سألها عني ، فنادتني ، بيسد انني لذت بالهرب وتواريت بين أكوام الخشب . لم اكن أقدر على لقائه ، إذ كنت أحس بالهزل تجاهه . وادرك ان جدتي تحس نفس الشيء كذلك . وقد تكلمنا عنه ؛ انا وجدتي ، ذات مرة . بعد ان اصطحبته حتى البوابة ورجعت الى الساحة ببطء ، حانية الرأس تنهمر الدموع من مقلتيها ... فسرت نحوها واخذت بيدها ، فسألتنني بهدوء :

- لماذا تهرب منه دائماً ؟ انه يحبك كثيراً ، وهو رجل طيب ..

- لماذا لا يقوته جدي ؟

فانثنت عن المسير ، وشدتني اليها وهمست بلبحة تنبؤية :

- اذكر هذه العبارة : سيعاقبنا الله عقاباً صارماً على سلوكنا مع هذا الرجل !  
عقاباً قاسياً جداً !

لم تكن مخطئة فيما تنبأت به ، فلم يمض اكثر من عشرة أعوام على ذلك ، حتى كانت جدتي ترقد في مثواها الأخير ، وأصبح جدي شقياً معتموها ، يستجدي في شوارع المدينة ، من تحت النوافذ قوتاً يسد به رمقه :

- ايتهنا العائلة الطيبة ، جودي علي\* ببعض اللحم - قطعة صغيرة فقط .

تفو ! تبأ لهم من قوم !

كانت عباراته القاسية : « تفو ! تبأ لهم من قوم ا » الشيء الوحيد الذي تبقى له من الماضي ...

كان في بيتنا أشياء عديدة تثير الاهتمام ، وأشياء أخرى يفتح لها الفؤاد .  
بيد ان إحساساً من الكتابة كان يطغى عليّ في بعض الأحيان كعبء ثقيل يرهق  
عائقي ، فيخيل اليّ وكأنني أغرق في قاع سحيق شديد الظلمة ، وقد فقدت  
شعوري ، وفقدت السمع والبصر ، أغرق ، شبه واعٍ ، في الهاوية التي لا تعرف  
قراراً .

★ ★

## ٨

وعلى حين غرة ، باع جدي المنزل ، إلى صاحب الحان ، واشترى بيتاً آخر في شارع كاناتنايا . كان الهدوء والسكون يسيطران على هذا الشارع الذي غطي بالعشب ، وينتهي الى حقول فسيحة ، وقد ركنت على جانبيه منازل صغيرة ذات ألوان زاهية .

كان منزلنا الجديد يضيفي بهجة وسرورا ، وقد دهنت واجهته بلون احمر داكن . أما ساحته والحديقة فقد ملأت بعدد كبير من الفسحات الهادئة ، وقد ارتحمت لها ، لأنها قد ازدانت بشجيرات قتية ، كثيفة ، وجميلة قد تعانقت . وتركن حجرة الغسيل في إحدى زواياها ...

كانت الدار تصخب باناس كثر لم يقع عليهم بصري من ذي قبل ابداً ، فالجناح الامامي يسكنه ضابط تترى المولد مع زوجته الصغيرة . وكانت هذه المرأة لا تكف ، منذ بزوغ الفجر حتى المساء ، عن الضحك ، والصياح ، والعزف على قيثارة قد وشحت بالوان عديدة . وتشرع في الغناء ، بصوت حاد ...

وكان يسكن ، في جناح صغير قد اشيد فوق المخزن والاسطبل ، رجلان يمتهانان سوق العربات ، كان أحدهم اشيباً ، ينادونه بالعم بيوتر ، أما الثاني ، وكان ابن اخيه ويدعى سنيوبيا ، أطرش أبكم ، هادىء الطبع ، وكان يشاركها في المسكن رجل تترى شاحب الوجه ، أنيق الملابس ، يدعى فالي .

كان هؤلاء الناس غرباء بالنسبة الي، وهذا ما اتاح لي فرصة جديدة لمغامرات عديدة . أما الشخص الذي كان له عندي حظوة ، هو ساكن الحجره التي تجاور المطبخ ، حجرة واسعة طويلة لها نافذتين تطل إحداهما على الحديقة والثانية على الساحة .

كان ذلك المستأجر منطويًا على نفسه ، هادئًا ، منحني الجسم ، طويل القامة ، تتقدم وجهه نظارتان كبيرتان . وكان كلما دعواته الى العشاء أو الشاي يجب قائلاً :

— هذا بديع !

ومنذ ذلك الوقت اخذت جدتي تطلق عليه في غيابه « هذا بديع » و احياناً في حضوره فتقول :

— انطلق يا الكسي ، واعلم « هذا بديع » ان يأتي لتناول الشاي!

وكانت تقول ايضاً :

— تناول شيئاً آخر يا « هذا بديع » فانك لم تاكل كفايتك .

كانت حجرتة تنص بالكتب الفخمة والصاديق ، وقد توزعت في جميع أرجاء غرفته زجاجات من السوائل ، مختلفة الألوان ، وقطعاً صغيرة من الرصاص والحديد ، ومساطر من النحاس لا حصر لها . كان دائماً يلبس معطفاً بني اللون من الجلد ، وقفازين رماديين ، قد لطحها بالدهان ويمضي النهار بطوله ، منسند الصباح حتى المساء يصهر المعادن ، ويلحم البعض ويصرخ من حين لآخر إذ يحرق أصابعه ، ومن ثم يأخذ في مشاهدة بعض الأشكال الهندسية الكائنة على الحائط ، فيمسح نظارته ويأخذ يفحصها عن كثب بحيث تلامس أنفه . . . وعلى حين غرة كان يقف في وسط الغرفة أو يجانب النافذة ، ويبقى فترة طويلة بهذا الشكل . وقد اغلق عينيه ، وحنى رأسه ، هادئاً ، لا يأتي حركة . . . وذات مرة ، تسلقت السطح وشرعت أراقبه من خلال النافذة المفتوحة . . .



كنت قادراً على مشاهدة اللهب الأزرق يتصاعد من فتيل مصباح الكحول الكائن فوق الطاولة ، وقد انكبت الرجل بقامته فوقه . أو لاحظته يدون أشياء عدة في دفتر ممزق ، وقد التمعت نظاراته في ضوء اللهب الأزرق ببرود وكأنها قطعتان من الجليد .

كنت أبقى ساعات عديدة مسمراً إلى السطح مندهشاً لتحمله هذا العناء . . . فأحياناً يقف الى النافذة ، ويداه وراء ظهره ، يتطلع توأ إلى السطح من غير ان يشاهدني ، ثم يقفز فجأة باتجاه طاولته ، وينحني فوقها منقباً بين الأشياء المتراكمة فوقها .

كان سكان المنزل يكرهون « هذا بديع » ويتكلمون عنه بسخرية زائدة ، فامرأة الضابط اللعوب تدعوه « صاحب الأنف الطباشوري » . والعم بيوتر يطلق عليه اسم « الكيمائي الساحر » . أما جدي فكان يلقبه : « الصيدلي بائع السحر الأسود » .

سألت جدتي :

- ماذا يفعل « هذا بديع » ؟

فاجابت بملاحظة :

- هذا ليس من شأنك . يجب ان تعلم متى ينبغي ان تحتفظ بقمك مقللاً .

و ذات يوم ، استجمعت كل ما أملك من شجاعة وانطلقت الى نافذته . . . سألته . محارلاً إخفاء انفعالي بصعوبة :

- ماذا تفعل ؟

فوجيء . وهو يشخص إلي من فوق نظارتيه . وأعطاني يده المحترقة المليئة جروحاً وندوباً . ثم قال :

- تعال . اصعد الى هنا !

والحقيقة انه بساحه لي الدخول من النافذة بدلاً من الباب قد زاد من قدره

عندي ، واحترامي له . تهاوى على صندوق في إحدى الزايات ، ودعاني للجلوس  
قبالته ، واخيراً سألتني :

- من أين أتيت ؟

لقد أثار سؤاله دهشتي ، فأنا أجلس بجانبه الى الطاولة في المطبخ اربع مرات  
كل يوم ، فأجبتني :

- إني حفيد كاشرين .

- آه ، أجل !

ثم لاذ بصمت عميق ، وهو يتأمل إحدى أصابعه ...

وجدت انه من الواجب ان اوضح له الأمر ، فقلت :

- بيد انني لست من عائلة كاشرين ، انني من آل بشكوف . الكسي بشكوف .

فردد ، بلمحة شديدة النبرة :

- بشكوف ! الكسي بشكوف ؟ هذا بديع !

ونفض ، دافعاً بي عنه ، مسرعاً الى الطاولة قائلاً بلمحة أمره :

- حسناً ! اجلس ، وإياك ان تأتي ضجة .

قبعت هناك فترة طويلة جداً ، اراقبه وقد وضع قطعة من النحاس بسين

فكي مازمة صغيرة ، ثم بدأ يبردها ، وعندما انتهى من ذلك جمع الفتات الذهبي

على لوحة ثم صب في بوتقة كثيفة . ثم أضاف اليها بعضاً مسن مسحوق أبيض

كالمح تناوله من إحدى الزجاجات . وفي النهاية أتى بزجاجة سوداء اللون وسكب

منها على المزيج . فاخذت هذه الأشياء تغلي . وتنفث الدخان . وتتصاعد منها

رائحة حادة اجبرتني على السعال .

استوضع الساحر مبتهجاً :

- هل هي رائحة رديئة ؟

- أجل

- آه ! هذا بديع يا اخي . هذا بديع جداً !

حاولت أن أجد مبرراً للغبطة . فلم أستطع ...

قلت بحدة :

- ما دامت رائحة رديئة . من المستحيل ان تكون بديعة !

فصرخ . فاركأ عينيه :

- أحقاً ما تقول ؟ حسناً . ليس ما تقوله يا أخي صحيحاً ! أنجب اللعاب

بالكعاب .

- أجل !

- أتريد أن أصنع لك كعبا من الرصاص ؟ ولن يستطيع أن يغلبك به

أحد !

- طبعاً أريد ذلك :

- ناولني كعبك إذن !

وحمل البوتقة في يده . واتجه نحوي . ثم كلمني متطلعاً إليّ بعين واحدة :

- هل تمدني اذا صهرت كعبا لك . ألا تعود الى هنا مرة ثانية ؟

فصدمت لذلك ... وقلت :

- لست بحاجة إلى ذلك كيلا أرجع إلى هنا !

ثم خرجت الى الحديقة كئيباً غاضباً ...

كان جدي منشغلاً في تسوية الارض حول جذوع أشجار التفاح . كان

الوقت خريفاً ومنذ وقت بعيد وأوراق الأشجار تتساقط .

اعطاني جدي القص . وقال :

- خذ . شذب اشجار توت العليق .

فسألته :

ما الذي يفعله « هذا بديع » ؟

فأجاب مغتظاً :

– انه يخلط ، فهو يتاف الحجره ، ويحرق البلاط ، ويوسخ الجدران ، حتى انه قد أتلّف جزءاً كبيراً من الورق الملتصق عليها ، سأعلمه بضرورة إخلاء الحجره نهائياً في أقرب فرصة ...

– إنك تفعل حسناً !

فوافقت معه ، وانا أشذب أطراف توت العليق :

بيد انني تسرعت في قولي هذا .

\* \* \*

في الليالي الماطرة ، وعندما يخرج جدي الى بعض اعماله ، كانت جدتي تقيم في المطبخ حفلات رائعة .. فتدعو جميع الجيران ، بما فيهم السائقين والجندي ، وامراته المرحه ، وبتروفنا السمينه . أما « هذا بديع » فكان دائماً يركن في الزاوية بجانب الموقد ، حيث يقبع جامداً لا يأتي حركة ، بينما يأخذ الأبكم الأصم سديوبا بلعب الورق مع فالي التتري ، الذي يكيل له بين الحين والآخر على أنفه المفرطح ويصرخ :

– اذت ، ايها العفريت العجوز !

وكان العم بيوتر يحمل معه دائماً رغيفاً ، وجاط مليء بمربى التوت ، فيأخذ المربى ويصبه بكثرة على الخبز ، ثم يحمل تلك القطعة من الخبز على كفه مقدماً إياها للضيوف ، وهو ينحني الخنساء خفيفة ، قائلاً :

– هل تفضلتم وأخذتم شيئاً من هذا ؟

وكانت بتروفنا الجميلة تحضر معها بعضاً من السوائل الكحولية بينما تحضر الجارة الصغيرة اللعوب بعضاً من قطع سكر النبات ، والجوز ، وعند ذلك تبدأ وليمة حقيقية باشراف جدتي التي تنضح بالفرح والغبطة .

لقد اقامت جدتي احدى هذه الحفلات بعد مدة قصيرة من محاولة « هذا بديع » رشوتي كي ابتعد عن حجرته . كانت الريح تهب صاحبة ، وأمطار الخريف الحزينة تمارك الارض بشدة ، والاشجار تتراقص ضاربة جدران

المنازل بأغصانها ... كان الجو في المطبخ حاراً يبعث الدفء ، وقد تجمع القوم الى بعضهم بعضاً ، وقد علت الغيطة اساريهم ، وتأخذ جدتي في سرد أقاصيصها بشكل يسترعي الانتباه ...

... وما ان تنتهي جدتي من سرد اقااصيصها حتى يقفز «هذا بديع» ويتعالى صراخه ، ويأخذ في الدوران على ارض المطبخ وقد شرع ذراعيه ، وهو يصرخ :

— هذا بديع ! بديع جداً ... انه صحيح جداً ... وروسي بحت ا وادرك الجميع انه يبكي : فقد انهمرت الدموع من مقلتيه وانسابت فوق وجنتيه ، وكان من المدهش والمؤثر معاً ، مشهد هذا الرجل وهو يمدو في المطبخ بشكل يثير الضحك ... كان العم بيوتر يفرق في الضحك ، بينما لاذ الجميع بالصمت وقد اعترتهم الدهشة .

وفجأة ، توقف في وسط المطبخ وشرع يتحدث بنبرة عالية ، مشيراً بذراعه الأيمن ، وقد بقي يتكلم بحماسة وقتاً طويلاً ، ثم عنه بين الحين والآخر تنهدة عميقة ، ثم يضرب الارض بقدميه . وقد لاحظت انه ردد مرات عدة هذه العبارات !

— كلا ! كلا ! تلك جريمة لا تغتفر أن يعيش الانسان بوحي من ضمير غيره ا

وفجأة ، تلاشى صوته ، والقي نظرة عجيلى على المحتفين به ، ثم انجه خارجاً مطأطأ الرأس . فتطلع الجمع بعضهم ببعض بقلق واستياء ، بينما انزوت جدتي بقرب الموقد حيث سمعتها تتنهد بحسرة ..

قالت بتروفنا ، وقد علتها الدهشة ممسكة بيدها شفتها الحمراء :

— كأنه غضب ؟

فأجاب العم بيوتر :

- كلا ! انها طريقته بكل بساطة !  
 ثم اردف العم بيوقر يهدوه :  
 - ان المثقفين والنبله ، مكثدا دائما غريبو الأطوار !  
 وأضاف قالي :  
 - كل هذه التفاهات ، مردها الحياة الانعزالية ، وحياة العزوبة .  
 ففقهه الجميع ...  
 لم يعد الجو في المطبخ يحتمل . وقد طمس الحزن قلبي . فقد ادهشني « هذا  
 بديع » . واشفتت عليه وتأملت له وحتى الآن . لم تزال عيناه الدامعتان ، محفوظتين  
 في ذاكرتي .  
 امضى الليل خارج الدار ، ثم عاد بعد ظهر اليوم التالي . كان يبدو تعباً .  
 مشغول البال ، مكسور الخاطر ..  
 قال لجديتي بلهجة صيدانية بحتة :  
 - لقد ارتكبت حماقة مساء البارحة ، هل انت غاضبة ؟  
 - ولم الغضب ؟  
 - لأنني ورطت نفسي فيما لا يعنيني ، وتفوهت بعدة حماقات .  
 - انك لم تنل من شعور احد .  
 ادركت ان جدتي ترهبه ، فهي لا تتطلع اليه ، ولا تكلمه كما دتسافي  
 السابق .  
 ودنى منها ، وقال بصراحة :  
 - تعلمين انني أقطن بفردي ، وليس لي من أنيس في العالم ... وعندما  
 يبقى الانسان وحيداً هكذا . لاندأ بالصمت . فلا بد ان تأتيه فرصة ينفس بها  
 عما تراكم في أعماق نفسه . فينفجر . انه في مثل تلك الحالة . يكلم الجلود .  
 والاشجار ...  
 وسألته جدتي وهي تذهب بعيداً :  
 - لماذا لا تتزوج ؟  
 فصاح مشيراً بيده !  
 - آه !  
 ثم مضى مكتئب الوجه ...

رافقته جدتي بنظراتها وهو يتوارى ، ثم التفتت إليّ قائلة  
- لا تتبعه البتة . فالله أعلم ما يمكن ان يؤتبه هذا المرء .  
بيد ان شيئاً خفياً كان يشدني اليه باستمرار ...

لقد لاحظت التغيير الذي علا وجهه وهو يقول : إنني أقطن بمفردي ، فكان  
بمبارقة تلك شيء ادر كته جيداً ولا مس مني شغاف القلب ، فذهبت  
لرؤيته .

تأملت في نافذة حجرتي فقد كانت خالية منه ، وقد غصت بأشياء غريبة  
عديمة الفائدة . قد تركت بشكل عديم الترتيب . كصاحبها تماماً . فمضيت الى  
الحديقة حيث رأيتة جالساً على خشبة ترك الحريق فيها أثراً . واضعاً رأسه بين  
يديه محدودب الظهر . يرتكز مرفقاه على ركبتيه ... بيد ان هذه الجلسة لم  
تكن تبعث الراحة فيه . مما جعلني أشعر بمزيد من الحزن والكآبة . شدني نحو  
ذلك الرجل بقوة اكبر ...

بقي مدة طويلة يتطلع إليّ بعينين غائرتين . لكن من غير ان يراني فيما يبدو  
ثم سأل فجأة في شبه ملل :  
- هل أتيت في طليي ؟  
- لا !

- ماذا تريد اذن ؟

- لا شيء على وجه التحديد !

ثم نزع نظارتيه ومسحها بمنديله الملوث ببقع حمراء وسوداء . ثم قال :  
- اقرب واجلس هنا .

وعندما جلست بقربه . ضمنني اليه قائلاً :

- اجلس هنا ! سنجلس من غير ان نتكلم ، ما رأيك ؟ هكذا . . انك

فعلا لفتي عنيدي !

- أجل !

- هذا بديع !

ثم مضى مكثت الوجه ...

رافقته جدتي بنظراتها وهو يتوارى ، ثم التفتت إليّ قائلة :

- لا تتبعه البتة ، فالله عالم ما يمكن أن يؤتبه هذا المرء .

وبقينا هناك ، فترة طويلة ، دون أن ننبس بكلمة واحدة ... كان المساء لطيفاً هادئاً ، من تلك الامسيات الصيفية المملة الكثيبة ، عندما تذوي الزهور والارض ترشح برائحة الخريف الرطبة ، والهواء يمضي مذبذباً ، وتواتب الطيور في الأجواء تاركة افكاراً حائرة . كان كل ما يحيط بنا هادئاً ، حتى ان حفيف اوراق الاشجار ، تهمس بصوت يبعث على الالتفات والتطلع مستفهماً ، ثم يعود كل شيء فيغرق مرة أخرى في سكون عميق ...

كانت تلك الجلسة الحاملة تستدعي الافكار النقية ، بيد انها شفافة كنسيج العنكبوت ، يصعب على الانسان تركيزها في فكرة ما ... في تلك الجلسة تتكون الشخصية وتتقوّل في نموذج أبدي ...

كان جليسي ، بين الحين والآخر ، يتنفس الصعداء ، ويقول :

— هذا بديع ، ليس كذلك؟ بديع ، بيد ان الطقس رطب ، ليس صحيحاً؟  
ألا تشعر بالبرد؟

وعندما القى الظلام وشاحه ، وتوارى كل شيء في الظلمة ، قال :

— حسناً ، اظن ان ذلك يكفي ، لنعد . هيا بنا ...

وفجأة ، عند بلوغنا البوابة ، توقف قليلاً :

— ان جدتك امرأة بديعة ... يا لها من حياة !

ثم اغمض عينيه ، وتابع بهدوء وقد علت ابتسامة بحياه :

— ذلك كان جزاءه ، لأنه بلغ الإدرك من الشر ، وسخر نفسه لضمير

سواه !

ثم تقدمني نحو البوابة ، موجهاً كلامه لي :

— تذكر ذلك ، يا فتى ، اتجيد القراءة والكتابة ؟

— كلا !

— تعلم ذلك ، وعندما تتقن الكتابة دون قصص جدتك ، انها بديعة .



لقد أمسينا صديقين حيمين ... فأخذت في زيارة « هذا بديع » منذ ذلك اليوم ، كلما أجد رغبة لذلك ، فأقبع على صندوق مليء بالأقمشة ، أرنو اليسه مغتبطاً ، وهو يصهر المادان ، فاذا ما بلغ درجة من الاحمرار أخذ في تقويمه في صفائح رقيقة ، على سندان صغير ، مستعملاً مطرقة صغيرة ذات مقبض بديع . وكان يستعمل أيضاً مبردأ ومناشير، ويمزج بعض السوائل في وعاء صيني ، فيعبق جو الغرفة برائحة حادة ، ثم يشرع في تصفح كتاب ضخمة ويدمدم ماصاً شفثيه ثم تند عنه تنهدة :

- آه يا زهرة شارون ...

- ماذا تفعل ؟

- عملاً هاماً . يا اخي .

- وما هو ؟

- سنشاهده ، لأنني لا أستطيع شرحه لك الآن حتى تدركه ...

- سمعت جدي يقول بأنك تزور العملة .

- بجدك ؟ تلك سفسطة ! فالمال ، يا اخي ، لا يستأهل كل ذلك التعب .

- اذن ، فمن اين تدفع ثمن الخبز ؟

- هذا صحيح . إذ لا نستطيع ان نشترى خبزاً من غير مال .

- ارأيت ؟ واللحم ايضاً ...

- آه ! واللحم كذلك !

وندت عنه ضحكة بسيطة ، اثارت الغبطة في نفسي ، ثم دعك اذني

مازحاً ، وأردف :

- انني غير قادر على مناقشتك ، فأنت تورطني دائماً في حديث لا أستطيع

إفهامك إياه . والأجدد ان نتوقف عن الكلام .

كان يتوقف ، هو بين الفينة والفينة ، عن العمل ، ويأتي النافذة يتطلع من

خلاها الى اشجار التفاح العارية ، والمطر ينزل مداراً مغطياً الاعشاب . و  
« هذا بديع » مقترأ في حديثه ، فهو لا يقول إلا العبارات الضرورية ،  
تظهر لي ابدأ ، وكأنها عين الحقيقة . واذا أحب ان يلفت نظري إلى شيء ما  
لكزني برفقه ، مشيراً الى ذلك الشيء بغمزة من عينه ...

لم اكن اشاهد شيئاً يسترعي الانتباه في ساحتنا . بيد ان تلك اللكزات  
وما يصحبها من كلمات متناغمة ، كانت تضي على كل شيء مما أشاهده مع  
خاصاً يرسخ في أعماق مخيلتي . فهذا فالإ الأعرج يشق طريقه وسط الساء  
كجواد عجوز ، وقد ارتفع رأسه شزراً يتطلع الى السماء ، فننعكس عليه أش  
الشمس الخريفية ، وتضيء ازرار معطفه النحاسية ، فيتوقف التتري عن الس  
ويدس تلك الازرار بأصابعه المرجفة ، فيقول صاحبي :

— انه يتأمل ازراره وكأنها أوسمة علقت على صدره !

وسرعان ما ادركت ان تعلقني بـ « هذا بديع » يرسخ في نفسي ويزداد  
قوة . وأمست غير قادر على فراقه ، فقد كان يقاسمني أفراحي وأتراحي  
وعلى الرغم من طبيعته الهادئة وحبه السكون ، فقد كان لا يمنعني من التحدث  
في أية لحظة ، عما يجيش في نفسي من أفكار . على عكس جدي الذي ينهرني  
كلما انفرجت شفتاي بقوله .

— كفى ثثرة ، أيها الطاحونة !

اما جدتي فلها افكارها وأحاسيسها الخاصة ، فهي لا تمير أدنى انتباه  
لأفكار الآخرين .

بيد ان « هنة بديع » كان يصغي إليّ بانتباه زائد . وفي أغلب الأحيان  
كان يقول مبتسماً :

— لكن هنة غير صحيح ، يا اخي ! انك تروي ذلك من مخيلتك ...  
كانت ملاحظاته المقتضية بمنايا ، تقع في محلها .. فأتصور انه يغوص إلى

أعماق نفسي ويرى ما في قلبي وعقلي ، ويدرك الاشياء الكاذبة التي تخنم في رأسي قبل أن تنطقها شفتي ويقطع نقاشاً لا جدوى منه قبل أن يتأصل بكلمات لطيفة :

- أنت تكذب ، يا أخي !

وفي بعض الاحيان كنت أمتحن حدسه عن سابق تعمد ، فاخترت الروايات والاساطير وأقولها على أنها حقيقة واقعية . بيد انه يرهف السمع إليّ فترة ، ثم يهز رأسه قائلاً :

- أنت تكذب ، يا أخي !

- وكيف ادركت ذلك ؟

- آه اني أعلم ذلك جيداً !

غالباً ما كانت جدتي تصحبني معها ، لنحضر الماء من مضخة ساحة سينايا . وذات يوم شاهدنا خمسة من أهل المدينة قد إنسالوا ضرباً بفلاح مسكين ، وقد القوا به أرضاً ، ثم إندفعوا نحوه كعصبة من الكلاب الشرسة . فأخذت جدتي الدلو وامسكته من خشبته كالعصاة . واندفعت نحو البورجوازيين وهي تصرخ بي :

- إمض من هنا !

كنت وجلاً ، فأسرعت وأنا أعدو خلفها .. رامياً الأعداء بالحجارة ، بينما انهالت جدتي عليهم بالهراوة بشجاعة فائقة ، وشاركها المعركة بعض الناس ، فولى البورجوازيون الأدبار ، وعند ذلك استدارت جدتي نحو الفلاح وشرعت في غسل وجهه المتخن بالجراح . وما زالت فرائصي ترتعد خوفاً ، حتى اليوم ، كلما تذكرت مشهد الفلاح وهو يضغط على أنفه الممزق ، والدماء تنهمر بفزارة من أصابعه على وجهه وصدرة .

وعدوت إلى حجرة المستأجر ، عندما بلغنا الدار ، أروي له ما وقع لنا

اليوم، فتوقف عن العمل قبالي، وقد حمل مبردأ طويلاً يرهف السمع إلى حديثي.  
ثم تأملني بقسوة من تحت نظارتيه، وقاطعني على حين غرة قائلاً . مشدداً على  
كلماته بصورة غير معتادة ا  
- بديع ، هذا ما وقع تماماً ا حسناً ا

كنت ما أزال مضطرباً ، متأثراً بما شاهدت ،فاردفت في كلامي من غير ان  
اعيره أدنى أنتباه. بيد انه طوقني بذراعه ، وشرع بذرع الحجره ذهاباً وإياباً،  
وهو يقاطعني ثانية ، ويقول معاتباً وموبخاً :

- كفى ا كفى ا لقد قلت ما يجب أن يقال ا هل سمعت ؟ هذا كفاية ا  
فتوقفت عن متابعة حديثي .. وقد تأملت لأول وهلة ، ولكنني ، عندما  
تأملت جيداً ، ادركت في دهشة فائقة أنه قد اوقفني حيث يجب أن اقف ..  
كنت في الحقيقة قد رويت كل شيء ..  
قال :

- حاول أن لا تتذكر ذلك . وينبغي أن لا تهتم لهذه الاشياء ، فهذا  
أفضل لك .

كان أهل دارنا يكونون ا « هذا بديع ، كراهية تزداد يوماً بعد يوم ، حتى  
أن هرة الشابة التي تجلس في حجر الجميع من غير تفريق ، أخذت تستلثيه ،  
غير مليية نداءه اللطيف ، وقد إغتظت لذلك ، فعاقبتها بشد أذنيها ، وشرعت  
محاولاً إقناعها بالأتخاف من صاحبي . بيد أنه كان يحدها الاعذار ، فيقول لي :

- لا عليك ا إن رائحة ثيابي العابقة بالحوامض ، تثنيها عن ذلك .  
بيد أنني كنت على يقين من أن لكل فرد من سكان الدار ، بما فيهم جدتي ،  
له الاسباب الخاصة التي تدفعه لمناسبة « هذا بديع ، العداء الشديد ، وكنت  
أجد في ذلك خطأ فادحاً يبعث في احزاناً لا تحتمل .  
سألنتني جدتي محتدة :

- لماذا تلف حوله دائماً ؟ إحدرك منه ا فالله وحده عالم بما سيلقنك إياه .  
اما جدي ، قمة الشر ، فكان يجلدني يوحشية عندما يعلم أنني ذهبت إلى ذلك المستأجر ، ومن الطبيعي أنني لم أكن اطلع « هذا بديع » على ما اصابني من جزاء كلما عصيت امر الامتناع عن زيارته ، بيد أنني قلت له بصراحة رأي القوم فيه :

- ان جدتي ترهبك . وهي تدعي أنك تعمل بالسحر الاسود ، وهذا رأي جدي كذلك ، فهو يدعي انك عدو الله ، ومن الخطر على الناس ان يتعاطوا معك .

فيهز رأسه . وتقفز ابتسامة شاحبة على محياه . ينقطر لها قلبي فيرد يهدوء .  
- إنني أرى ذلك ، يا اخي ، هذا شيء مؤسف ! اليس كذلك ؟  
- أجل .

- مؤسف جداً ، يا أخي .

وفي النهاية ، اخلوا البيت منه .

وذات صباح ، وبعد تناول طعام الافطار ، شاهدته متربعا على الارض يشد امتعته وكتبه وحقائبه في صناديقه ، وهو يدمدم بلحن زهرة شارون ..  
وما انت أبصرني حتى قال :  
- حسناً ! الوداع يا صاحبي ، فانا راحل .  
- ولماذا ؟

فتأملني فترة بدقة ، ثم اجاب :

- الاتدري السبب ؟ لانهم بحاجة إلى هذه الحجره من اجل والدتك .

- ومن قال هذا ؟

- جدك .

- لقد كذب ا

فشدني « هذا رائع » اليه بجنان ثم همس بصوت هادىء . بينما كنت أقتعد الارض بالقرب منه :  
- لا تحزن ! اعتقدت انك على علم بتلك المكائد، وانك تحفيها عني ، لذلك كلمتك عنها ، يا اخي ، ولست اود ذلك على أي حال .

كنت اشعر بضيق يخنقني ، واحس بالنقمة ، من غير ان ادري السبب ..  
ابلسم وهو يقول بصوت هامس :  
- صه ، اسمع .. هل تذكر منعي إياك من زيارتي ؟  
- أجل  
- لقد جرحت شعورك حينذاك ، اليس كذلك ؟  
- أجل !

- انني لم اقصد ذلك ، بيد انني علمت انهم سيماقبونك إذا ما غدونا صديقين ، فأجبت أن أجنبك عناء ذلك ..  
وشرع يحدثنني كأننا أصدقاء سن واحدة . كانت عباراته تغمرني بالغبطة والسعادة . فيخيل اليّ أنني أعرفه ، منذ زمن طويل ، كل ما يريد أن يطلعني عليه . فقلت :  
- لقد ادركت ذلك من زمن طويل .

- حسناً ! اعتقد ان ذلك افضل ، يا أخخي !  
وشعرت بالالم يعترض قلبي . فسألته :  
- لماذا لا يجيبك أحد ؟  
فغمرني بلطف ، وهو ينظر بعيداً :  
- لأنني غريب ، هل تدرك هذا ؟ هذا كل شيء ! إنني غريب !  
فتشبثت بكتفه من غير أن ادري ما اقول أو افعل .  
فأردف :

- لا محزن :

ثم قال هامساً :

- وكذلك لا تبك .

بيد أن الدموع إنسابت على خديه من تحت نظارتيه .. وقبعنا هكذا مدة طويلة من غير ان نتكلم ، ندمدم بين الحين والآخر بكلمات مقتضبة .

وفي المساء ، وبعد ان ودع الجميع ، وقمانقنا بجماعة ، ذهب في طريقه .. عدوت خارج البوابة ، وأنا أراقب العربة التي استقلها وهو يبتعد ، واخذت أصوات المجلات تتلاشى .. وما ان برحنا حتى أخذت جدي في تنظيف حجرته ، فقصدتها ، وشرعت أعدو امامها من زاوية إلى زاوية قاصداً مضايقتها ...

صرخت وقد اصطدمت بي :

- امض من هنا !

- لماذا طردتموه ؟

- هذا شيء لا يعنيك .

- إنكم بلهاء ، كل هذه العشرة .

فاسرعت تكيل لي بالمسحة المبتلة ، صارخة ؟

- هل جننت ، أم ماذا ؟

فأجبتها مصححاً :

- لقد جن الجميع . ما عداك ...

بيد أن ذلك لم يرضها .

وفي المساء ، وعلى طاولة العشاء تنهد جدي :

... حسناً ! الشكر لله على خروجه . لقد كان يحز في قلبي كالسكين إذا ما  
ما رأيتُهُ ، لذلك تخلصت منه .

فهشمت معلقة لشدة غضبي . كان جزائي عليها عذاباً الياً ...  
وبهذا تكون قد انتهت صداقتي لأول إنسان من تلك الجماعة الكبيرة ، غريباً  
في وطنهم الأم ، رغم كونهم خيرة أبنائه .





في مستطاعي ان اتمثل بخلية نحل يحمل اليها أناس مختلفون غسل آرائهم ومعرفتهم في الحياة ، وكل منهم يساهم في هذا العمل ، حسب امكانياته الشخصية في نمو شخصيتي وتطورها . وفي معظم الأحيان كان العسل مرأ ، بيد انه ، على أي حال ، عسلا .

توطدت او اصر الصداقة ، بعد ذهاب « هذا بديع » بيني وبين العم بيوتر وهو الى حد ما يشبه جدي في نعومته ، واناقتة ، وان كان أصغر حجماً والنحل جسماً ، يبعث في مخيلة من شاهده صورة فتى يلبس ، لمجرد التسلية ، ثياب شيخ هرم . وقد غزت الأخاديد وجهه فحفرته ... وكان شعره المتجمد أشيب اللون ، وقد تدلت لحيته بشكل دوائر ، يندس بين شفتيه غليون ينفث منه الدخان . كنت أتصوره هازئاً بالناس ابدأ ، وهو يحكي قصة حياته :

... كانت تقول لي الكونتيسة التي تملكني في البدء ، وتسمى قائيان ، بأنني سأصبح حداداً ، فما ان شرعت في ذلك العمل حتى قالت : ينبغي ان تعمل مساعداً للبستاني . فلم امانع ، وامسيت بستانياً . ولكن ، كما يقول المثل : « اعط خبزك للخباز ولو أكل نصفه » . لم انجح في عملي الجديد ، نصحتني : جرب عدة الصيد . وما ان بادرت في عملي الجديد ، وابتعت عدة الصيد ، حتى قلت للأسماك وداعاً ... وقبل ان تسنح لها الفرصة بأن تجعل مني شيئاً ، جاءت الحرية وتحرر الناس ، واصبحت حراً لا املك سوى الحصان . ومنذ

ذلك اليوم غدوت اتبع الحصان بدل الكونتيسة .

كان حصانه هرمًا ، سقيمًا ، وقد اعوجت ارجله ، وتدلى رأسه المظمي في حزن شديد من عنق يكاد ان لا يصله بالجسد غير بعض الاوردة الضخمة ، وبشيء من الجلد القاسي المتجمد .

بيد ان بيوتر كان يعامله معاملة حسنة ، فيطلق عليه لقب تانيا ولا يحاول ضربه أبداً .

وذات مرة سأله جدي :

— لماذا تطلق على حصانك اسماً مسيحياً ؟

فأجابه

— لا ، يا فاسيلي فاسيليفيتش ، أبداً ! ليس تانيا اسماً مسيحياً الاسم المسيحي هو تانيا .

كان العم بيوتر ذو ثقافة واسعة . يلم بالكتاب المقدس . فيغوص مع جدي ابداً نقاشاً لا ينتهي ، موضوعه من هو أقدس القديسين ؟ وكان نقاشها يبلغ بعض الأحيان الوطيس ، فيصرخ جدي . وقد التمعت عيناه شرراً :

— امض من هنا . يا الكسي !

كان العم بيوتر نظيفاً الى حد كبير . وحيث مضى في الساحة كان يلتقط . من الساحة ، اشياء كثيرة من عظام . وقضبان . ويدمدم مسمزاً :

— لا جدوى منها غير اعتراض الطريق !

كان كثير الثروة . تنضح بشائره باللطف . وان كانت سحابة آنية تفسى عينيه احياناً . فاذا ما شيهان بعيني جنة هامة . وكثيراً ما كنت أشاهده قد انزوى في زاوية مظلمة ، هادئاً ، كئيباً ، كإبن اخيه . فأمضي اليه واسأله :

— ما بالك ، ايها العم بيوتر ؟

فيجيب بأسى شديد وصوت متهدج :

- إمضِ عني !

كان يسكن احد منازل حيننا سيد قد احدثت جبهته . وقد اعتراه جنون لا يفارقه : فهو كل يوم يقبع إلى النافذة ، ويأخذ في اطلاق النار على الكلاب ، والهرر ، والدجاج ، والطيور ، وحتى على المارة الذين لا يعجبهم منظرهم . وقد فعل ذلك مرة مع « هذا بديع » . بيد ان الرصاص لم يخترق غير معطفه لحسن حظه . وما زلت اذكر كيف توقف صاحبي متفحصاً باهتمام بالغ جسده براحة يده . وعندما حثته جدي على تقديم شكوى ضد المعتدي ، فقال :

- انها لا تستأهل كل ذلك .

كان العم بيوتر ، عندما يرتفع صدى طلقات المجنون في الشارع يهرول إلى قيمته المهترئة ، فيلقبها على رأسه ثم يمضي خارج البوابة ، ثم يتخبط بكبرياء وهدوء امام نافذة ذلك المجنون ، ولا يتوقف عن ذلك ابدأ . ويتجمهر جميع السكان امام البوابة يراقبون ما يحدث في الشارع ، بينما يطلس الضابط وامراته الشقراء من النافذة ولا يبقى غير منزل آل اوفزيانيكوف عديم الحركة والضوضاء كأنه قبر لا يحوي غير الاموات ...

كان العم بيوتر يعود فاشلاً في معظم الأحيان ، فالمجنون لا يحسبه صيداً يستأهل الصيد ابدأ ... وفي أحيان اخرى ، كانت طلقتنا البندقية تتواليان :

- 'بوم ! بوم ! ...

فيدنو العم بيوتر منا ، من غير ان يسرع الخطى ، ويقول متفاخراً :

- لقد اصابني في مؤخرة معطفي

وذات مرة ، أصابته طلقة في عنقه وكتفه ...

فسألته جدي ، وهي تنزع من رقبتة الخردق ، بإبرة الخياطة :

- لماذا تثير ذلك الخلق الممتوه هكذا ، قد يقضي عليك مرة ..

فيجيب العم بيوتر باحتقار :  
- آه ! لا اكولينا ايضا نوفا ! لا يستطع ان يفعل ذلك مطلقاً ، فهو لا يجيد  
الرماية أبداً !

- ولماذا تتيح له الفرصة لارضاء غروره ؟  
- لارضاء غروره ؟ إنني أفعل ذلك لإغاظته .  
وأردف وهو يتفحص جروحه :

- كلا ، إنه ليس برام مطلقاً ! لقد ارتبطت الكورتيسة تاتيان مرة بعلاقات  
زواج انية ، مع ضابط يدعى مامونت إيليتش . وكان ذلك رامياً ماهراً ..  
قادراً على فعل كل شيء ببندقيته .. وكان هناك أبله يدعى إجناسكا ، كان يوقفه  
على بعد اربعين خطوة أو اكثر ، ويربط إلى حزامه الجلدي زجاجة ، بحيث تتدلى  
بين ساقيه المتباعدين ، عندما يطلق مامونت النار كانت الزجاجة تتطاير قطعاً  
صغيرة .. وذات مرة حرك إجناسكا ساقه ، قد تكون عقصته حشرة ، فاذا  
بالرصاصة تصيب منه الركبة ، وتحطمها ، وعندما استدعي الطبيب أمر بقطع  
الساق .. وقد دفنوها ..

- واجناسكا ؟

- آه ، لقد بقي حياً وعاش في احسن حال . فالاغنياء ليسوا بحاجة للارجل  
أو للأيدي لكي يعيشوا في عالمهم الجنوني .. وهم جماعة غير مؤذية كما يقول المثل  
« لا ضرر ، من لا عقل له » .

لكن هذه الحادثة لم تؤثر في جدتي فهي تعلم الكثير أمثالها ، بيد أنها جعلتني  
أرتجف فرحاً ، ثم سألت صاحبي :

- هل يستطيع الواحد من النبلاء أن يقتل أي إنسان ؟  
- لماذا لا ؟ ان باستطاعته أن يقتل حتى نبيلاً في بعض الاحيان ..  
كان يعاملني بلطف زائد ، فيحدثني كما يحدث الكبار . بيد أنه لم يكن

يعجبني في شيء ، وهو انه حين يعزمنا إلى اكل مرياه ، كان يقطع لي قطعة كبيرة من الخبز اكبر من حصة الباقيين ، وإذا نزل المدينة احضر لي معه كعك الزنجبيل . وفي غالب الاحيان كان يسألني باهتمام .

- حسناً ، ماذا تريد أن تفعل عندما تكبر ؟ اتريد أن تصبح جندياً ، أم موظفاً ؟ .

- اريد أن اصبح جندياً !

- ذلك يليق بك ، إذ لم تعد مهنة الجندي شاقة في هذه الايام . وكذلك بالنسبة إلى الكهنة ، فما عليك إلا السير في الشارع ، وتقول : « يا رب إرحم » ، وهذا كل شيء .. فحياة الكاهن أسهل من حياة الجندي . بيد انه من المستحسن ان تمتن صيد الاسماك ..

واخذ يقلد ، مغتبطاً ، كيف تلف السمكة حول الطعم ، ثم كيف تحاول جاهدة التخلص من الصنارة .. وفي بعض الاحيان ، كان يخاطبني قائلاً بأسى : - أنت تغضب عندما يجلدك جدك ، اليس كذلك ، وهذا خطأ لأنه ليس من داع الى الغضب في مثل هذه الحالة . إذ أن جدك يجلدك لمصلحتك .

وأخذ يروي لي باطناب بعض القصص . وموضوعها الآلام البشرية . والذل ، والهوان . في كل قصة يتعذب إنسان ما ، أو فلاح يسخر منه . حتى مللت تلك الاقاصيص ، وعزفت عن سماعها فقلت له :

- حدثني عن شيء آخر .

فامسك بشعر لحيته المجدد ، واخذ في رفعها حتى عينيه . ثم قال . - حسناً ، أيها النهم سأروي لك شيئاً آخر .. لقد كنا نملك ، ذات مرة ،

طباخاً ..

- من الذي كان يملك ؟

- الكونتيسة تاتيان ألكسيفنا .

— لماذا تطلق عليها اسم تاتيان ، كأنها رجل ، بدلاً من تاتيانا ؟ إنها امرأة  
اليس كذلك ؟

— اجل إنها سيدة ! ومع ذلك عندها شارب اسود اللون ، لأنها جرمانية  
الاصل ، قبيلتها شبيهة بالقبائل السود ، حسناً ، لقد كنا نملك طباخاً ، آه ،  
إنها قصة مضحكة ، يا عزيزي ...

تتلخص تلك القصة بان طباخاً قد افسد ذات مرة طبخ طير ، فكان عقابه  
يتناول ذلك الطير دفعة واحدة ، وفي النتيجة سقط مريضاً ، ولازم فراشه  
زمناً طويلاً .  
قلت متأففاً :

- إنها قصة غير مضحكة ابداً .
- إذن ماهو المضحك في رأيك ؟ هيا قل لي ..
- لست ادري .
- إذن عليك بالسكوت .
- مرة ثانية ، اخذ يحبك أقاصيصه المملة ..

\* \* \*

غالباً ما كان ابنا خالي ، في فترة الآحاد والاعياد ، يأتيان إلى بيتنا بقصد  
الزيارة ، احدهما ، ابن ميخائيل ، كثيباً خاملاً كعادته ، والآخر ، ابن ياكوف ،  
فطناً ، يدرك كل الامور ، نظيفاً ، كمهدي به . وذات يوم ، بينما كنا ثلاثتنا  
نطوف السطوح ، رأينا رجلاً قد جلس على كومة من الاخشاب في ساحة آل  
بيتلنغ ، يداعب عدداً من الكلاب الصغيرة .. كان يلبس معطفاً اخضر اللون ،  
يزدان بفراء اسود ثمين ، وقد بقي رأسه الاصلع عارياً من غير غطاء . فراقنا لنا  
هذه الكلاب ، فاقترح ابن خالي ياكوف ان نسرق أحدها ، وقد لاقى هذا الامر  
منا تأييداً كبيراً من غير تردد .. فرسمنا بسرعة غريبة ، خطة مفادها أن يذهب

إبنا خاليّ الى الشارع . وبتنظران عند البوابة الضخمة لآل بيتلينغ ، في الوقت الذي أقوم انا فيه بإخافة الرجل ، حتى إذا لاذا بالهرب ، اغتانا تلك الفرصة لاختطاف جرو صغير .

فسألت :

– وبماذا أخيفه ؟

فاقترح احدهما :

– إبصق على صلعة رأسه .

فراقت لي الفكرة حتى انني لم اجد خطيئة كبيرة في البصق على رأسه ، لأنني أعلم أساليب عديدة أشد ضرراً لإنزال الأذى بالناس . فلم أتردد في تنفيذ هذه المهمة ...

بيد أن هذا التصرف أثار جلبة كبيرة ، وسرعان ما توافد الى الساحة جمع غفير من نساء آل بيتلينغ ورجالهم وقد بدا في مقدمتهم ضابط انيق . وبما أن ابنا خالي كانا يلهوان في الشارع بهدوء وسكينة أثناء اقتراف الجريمة ، كتب لي ان التحمل العقاب لوحدي من دونها ، فقام جدي العزيز مجلدي ، في جمع غفير ، كي يخفف من غضب سكان الدار المجاورة ويعمل على إرضائهم .

كنت ممدداً في المطبخ منهار الأعصاب ، يعترضني الألم ، حين أتى العم بيوتر ، وقد لبس أجمل ثيابه ، وقد بدا في حالة نفسية حسنة ، فاقترب مني وهمس في أذني .

– لقد قمت بعمل يدل على الذكاء والفتنة ، يا عزيزي ، ان ذلك التيس المعجوز يستأهل أكثر مما ناله ! ابصق على عشيرتهم كلها ! كنت أفضل أن ترمي رأسه بقرميدة كبيرة ...

فتذكرت ذلك المعجوز ، المربع الجسم ، ذو الرأس الأصلع بوجهه الذي يشبه وجوه الكلاب الصغيرة ، وقد أخذ يزعق كالجرو ويمسح رأسه الاصفر بيديه الصغيرتين . وشعرت بنجمل عظيم لا يوصف ، وكذلك شعرت بالكرهية لابني

خالي في نفس الوقت ، بيد انني تناسيت كل شيء الآن ، عندما رأيت وجهه  
بيوتر الشبيه بالسلة ، المحفور بأخاديد عميقة ، قبدا منظره مرعباً ، لا يئالاه في  
شناعة ذلك الا وجه جدي اثناء جلدي .

صرخت ، وانا اقف بيوتر بيدي وقدمي .

- اخرج من هنا !

فتعالى ضحكك وغمز بعينه ، ثم نهض وتوارى ...

ومنذ ذلك الحين ، لم يعد بي رغبة في مخاطبته ، وأخذت أتجنبه ، وفي نفس  
الوقت أراقبه ، كانه انتظر منه شيئاً غامضاً لا ادرك كنهه على وجه  
التحديد !

\* \* \*

وبعد تلك المفامرة حدث شيء آخر ... كان منزل آل أوفزيانكوف شغلي  
الشاغل منذ فترة طويلة ، كانت جدرانه القديمة توحى لي بانه ينطوي على شيء  
غريب لا وجود له إلا في حكايات الجنيات .

وكان منزل آل بيتلينغ يمجج بالضوضاء والحركة ، تقطن فيه شلة من الفتيات  
الفاتنات ، كان يتردد اليهن عدد كبير من الطلبة والضباط الذين كنت ترام  
دائماً ، أينما وجدتهم يضحكون ، ويصيحون ، ويلهون ، ويفنون ، ويعزفون  
الألحان الشجية ، وكان المنزل ذو طلة بهية . بيد ان جدي لم يحب ذلك المنزل  
ابداً ، فهو يطلق على سكانه لقب الكفرة والزنادقة ، بينما يصف فتياته بكلمة  
بديئة ، شرحها لي العم بيوتر بطريقة قدرة ..

وعلى العكس كان الصمت والسكون الخيمين على منزل اوفزيانكوف يبعثان  
فيه الاحترام والتبجيل . كان منزلاً شاهقاً ، وان كان مؤلفاً من طابق واحد ،  
يطل على ساحة شاسعة قد غطيت بالاعشاب ، ويقوم في وسطها بئر ماء تحت  
سقف صغير ترفعه دعامتين . كان ذلك المنزل يركن بعيداً وراء الشارع كأنه  
يود الاحتجاب عن الأنظار ...



كنت أشاهد كل يوم تقريباً ، منذ الهجير حتى الغروب ، ثلاثة أولاد يلعبون في الساحة ... كان الجميع يرتدون ملابس رمادية وقبعات متماثلة ، وكانوا جميعاً بوجوههم المستديرة ، يشبهون بعضهم بعضاً بشكل غريب ، فلا تستطيع التفريق بينهم إلا بقاماتهم .

كنت الاحقهم بنظري من خلال شق صغير في السور من غير ان ينتبهوا لوجودي ، الشيء الذي كان يغيظني كثيراً . وكانت ألعابهم الحسوة ، تبعث السرور في نفسي . كان الجميع يضحكون اذا ما تعثر صغيرهم وارتمى ارضاً . بيد ان ضحكهم كان مجرداً من الحب لا تشوبه دناءة ، ثم يساعده الآخراخ على النهوض ، ويمسحان بمنديلها ما بقي من اثر الارض على ركبتيه ويديه ... وكان الأوسط يدمدم بصوت عذب :

— انت ، ابها الغشيم !

ولم اشاهدهم مطلقاً يتشاجرون أو يحاولون خداع بعضهم بعضاً .. فقد كان الثلاثة نشيطون أشداء ، ينضحون بالحماسة .

ذات يوم تسلقت الشجرة ، وأخذت اصفّر لهم كي الفت انتباههم إلي . فانتنوا عن اللعب ، ورنوا بإبصارهم نحوي ، وأخذوا يتهايمسون بصوت خفيض .. وتوقعت ان يرشقوني بالحجارة فأسرعت بالهبوط لأعود بعد لحظات وقد امتلئت جيوبي بالحصى . بيد انني وجدتهم يلعبون في زاوية بعيدة ، وقد نسوا على ما يظهر كل شيء عني . فأسفت لذلك ، ولم أرغب في أن أكون البادىء بالمشاجرة وسرعان ما نادى أحدهم من النافذة :

— عودوا الى البيت ، ابها الصغار ! بسرعة ...

فاستداروا طائعين ، ومشوا ببطء نحو المنزل ...

وكثيراً ما تسلقت ، فيما بعد ، تلك الشجرة المتعالية فوق السور . متمنياً ان يدعوني لمشاركتهم اللعب ، لكنهم لم يفعلوا ... بيد انني كنت أشترك ، في مخيلتي ، معهم في تلك الألعاب . ويبلغ في الحماس ان اهتف أو اضحك عاليين

الفينة والفينة . وعندئذ كانوا يرمقوني بنظرة ، ثم يتهايمسون فيما بينهم ، بينما أكون قد هبطت عن تلك الشجرة حائراً مرتبكاً .

وذات يوم ، اخذوا يلعبون « التميضة » وكان دور الأوسط ان يقوم بالتفتيش عن الآخرين ، فوقف في زاوية قرب المستودع ، وقد وضع يديه على عينيه ، من غير ان يسترق النظر ، بينما راح الآخرون يفتشان عن مكان يختبئان فيه . فأسرع الكبير ، واستتر في العربة الكائنة في الساحة وقد غطاه سطح المستودع ، بيد ان الصغير بقي يلف ويدور حول البئر ، مفتشاً عن مكان يختبئ فيه .

صرخ الأوسط :

- واحد .. إثنان ...

فقفز الصغير ، في شبه هوس ، على حافة البئر ، وتعلق بالحبل ثم قفز الى السطل الفارغ الذي توارى توأ . وقد اصطدم بجدران البئر . فراعني المشهد حين شاهدت الحبل يهوي بسرعة . فقفزت داخل الساحة . وانا أصرخ :

- لقد سقط في البئر !

كان الأوسط قد وصل الى البئر ، في نفس اللحظة التي بلغته فيها ، فتمسك بالحبل الذي شده عالياً ثم القاه على الارض وقد احرق يديه . وتوصلت الى الامساك بالحبل ، وفي ذلك الوقت ، وصل الكبير وهو يعدو ، وساعدني في رفع الدلو ... قال .

- على مهل ، أرجوك !

اخرجنا الصغير الذي بدا مرتعباً ، والدم ينزف من اصابع يده اليمنى ، وقد جرح خده ، وابتل حتى خصره ، وبدا شاحب اللون . ومع ذلك ابتسم قائلاً وهو يرتجف

- بالله ... كيف سقطت !

وارتبك الأخ الأوسط :

- انت . أيها المجنون !

وأخذه في حضنه ، وشرع يمسح الدم عن وجهه ، بينما اعتلت وجه الأكبر تقطبية ، وصاح :

- تعال ، فنحن غير قادرين على إخفاء ذلك ابداً . يجدر بنا ان نسرع الآن .

فسألتهم :

- هل ستجدون ؟

فهز رأسه ، ثم مد يده لي ، قائلاً :

- انت تعدو بسرعة فائقة .

فتأملت لاثنايه ، وقبل ان أمد يدي لأصافحه ، شرع يقول للأوسط :

- هيا بنا ، قبل ان يصاب بالبرد . سنقول بكل بساطة ، إنه سقط على على الارض . ومن المستحيل ان نقول شيئاً عن البشر .

فهز الصغير رأسه موافقاً :

- أجل . سنقول اني سقطت في بركة الماء .

ثم ذهبوا ...

كل ذلك حدث سريعاً ، بحيث ان الفصن الذي كنت اعتلته قبل نزولي إلى الساحة ما زال يهتز ، وأوراقه الصفراء تتساقط حين وقع نظري عليه ..

توارى الأخوة الثلاثة ، بعد ذلك مدة اسبوع عن نظري .. وعندما بدوا اخيراً ، كانوا أكثر بهجة وحبوراً منهم في أي وقت مضى ، عندما ابصروا بي .

صاح الكبير بلطف ورقة :

- تعال والهو معنا .

فمضيت اليهم ، وتعلقنا بمرية قديمة مهجورة حيث امضينا عدة من الوقت

نتعارف . استوضحت :

- هل جلدوكم ؟

فأجاب الكبير ا

- لقد أخذنا نصيبنا، جميعاً ا

كان يشق علي ان يجلد هؤلاء الصبية كما يجلدني جدي ، واعتبرت ذلك جوراً  
فتأملت لهم ...

سأل الصغير :

- لماذا تقتنص العصافير ؟

- لأنها تشدو بصوت رائع .

- لا تقوم بذلك مطلقاً ، دعها تطير حرة أيا ن شاءت ، وتغرد ..

- حسناً ، اعدك بذلك ..

- لكن ، قبل ان تعدل في رأيك ، اصطد واحداً واعطنيه .

- ماذا تفضل ؟

- عصفوراً مرحاً ، لأضعه في القفص .

- ينبغي أن يكون ذلك بلبلا .

فقال الأوسط :

- ستلتهمه الهرة . ولن يدعنا والدي تحتفظ به .

فوافق الكبير :

- هذا صحيح ا

- هل عندكم والدة ؟

فأجاب الكبير :

- كلا لكن ...

فصرح الأوسط قائلاً :

– اجل لنا . لكنها واحدة اخرى ، ليست امنا ، فقد ماتت امنا .

فقلت :

– ان هذا النوع يدعى خالة .

فهر الكبير برأسه قائلاً :

– اجل ! هذا صحيح

ولاذ الثلاثة في ضمت عميق ...

كنت ادرك من روايات جدتي ، ما هي الخالة ، فلم يصعب علي ان ادرك معنى ألمهم العميق ، وقد جلسوا الآن متلاصقين كصيغان مذعورة ... وعادت الى مخيلتي قصة تلك الخالة الساحرة التي لجأت الى اشنع الوسائل لتأخذ مكان الأم الحقيقية ، فقلت محاولاً تعزية الصبية :

– لا تحزنوا ! ستعود أمكم الحقيقية ثانية .

فهر الكبير كتفيه ، ثم قال :

– وكيف سترجع وهي ميتة ؟ ذلك لن يحدث مطلقاً !

واخذت أقص عليهم بعض اقاويص جدتي بحماسة فائقة بيسد ان الصبي

الاكبر ابتسم باحتقار . قال :

– لقد سمعنا هذه الروايات ، فهي حكايات خرافية ليس إلا ! ..

كان اخواه يصغيان بانتباه . وقد عقد الصغير جبينه ، وعض على شفتيه .

ووضع الأرسط مرفقه على ركبتيه . وطوق بذراعه الآخر رقبة اخيه ...

قبيل الغروب . كان السكون يهيم . وتعالى بعض الغيوم الرمادية في الجو

فوق السطوح . حين بدا على حين غرة وجه شيخ ابيض السالفين . وقد لبس

معطفاً بنياً طويلاً يشبه ثوب الكهنة . وقد اعتمر قبة من القرو .. دنا منا

ثم استوضح وهو يشير إلى باصبغه :

– من هذا ؟

فنهض الكبير ، وأشار بيده الى دار جدي وقال :  
- انه من هناك .

- ومن طلب منه الحضور الى هنا ؟

فهبط الثلاثة تراً عن العربة ، ومشوا بانجساه البيت ، وقد ذكروني مرة  
اخرى ، بالاوز المطيع ..

وامسك بي الشيخ من كتفي بقسوة ، وقادني من الساحة حتى البوابة .  
كنت اشعر بالحاجة الى ذرف الدموع من شدة لوعتي ، بيد انه ركض بي  
مسرعاً ، وبخطوات واسعة ، حيث وجدت نفسي في الشارع قبل أن تنهمر  
دموعي .

وتوقف بجانب البوابة ، هازأً إصبعه في وجهي منذراً ، فقال :

- إياك ان تجرؤ وتأتي لمشاهدتي مرة أخرى !

فصرخت مغتاضاً :

- انا لم آت لمشاهدتك انت ، أيتها العفريت الهرم !

فمد ذراعه والتقطني مرة اخرى ، جاراً إياي على طول الطريق . مكرراً  
نفس السؤال ، فتمسقط عباراته على رأسي كضربات مطرقة ثقيلة :

- هل جدك في البيت ؟

وشاء القدر القاسي ان يكون جدي في المنزل ... وقف ذليلاً امام الرجل  
المتوعد ، وقد شلح رأسه الى الورا ، وانقذفت لحيته الى الامام ، وقال مرتبكاً  
وهو يتطلع بعينين مدورتين حزينتين :

- ان والدته غير موجودة ، وانا مشغول ، وليس من احد يرعاه . انني

استميجك عنراً ، يا سيدي الكولونيل .

فهدر الكولونيل بصوت تردد صداه في انحاء البيت ، ثم استدار على عقبيه  
وتوارى ...

وبعد فترة قصيرة كنت اضطجع في عربة العم بيوتر اخفي دموعي ،بعد ان اخذت نصيبي من العقاب ... فاستفسر العم بيوتر وهو مشغول بالحصان :  
- هل جلدك جلدك مرة اخرى ، يا صاح ؟ ما هو جرمك هذه المرة ؟  
وعندما اعلمته بالأمر نهض واقفاً ، وصر " على اسنانه ، وصرخ مفتافاً :

- لماذا تصاحب مثل هذه الجماعة ؟ انهم من سلالة النبلاء ، فهم كالأفاعي ..  
ارأيت ما اصابك بسببهم ؟ لن تنسى ذلك ، اليس كذلك ؟  
وبقي يهذي على هذا المنوال فترة طويلة . فأرهقت له السمع بادىء الأمر  
ثائراً نتيجة ما اصابني من جلد بسببهم . بيد ان الوجه الشبيه بالسلة اخذ يرتجف  
بشكل غريب . وسرعان ما تصورت ان اولئك الصبية هم يجلدون كذلك ،  
وقد وقع ذلك لهم فعلاً فيما مضى . وانهم لم يقصدوا اذيتي أبداً فهم لا يستأهلون  
العلم اكثر مني على اي حال . قلت :

- ليس من داع الى ذلك . فهم صبية طيبون . وان ما تتفوه به مجرد  
سخافات ليس إلا " .

فتأملني بحدة . ثم صرخ فجأة :

- اخرج من عربتي .

فزعقت وانا اقفز من العربة

- أحمق !

واخذ يعدو ورائي في الساحة وهو يصرخ . من غير ان يتمكن من  
الامساك بي .

- انا احمق ؟ انا سخييف ؟ سأريك مرة ...

وبدت جدتي على عتبة المطبخ . فألقيت بنفسي في احضانها . بينما طفتق  
بيوتر يشرح لها ما حدث بيننا قائلاً :

- ان هذا الجرو الصغير ينقص علي " حياتي " . وهو لا يدرك معنى لعبارته .  
فيصغني بالقلب بذيئة . ويتجاسر على نعتي بكاذب مع اني اكبره بست  
مرات ...

كنت لا أمتلك نفسي امام الناس الذين يكذبون أمامي . فيعتقد لساني من  
الدهشة ... وهذا ما جرى لي عندئذ . فرنوت اليه فاقد المقدرة على الكلام...  
بيد ان جدتي قالت بصرامة وحزم :

— والآن يا بيوتر ، أنت من يكذب . فأنا متأكدة من أنه لم ينمتهك  
بالفاظ بذئثة ابدأ .

أما جدي فكان يصدق ، ما يقوله له . ذلك السائق ...

\* \* \*

منذ ذلك اليوم ، شنها بيوتر حرباً علي" ، فهو يتحين الفرص . ليلكني علي  
ظهري ، أو بضربني باللجام الذي يلوحه بيده عابثاً . وكان هذا الأمر يحدث في  
بعض الأحيان صدفة ... وكذلك افلت عصافيري من الأقفاس ، وسلط عليها  
الحرر .. وكان يختلق مناسبات يشكوني فيها الي جدي ، ويسر اليه بأشياء  
كثيرة ، مغالياً في إظهار أخطائي وتكبيرها . وهكذا كنت لا أجد فيه سوى  
صبي صغير في مثل سني ، بيد انه يرتدي ثياب الشيوخ .

واخذت بدوري أفتنن في الثأر لنفسي منه . فأفك شرائط حذائه ، واقطع  
اقمشة جواربه ، حتى إذا ما لبسها وشدها كانت تتقطع إلى آخرها . وذات  
مرة وضعت في قبعته مسحوق الفلفل ، فبقي ساعة يسدور علي نفسه وهو  
يعطس .. وبكلمة اخرى أخذت أبذل قصارى جهدي لأكيل له الصاع صاعين .  
وما ان يأتي نهار الأحد حتى ياخذ في التجسس علي" ، ويراغبني بعين يقظة ، حتى  
إذا ما ضبطني في بعض المرات مع الصبية النبلاء ، عدا إلى جدي واشياً بي .

ورغم كل ذلك ، بقيت اتصلاقي تزداد وثوقاً ، ويزداد معها سروري الذي  
اعجز عن وصفه . وكانت تركز بين حائط منزلنا وسور آل أوفريانيكوف .  
زاوية صغيرة تظللها أشجار الليمون . وقد غطيت بأشجار من البيلسان التي



فتحت خلفها متسماً صغيراً في السور بأثني منه الأخوة . فجلس القرفصاء  
تحدث في سكون وهدوء بينما يقف شخص يحرس المكان مخافة ان يفاجئنا  
الكولونيل فجأة .

و ذات يوم قصوا علي قصة الحياة الرتيبة التي يعيشونها في كآبة وحزن .  
فكان ذلك يحز في نفسي ... كنا نتجاذب الحديث عن الطيور التي اصطادها .  
وعن كثير من الأمور التي تملأ حياة الصغار . بيد انني ما زلت اذكر تماماً انهم  
لم ياتوا مطلقاً على ذكر والدم أو امرأته . وغالباً ما كانوا يسألونني أن أروي  
لهم حكاية . فاعيد على مسامعهم بامانة متناهية . كل تلك الأساطير والروايات  
التي سمعتها من جدتي ... فاذا غابت عني بعض الأحداث . كنت أطلب اليهم  
الانتظار لحظة . وأمضي الى المطبخ استرجع جدتي ما غاب عن ذاكرتي الأمر  
الذي كانت تغتبط له كثيراً .

كنت احدهم . غالباً عن جدتي ... وذات مرة ندت عن الأخ الأكبر  
تنهدة عميقة . ثم قال مكتئباً :

— لا شك ان الجدات لطيفات للغاية . فقد كان لنا جدة لطيفة . وكننا  
نكن لها كل الحب ...

كان يتكلم . في أغلب الأحيان بصيغة الماضي ويردد كثيراً . وبجزم باد .  
هذه الكلمات : « كنا » و « ذات مرة » و « كان لنا » . حتى ليخيل الى  
السامع انه عاش مئات السنين . لا احد عشر عاماً .

كنت اغرق وإيام في الحديث حتى يغيب عن بالنا امر العم بيوتر الذي ما  
ان يظهر حتى يفرقنا وهو يقول :

— ما ... ذا ؟ انت معهم مرة اخرى ؟

كنت ادرك انه يزداد تقطيباً وعبوساً . واصبحت أيضاً ادرك طبيعة  
مزاجه من طريقة فتحه للبوابة عند عودته من العمل . كما من عادته أن

يفتحها بتأن وقمل . فاذا كان مزاجه سيئاً كان يفتح البوابة بحيث تبعث المفصلات نباحاً حاداً أشبه بتأوهات انسان يتألم ويعاني آلاماً قاسية .

وقد تركنا ابن اخيه الأبيكم الأصم ومضى الى الريف منذ زمن بقصد الزواج . وهكذا اصبح بيوتر يقطن وحيداً في حجرتة الواطئة السقف ، الكائنة فوق الاسطبل ، ذات نافذة واحدة . كان مهملاً في ترتيب تلك الحجرة حتى ازدحمت بالروائح ، من جلود مدبوغة وتبع وقطران ، وعرق ، كل هذه الروائح كانت حاجزاً يمنعني من زيارته .

وفي الأيام الأخيرة . شرع ينام من غير ان يطفىء القنديل . الأمر الذي ازعج جدي كثيراً .

كان يقول له جدي دائماً :

— إحذر يا بيوتر . وإلا "أحرقت المكان .

فيجيب . وهو يتطلع بعيداً حتى لا تتلاقى نظراته بنظرات محدثة :

— كلا . اطمئن . فلا خوف من ذلك مطلقاً ! فانني اركز الشمعة في الليل

وسط حوض الماء .

أصبحت نظراته الى الناس والأشياء سريعة . مسترقة . واخيراً امتنع عن حضور حفلات جدتي . ولم يعد يعزمنا على مرابه . في حين اخذ وجهه يزداد غضوناً وجفافاً . واصبح يترنح في مشيته ويحير رجله كرجل مريض منهار .

وصبيحة ذات يوم . بينما كنت اجرف الثلج مع جدي ، تناهى الى سمعي صوت صرير مزلاج البوابة بنغم وقح ، ودخل منه الى الساحة شرطي ثم اغلق البوابة وراه . واستند اليها . ثم أشار الى جدي بإصبعه السمينه طالباً اليه الدنو منه . وما ان غدا يجانبه حتى انحنى عليه واسر اليه شيئاً جعله يدمدم . وهو مضطرب :

- هنا ؟ متى ؟ لو كنت اتذكر فقط ...

ثم اجفل بشكل مزر . وصاح .

- ايها الرب المجد ! هل ذلك ممكن ؟

فنبه الشرطي بصوت هامس :

- صه ! لا تصرخ هكذا !

فتأمل جدي حوله ، فشاهدني ، وقال :

- خذ المجارف وامض الى المنزل .

فتواريت في زاوية ورحت اراقبها وهما يدخلان جناح السائق بيوتر في الاسطبل ، وقد نزع الشرطي قفاز يده اليمنى وطفق يضرب به اليسرى ، وهو يقول .

- لقد ادرك ذلك تماماً ، فترك حصانه وتوارى .

انطلقت الى المطبخ بأقصى سرعة واخذت جدتي بما شاهدت وسمعت . فوجدتها منحنية فوق وعاء العجين ، يتأرجح رأسها مع حركاتها الى الامام والوراء .

وعندما انتهيت من كلامي ، قالت بتكاسل :

- ربما سرق شيئاً . إمض إلى الساحة والعب ، فليس لك شأن في

ذلك !

عدت إلى الساحة عدواً ، فرأيت جدي يقف بجانب البوابة ، وقد نزع قبعته عن رأسه . يتطلع الى السماء وهو يرسم اشاره الصليب . وقد اعتلت وجهه علائم الغضب . وقد ارتجفت ساقيه .

صرخ . ضارباً الارض بقدمه :

- ألم أقل لك بان تمضي الى الدار ؟

ودفعني الى المطبخ . وما ان رأى جدتي ، حتى هتف بها :

— تعالي ، يا أماه !

انطلقا الى غرفة مجاورة حيث امضيا فترة من الوقت يتهامسان .. وعندما عادت جدتي الى المطبخ ، فهمت ان شيئاً رهيباً قد وقع .. سألت ؟

— لماذا أنت مذعورة خائفة ؟

فاجابت بهدوء :

— إخرس ، هل فهمت ؟

وغرق المنزل في جو من الرهبة والضيقة طوال ذلك اليوم وبقي جدي وجدتي طوال الوقت يتبادلان نظرات قلقة ، وعبارات غامضة ، زادت من اضطرابي وحيرتي . ثم اصدر الجد اوامره بصوت عال ، وهو يسعل :

— اشعلي القنديل ، يا أماه ..

تناولا طعام الغداء من غير شهية وبسرعة متناهية ، كأنها بانتظار شخص ما . واثنا ذلك كان جدي ينفخ خديه ، ثم يسعل ، ويدمدم :

— إن الشيطان يفوق الانسان قوة .. تأملي هذا مثلاً ، انه رجل مؤمن ،

ققي ورع . ومع ذلك تأملي ماذا فعل ا

فتنهدت جدتي ..

واخذ النهار يلهم اذياله في كسل ، واصبح الجو لا يطاق يزداد توتراً واضطراباً ساعة بعد ساعة .

وقبل هبوط الظلام ، اتانا شرطي آخر . كان سمين الجثسة ، احمر الرأس ، اقتعد زاوية في المطبخ ، واخذ يغط في النوم فيعملو شخيره في ضجيج عنيف .

سألته جدتي :

— كيف اكتشفوا ذلك ؟

فاجاب متكدرأ ، بعد فترة من الصمت :

— لا تتباهي ، انهم يكتشفون كل شيء عندنا .

كنت جالساً الى النافذة واضماً في فمي قطعة قديمة من العملة اسخنهما كي اطبع بها صورة القديس جاورجيوس ، حامل النصر ، على زجاج النافذة

المتجمد .. وعلى حين غرة ، تعالى الضجيج  
وبدت بتروفنا على العتبة ، وهي تصرخ :  
- انهضوا وشاهدوا ماذا يوجد على أرضكم  
وما ان وقعت انظارها على الشرطي . حتى ا  
الهرب . بيد ان الشرطي امسك بها من ثوبها وصرخ  
.. مهلك لحظة ! من انت ؟ ماذا يوجد هناك ؟  
فخرت على ركبتيها ، وشرعت في البكاء وهي تبتلع دموعها .  
- لقد مضيت لاحلب البقرة . وفجأة شاهدت ما يشبه زوجين من الاحدي في  
ساحة آل كاشرين ..

فصرخ جدي مغتاضاً :

- هذا كذب ، أيتها الفاجرة ، انت غير قادرة على مشاهدة شيء في  
ساحتنا ، فالسور عال ، وليس هناك من فجوات فيه ابداً . انت تكذابين !  
ليس هناك شيء في ساحتنا .

فبكت بتروفنا ، مادة اليه يدها وقد امسكت رأسها باليد الاخرى .  
- آه يا إلهي ! انه على حق ، فانا ا كذب . لقد مضيت لاحلب البقرة .  
وشاهدت آثار اقدم تقود الى السور ، وقد تبعثر الثلج في بقعة واحدة . مما اثار  
فضولي ، فتسلقت السور وتأملت من فوقه فرأيت ..  
- م .. ن ؟

أتت هذه الصرخة طويلة ، لا معنى لها ..

وفجأة ، شرع الجميع يعدون ويتدافعون خارج المطبخ في اتجاه الساحة .  
وهناك ، بين اكوام الثلج ، في الحفرة التي احدثها احتراق فرقة الغسيل ، كان  
العم بيوتر ممدداً . وقد استند ظهره إلى جذع محترق ، وقد تدلى رأسه فوق  
صدره .. أغلقت عيني خوفاً ورهبة ، فرأيت من خلال اهدابي ، مدينة العم  
بيوتر التي كثيرأ ما شاهدته يقطع بها الجلود ، قد القيت على ركبتيه ، بينما  
تراخت اصابع يده اليمنى ، اما يده اليسرى فقد دفنت في الثلج الذائب تحت

الجسد الصغير .. وقد تلوث الثلج عن يمينه بقع حمراء . بينما بقي عن يساره ابيض نقياً . وقد تدلى رأسه وارتاح فوق الصدر ، وقد ظهر من تحت لحيتيه صليب نحاسي قد احاطته خيوط من الدم المتجمد .

ومن كثرة الجلبة والاصوات حولي ، شعرت بدوار يمتاحني .. فبتروفنا تصرخ من غير انقطاع ، والشرطي يصيح بقالى ان يمضي الى مكان ما . وجدي يصيح بكل ما أوتي من قوة :

- حاذروا أن تلتفوا الآثار !

بيد انه سرعان ما قطب وهو يتأمل الارض تحت قدميه يخاطب الشرطي في صوت عالٍ بلهجة أمرة :

- لا جدوى من هذا الصراخ ايها الضابط ! تلك مشيئة الله . وانت تأتينا بمهمتك الحقاء هذه اتباً لك !

فركن الجميع إلى الصمت ، وهم يطلقون الزفرات ويرسمون إشارة الصليب ، ويتأملون الرجل الميت طويلاً .

واخذ آخرون يتقافزون من فوق السور ، يأتون من ناحية منزل بتروفنا . كانوا يتوقفون لحظة ثم يدمدمون بشيء غامض ، ثم يعدون عبر الساحة من غير ان يأتوا ضجة تذكر ، فكان جدي يرمقهم بنظراته ، واخيراً صاح حانقاً :

- انتم تلتفون اشجار توت العليق ، ايها الجيران ألا تحجلون من انفسكم ؟ فامسكت جدي بيدي واصطحبتني الى المنزل .. سألتها ا

- ماذا فعل ؟

فأجابت هامسة :

- اما شاهدت ؟

بقي اناس غرباء طيلة تلك الليلة . يملأون المطبخ والعرقة المجاورة له . بينما يصدر الشرطي أوامره ، ورجل آخر يشبه الشماس يدون بعض الملاحظات في دفتر صغير ، وليس في فيه غير سؤال واحد :

- ماذا ؟ ماذا ؟

احضرت جدتي الشاي وقدمته للجميع .. كان رجل مدور الجسم ، طويل  
الساقين ، يجلس إلى طاولة المطبخ يقول في صوت متهدج :  
- ليس من يعرف اسمه الحقيقي . الشيء الذي عرف عنه انه جاء من ايلتما  
فقط . أما ذلك الايكم الاصم فلم يعد ابيكم او اصم اكثر من اي واحد منا  
لقد تكلم واعترف . وكذلك اعترف ثالثهم ، وقد كانوا ثلاثة مهمتهم سرقة  
الكنايس . وقد مارسوا هذه المهنة منذ امد طويل ..  
فنهتت بتروفنا ، وقد احمر وجهها ، وتصبب منها العرق :  
- يا إلهي !  
استلقيت في سقيفة المطبخ ، ابصرهم من علي ، فبدوا لي قصاراً غلاظاً  
تعلوهم الشناعة ...



صباح يوم سبت ، مضيت باكراً إلى حديقة الجارة بتروفنا قاصداً اصطياد بعض الطيور ، بيد ان تلك الطيور منذ زمن طويل وهي تأتي ان تقترب من شراكي او تقع فيها . كانت تنبأهي يجالها قاصدة اغاظتي ، فتطير بمدوبة متناهية فوق الثلج الفضي ، وتتايل على الاغصان التي يتناثر الثلج منها عندما تحط عليها .. كل هذا اضفى على المنظر روعة وجمالاً يفوق اغتباطي في اصطياد تلك الطيور لذلك لم اشعر بخيبة امل ولم آسف على محارلاتي الفاشلة للامساك بها ، وكذلك فانني لست بالصيد المتحمس .. فكان منظر الطيور ومشاهدة اسلوب حياتها يبعث في نفسي نشوة اكثر من اصطيادها وامتلاكها .

جمعت شباكي واقفاصي ، عندما شمعت بالقشعريرة تحزمني العظم ، وتسلفت السور المؤدي إلى حديقة جدي ، ومضيت مسرعاً باتجاه الدار . كانت البوابة مفتوحة ، بيد ان قلبي وعلى حين غرة انقبض من غير سبب جلي عندما شاهدت مرجيك يقود خيوله المسرجة إلى مزجلة كبيرة مقفلة . استوضحته !  
- بمن أتيت إلينا ؟

فالتفت ، وحججني من خلف كتفه ، ثم قفز الى مقعده ، وصاح :  
- لقد أتيت بالكاهن .

وصرخ الفلاح بالجياد ، وهو يهز عنانها ويحشها على العدو ، فتنتثر في ارجاء الفضاء رنين اجراسها :



- هيا انطلي ، ايها الكتاكت ا  
بقيت واقفا اتأمل العربية وهي تتوارى بعيداً ، ثم أغلقت البوابة ، ودلقت  
الى الدار .. ولم اكذ ابلغ المطبخ ، حتى قناهي الى اسماعي صوت أمي العميق في  
الحجرة المجاورة :

- حسناً ! ماذا تنوي فعله الآن ؟ قد تود الاجهاز عليّ ، اليس كذلك !  
فألقيت بالاتفاص أرضاً ، وعدوت إلى المر من غير ان ازع معظفي . بيد  
ان جدي امسك بي عند العتبة ، ورمقني بنظرة حادة ، وابتلع بصعوبة شيئاً  
ما كان قد علق في حلقه ، ثم صاح بصوت جهوري :  
- لقد عادت امك .. فاذهب اليها ! انتظر ! ..  
وهزني بشدة حيث لم احمل نفسي إلاّ يجهد ، وقذف بي ناحية الباب وقال :  
- أدخل ! أدخل !

ارتطممت بالباب ، فوقفت عنده لحظة حائراً ، ترتعد فرائصي برداً وانفعالاً ..  
واخيراً عندما فتحت الباب وبقيت في العتبة واقفاً مذهولاً ، وقد انعقد لساني  
فهتفت أمي !

- آه ! ما هو ! يا للساء ! كم كبرت ! ألم تعرفني ؟ ماهذه الثياب التي  
يلبسها ! .. تأملي اذنيه المتجمدتين برداً ..  
وانتصبت في وسط الغرفة وقد انشنت فوقي ، تنزع عني ثيابي وتجعلني  
ادور أمامها كالخذروف ..

بدا لي وجهها اصغر من ذي قبل ، وقد ازداد بياضاً . اما عينساها فقد  
اتسمتا وازدادتا غوراً . وقد التمع شعرها بهريق ذهبي اكثر من اي وقت آخر ..  
كانت تلقي الثياب التي تنزعها عني ناحية الباب .. وهي تتلفظ بلهجة كئيبة :  
- حسناً لماذا لاتنيس بشيء ؟ الست مغتبطاً ؟ تقو ! يا له من قميص وسخ !  
وتناهت الى سمعي اقوال جدي ، معلقة على ملاحظات امي وهي تقول  
بلهجة شاكية :

- لقد تخلص من كل رقابة . ولم يعد يخاف حتى من جده ! آه ، يا فاريا ،





انظر لحالها ، واغفر لها ، يا ابتاه ! فليس احد منا معصوماً عن الخطأ ..  
فرمقها بنظرة ، وقد استند الى الجدار ، وهو يردد :  
- آه ، اجل ، طبعاً ! لم لا ؟ انت على استعداد ان تساعني اي انسان ..  
قفوا ! تباً لك ؟  
ثم انثنى نحوها ، وامسكها من كتفها ، وشرع يهزها . وكلامه ينساب من  
بين شفثيه هامساً :

- لكن ، ماذا تقولين عن الله ؟ انه لا يغفر كل شيء اليس كذلك ؟ ما قد  
اصبحنا على حافة القبر . وما زال ينزل بنا العقاب . لقد ادر كنا ايماننا الاخيرة  
فاذا هي لا تهدأ ، خالية من الفرح ، والاستقرار .. سلموت متسولين ، تذكري  
ذلك ، متسولين معدمين !  
فامسكت جدتي بيده ، وقبعت بالقرب منه ، وضحكت بهدوء :

- وما الالهية في ذلك ؟ لماذا أنت خائف من ان تكون متسولاً ؟ سنصبح  
متسولين ، اذن ، نستطيع ان اخرج انا لأستجدي ، وتبقي انت في البيت ...  
وليس من احد يستطيع ان يمنع عنا العطاء ، ولن نعيش جائعين . كفاك تعذيب  
نفسك بهذه الالهية .  
وفجأة نفخ بمنخرية ورفع رأسه ، ثم لف ذراعه حول عنق جدتي ، وقد  
التصق بها تماماً ، صغيراً ، بالياً ، رثاً ، وقال بلهجة شاكية :

- أيتها الحمقاء المباركة ! انت الانسان الوحيد الذي بقي لي على وجه  
الارض . انت لا تأسفين على شيء في هذه الحياة لأنك بلهاء لا تدركين شيئاً .  
تذكري ما فعلناه من اجل ابنائنا ! لقد ارتكبنا المعاصي في سبيلهم ! والآن ،  
في النهاية ، لو أنهم يعملون الشيء اليسير مما عملناه من اجلهم ! ..  
وعند هذا الحد لم اعد احتمل ، فقفزت عن الموقد والعرق يتصبب مسني .  
والدموع تنهمر من مقلتي ، وعدوت اليها ، وانا ابكي من الفرح بعودة أمي ،

ولأنها قد تبادلا هذه العبارات الناعمة ، وبكيت حزننا لأنها سمحا لي بمشاركتها  
احزانها . فماتقاني ، واخرقاني في دموعها ثم همس جدي في اذني :

— انت هنا ، ايها الشيطان الصغير ! لن تكون بحاجة اليّ بعد الآن ، بعد  
عودة امك ، انا جدك الشيطان العجوز ، اليس كذلك ؟ حتى ولا جدتك ، هذه  
الشمطاء الهرمة التي لا تعرف شيئا سوى تدليلك . تقو ! تبأ لك !  
وبإشارة من يده ابعدنا عنه ، ثم قفز واقفاً بعد ان تمالك نفسه .. صاح  
مفتاظاً :

— الجميع يتركونا ! وكل واحدٍ يمضي في طريقه الخاصة ، لا يعي الا  
مصلحته فقط .. حسناً نادوها . بسرعة !  
فتركت جدتي المطبخ ، بسرعة ، بينما ازوى جدي في زاوية من المطبخ ،  
وهو يدمدم حاني الرأس :

— ايها الاله الرحيم ، هل ترى ماذا افعل ؟ اتراه ؟  
وكال بقبضته ضربة على صدره ، دوى لها رنين لم يعجبني . كنت على اي  
حال ، اكره الطريقة التي يخاطب بها الله .. وانت امي ، فملأت الغرفة بالتماع  
ثوبها الاحمر . وقبعت الى الطاولة بين جدي وجدتي . وشرعت تحكي لهما برزانة  
ووقار قصة ما ، وهما يرهفان اليها السمع في سكون وهدوء . كانا يبديوان  
صغيرين بالنسبة اليها ، فكأنها الأم وهما والداها !

كنت مضطجعاً في السقيفة ، منهك القوى من وقائع النهار ، فسرعان ما  
استسلمت لسنة من النوم ...

تزي جدي وجدتي ذلك المساء افخر ثيابها ، وذهبا لحضور صلاة الغروب .  
غمرتنا جدتي فرحة محاولة الفات انظارنا الى جدي الذي يتالق في بزة رئيس  
نقابة الصباغين ، المؤلفة من سروال مخملي ومعطف من الجلد ، ثم همست في اذن  
والدتي :





قالت وهي تسوي السجادة بقدمها :  
- انك ستصبح شبيهاً بوالدك في يوم ما . هل كانت تحدثك جدتك عند ؟

- اجل  
- لقد كانت تحب مكسيم كثيراً . كانت مولعة به ، وكان هو ايضاً يحبها كثيراً .  
- اعلم ذلك .  
- رمت الشمعة بنظرة عابسة . ثم نفخت على الشمعة الضئيلة فأطفأتها ...  
قالت :

- هكذا أفضل .  
كنت اجد الغرفة اكثر وداعة حين يخدم النور . وتحل محل اخيلة القمر الفضي الزرقاء ... بينما تأخذ شعاعات ذهبية تراقص على زجاج النافذة .

- اين كنت تقطنين قبل رجوعك الى هنا ؟  
فذكرت اساء بلدان عديدة . كأنها تسترجع إلى ذاكرتها ماضياً سحيقاً غربت وقائعه عنها منذ أمد طويل ...  
- من أين اتيت بهذا الرداء الجميل ؟  
- لقد صنعته بنفسي . فأنا أصنع كل شيء بنفسي .  
كنت اغتبط كثيراً إذ أجدها تختلف عن الجميع كل الاختلاف . فلا شيء يؤسفني منها غير قلة كلامها . فهي لا تتكلم إلا بحبيبة على سؤال ...

وقبعت مرة اخرى ، يحاني على الأريكة ، وقد شدتني اليها ، وبقينا كذلك مدة طويلة ، إلى أن عاد جدي وجدتي من الصلاة ، ورائحة البخور والشموع تفوح منها وقد علا الهدوء ، واللاطف ، والاكبار سياهما ...  
وفي المساء ، أقيم عشاء احتفالي ، يليق بحدث كبير الأهمية ، لم نتفوه خلاله بالكلام إلا فيما ندر . كأننا نخشى إيقاظ شخص عزيز من نومه الخفيف الذي حمله



على اثره ...

وبعد مضي ايام قليلة اخذت امي على عاتقها مهمة تعليمي الثقافة «الحياتية» فاشترت لي بعض الكتب ، منها « مبادئ القراءة الروسية » الذي تعلمت فيه ، خلال عدة ايام حروف الأيجدية الواردة في غير الكتب الدينية . بيد أن امي ارادت مني ان احفظ الشعر عن ظهر قلب ، فكان ذلك شاقاً وبدء عذاب مشترك لسكيتنا .

وكانت هذه اولي المقطوعات الشعرية التي ينبغي علي حفظها :

« طريق تذر به الرياح  
تجوب الفيافي ودور البشر  
لم ينزل الفأس فيها صداح  
لكن حوافر الخيل تمر »

وكنت عند قراءتها اقول « النباح » بدلاً من « الرياح » و « الكأس » عوضاً عن « الفأس » و « فرافر » بدلاً من « حوافر » . . . فتصيح والدتي محتجة بقولها :

— فكر قليلاً كيف يمكن ان يذر « النباح » ايها الأبله ؟ « الرياح » هذا ما ينبغي قوله !

ادركت ذلك جيداً ، بيد انني بقيت اقول ( النباح ) أثناء تلاوة الدرس متعمداً ، فتغضب امي غضباً شديداً . وتلقبني بالعنيد الأبله . فأجد هذه الكلمات جارحة . فاحاول جاهداً الا اخطيء مرة ثانية . . . فقد كنت ارددها في ذهني من غير ان اخطيء فيها أبداً . لكن ما ان اتلوها بصوت مرتفع حتى ابدأ بالخلط بين الكلمات من جديد . واخيرا شعرت بالكراهية نحو تلك السطور واخذت اتعمد تشويهها ، وذلك يجمع عدة كلمات من نعمة واحدة الى بعضها بعضاً ، وأسرف كثيراً حين تفقد تلك الأشعار كل معنى لها .

بيد ان تلك التسلية كلفتني غالباً ، فقد طلبت مني والدتي في نهاية الدروس





ذاكرتي، وتزداد رغبتي في تحريف تلك السطور الايقاعية ، ويشدني الشوق الى  
تبديل بعض الكلمات وتشويها . وكنت ابلغ غايتي في ذلك من غير صعوبة ،  
فتتدافق الكلمات الغريبة الى تخيلتي وتأخذ ، بكل بساطة ، موضع الكلمات  
الاساسية ، وكانت ذاكرتي ترفض في بعض الاحيان استيعاب مقطوعة كاملة مها  
حاولت من جهد ، وامثال هذه الرباعية الشاكية ، واعتقد انها من شعر الامير  
فيازيمسكي التي كابدت من ورائها متاعب كثيرة :

« من الفجر حتى دنو الغسق  
يمر ، في الشارع ، جمع يصيح !  
يودون شيئاً باسم المسيح ...  
فكان الشطر الرابع يغيب دائماً عن ذاكرتي :  
يبغون قوتاً يسد الرمق . »

وتغضب امي لضعف ذاكرتي فلتشتكي الى جدي ، الذي يجيها قائلاً  
في حدة :  
- ماكر ، شيطان ، انه يأتي ذلك عمداً : انه يتقن جميع الصلوات افضل  
مني فذاكرته صلدة ، اذا ما استوعبت الشيء فانه ينحضر فيها الى الابد ، ينبغي  
ان تجلديه !

واتت جدتي تؤيد رأيه .  
- انه يحفظ القصص والحرفات جيداً ، حتى الاغاني ، والاغاني شعر ، اليس  
كذلك ؟

كان ذلك حقيقة لا مرأى فيها . احسست انني ملوم ، ومع ذلك كنت اذا  
بدأت في حفظ مقطوعة جديدة ، تأخذ اسراب الكلمات الغريبة تتدافع الواحدة  
تلو الاخرى في ابيات اقل او اكثر تناغماً :

« يدب الى بيتنا في الصباح  
جمع غفير ينتظرون ..  
يبتهلون .. ويبكون  
وبكاؤهم كصفير الرياح ! »

كنت اعيد على جدتي ، وقت النوم كل ما ترسخ في ذهني من دروس النهار  
وما ابدعته تخيلتي ، فتبتسم احياناً ، و احياناً اخرى تؤنبي بقولها :  
- أ رأيت ؟ انك قادر على فعل ما تريد ساعة تشاء ! لكن ، ينبغي عليك  
ان لاتسخر من الفقراء لأن الله معهم .. لقد كان المسيح نفسه فقيراً ، وكذلك  
سائر القديسين .

- « إني امقت السماء  
وكذلك امقت جدي !  
فسامحني ، يا رب ..  
أأحلق في السماء  
هارباً من ظلم جدي  
ام اترارى في جب ؟ .. »

فصرخت محتدة :

- يجب ان يقطع لسانك من جذوره ، أيها العاق الشرير ، ماذا يجري لو سمع  
جداك هذا؟

- ليسمع ..

فتأخذ في رجائي بلطف :

- لماذا تغيض امك البائسة هكذا ؟ يكفي ما تعانیه من احزان ..

- وما هي احزانها ومشاغلتها ؟

- إخرس . فانت لست بقادر على ادراك هذه الامور !

- انا اعلم ان حدي هو ...





رأفتي حتى صرخت بلمجه غاضبة :

- ارجع هذه الوسائد وباقي الاشياء إلى مكانها لقد قلت لك الف مرة ان لا تتدخل بما لا يعينك .. وذلك الشيطان العجوز ماذا جرى له حتى فقد عقله بهذا الشكل الوحشي ؟

وفجأة تفضن وجهها وندت عنها صرخة خافتة ونادتني وقد اكبت رأسها :

- انظر هنا ما الذي يؤلني بهذا الشكل ؟

فرفعت شعرها الكث مفتشاً حتى عثرت على دبوس قد غرز في فروة رأسها ، ثم وجدت دبوساً آخر .. وهنا احسست بالكلل يرهق جسدي فقلت :

- ينبغي ان انادي والدتي ، انني خائف !

فصرخت ملوحة بيدها :

- ماذا تقول ؟ انادي والدتي ؟ شكراً لله على انهم لم تر ذلك او تسمعه ،

وانت تود مناداتها ! امض من هنا !

وشرعت تبحث باصابع ماهرة عن الدبابيس الغارزة في شعرها الكث

البديع ، وجمعت قواي وساعدتها على سحب دبوسين آخرين من جسدها .

- هل يؤلمك ذلك ؟

- قليلاً ! سأغتسل غداً ويزول الالم كله .

ثم شرعت في تقنيجي متملقة اياي بحنان :

- بيد اياك ان تعلم امك بما حدث لي ، اياها الكتكوت الصغير . يكفيتها ما

يجري بينها . انك لن تخبرها اليس كذلك ؟

- كلا !

- يجب ان لا تنسى وعدك والآن ، لنصلح سوية كل شيء .. هل تشاهد



الذي في وجهي ؟ لا . حسناً ! ان ما جرى سيبقى سرّاً بيننا .  
وشرعت تمشح الارض . فقلت لها من صميم فؤادي :  
- انت قديسة ، يضربونك ويعذبونك ولا تعيري اليهم بالآ .  
- ما هذه السخرية ؟ قديسة ! ياله من مكان عظيم للبحث فيه عن قديسة !

كانت المرة الاولى التي يقسو فيها جدي لهذه الدرجة على جدتي ، على الاقل  
في حضوري .. فرحت ابحت عن طريقة للانتقام منه على فعلته هذه .  
وبعد مضي يومين ، ولجت غرفته في الطابق العلوي ، فوجدته متربماً على  
الارض وقد اكب على صندوق مفتوح يصبث ببعض الاوراق . وعلى كرسي  
بالقرب منه قد وضع التقويم الكنسي المؤلف من اثنتي عشرة رقعة وقد قسمت  
الى مربعات بعدد ايام الشهر وقد كان جدي يحرص عليه كثيراً ويقدره ولا  
يسمح لي بمشاهدته الا نادراً عندما يكون راضياً عليّ ..

وفي تلك اللحظة قررت ان امزق هذا التقويم ، فلبثت اترقب الفرصة السانحة  
حتى اذا مضى جدي الى النافذة ليقرأ ورقة تزينها عدة رسوم ، اسرعت  
واختطفت عدة ورقات من ذلك التقويم ، ثم عدوت حتى المطبخ حيث اخذت  
المقص وقبعت في السقيفة اقصى رؤوس القديسين . ولم اكف اذيل اول صف  
منهم حتى صعب عليّ قصهم على هذا النحو ، فأخذت اقصى الورق على موازاة  
الخطوط التي تفصلها الى مربعات . وما ان انتهيت من قص السطر الثاني حتى  
بان جدي على عتبة الباب وقال :

- من سمح لك ان تاخذ التقويم ؟  
وعلى حين غرة ، ابصر بالمربعات الصغيرة المتناثرة على الارض فاخطفها  
وتأملها طويلاً ، ثم القى بها وتناول غيرها حتى اذا فهم ما يجري اضطرب جسده  
وتوالى تنفسه مسرعاً فرمى الاوراق في الفضاء .  
واخيراً صرخ ، وهو يشدني من قدمي عن الموقد :

- ماذا فعلت ايها الشيطان ؟

بيد اني افلت منه ، وقفزت منطلقاً وارتميت بين ذراعي جدتي .. فصرخ  
وهو يكييل لنا الضربات :  
- سأقتله .

وبدت أُمي فجأة، فوجدت نفسي في الزاوية وقد وقفت امامي تحميني .  
صرخت وهي تحاول ان تصد اللكمات المنهالة من قبضة جدي :  
- كفى يا ابتاه ! ارجع الى صوابك !  
فتهاوى جدي على نفسه قرب النافذة وهو ينتحب :  
- لقد قتلتموني ، كلكم ضدي !  
فأتى صوت امي الهزيل :  
- الا تخجل من نفسك ؟ انت تسخر من الجميع بتمثيلك .

فشرع يصرخ ويرفس الارض بقدميه ، وقد اغمض عينيه بقوة ، ونفث لحيته  
بشكل يبعث على السخرية ، وبدا لي فعلاً انه خجل مما يؤتسه امام والدتي ،  
وهذا ما دفعه الى اغماض عينيه ..  
قالت أُمي وهي تجمع الاوراق المبعثرة :  
- سألصق لك هذه الصور على قطعة من القماش .. فتغدو اكثر متانة وأجمل  
مما كانت عليه . تأمل هذا التقويم لقد اهتمراً ولم يعد صالحاً .

كانت تكلمه بنفس اللهجة التي تحدثني بها اثناء الدرس عندما يصعب عليّ  
فهمها . وفجأة نهض جدي ، واصلح من هندامه ، ثم سعل وقال :  
- يجب عليك ان تلصقي هذه الاوراق اليوم وسأتيك بالبقية الباقية .  
واتجه نحو الباب . بيد انه ما ان بلغ العتبة حتى استدار وقال ، هازماً  
اصبعه المعوج وهو يشير إليّ :  
- اما هو فيجب ان اجلده !

فوافقت والدتي :

– اجل لا شك في ذلك .

ثم سألتني وهي تحنو عليّ .

– لماذا فعلت ذلك ؟

– لقد تعمدت ذلك . وان هو ضرب جدتي مرة اخرى لأنزعن له لحيته .

فهزت جدتي رأسها ، وهي تنزع قميصها الممزق ..

قالت ، وهي تبصق محتدة :

– كان ينبغي ان تربط لسانك عن الكلام كما وعدت . يجب ان يلسع هذا

اللسان حتى يكف عن الثرثرة .

فتأملتني امي ، ثم التفتت اليّ قائلة :

– متى ضربها ؟

– ألا تخجلين يا فارفارا ، ان تطرحي مثل هذه الاسئلة على طفل صغير ؟

ذلك ليس من شأنك !

فصرخت امي ، وهي تعانقها بلهفة :

– آه ، امه ، ايها الانسان المبارك !

– آه ، يا لها من ام عظيمة بالنسبة اليك ! هيا ، اتركيني امضي ..

وتطلعت الواحدة منها الى الاخرى بسكون لحظة ، ثم ذهبت كل منهما في

سبيلها .. وكنت ارهف السمع الى جدي يدب في الممشى في غدو ورواح لا

ينتهيان ..

\*\*\*

لقد ارتبطت امي منذ اليوم الاول لحيثها ، باواصر الصداقة مع امرأة

الضابط اللطيفة ، واخذت تزورها كل مساء تقريبا . وهناك كانت تجتمع ببعض

افراد آل بيتلنغ ، جماعة من السيدات الجميلات ، وشلة من الضباط الشجعان .

بيد ان ذلك لم يعجب جدي ، فكان وقت العشاء يلوح بلمقته باتجاههم ،  
ويغمغم :  
- انهم يقيمون حفلة اخرى ، لعنة الله عليهم ا فهذه الليلة لن اجد سبيلا  
للنوم .

وسرعان ما طلب من الجيران إخلاء مسكنهم ، وبعد رحيلهم اتى باثاث بالـ  
وزعه مكانهم ، فكان يقول :  
- لسنا بحاجة بعد اليوم الى اولئك المستأجرين ، وسأستقبل منذ اليوم  
الضيوف بنفسى .

ومع قدوم نهار الاحد شرع الزوار يتوافدون علينا . ومن بينهم اخت  
جدي ، ماتريونا إيفانوفنا ، كان برفقتها ولداها : فاسيلي . وهو رسام شاب ، حلو  
المعشر ، رقيق القلب ، طويل الشعر . وفيكتور ، كبير الرأس وقد غطت بقع  
النمش وجهه الضيق . وما ان بلغ الممر ، حتى أخذ في نزع معطفه ، واخذ  
يبلغ اذني صفيحه وترنيمه بهذه الكلمات :  
- أندريه ، بابا .. أندريه ، بابا ..  
فدهشت لذلك وارتعبت في الوقت نفسه ..

واتى الحال ياكوف يحمل قيثارته ، برفقة ساعاتي اصلع الرأس ، اعور ،  
يلبس معطفاً طويلا اسود يضي عليه مسحة الرهينة . وكان يقبع في الزاوية  
متسماً .. قليل الكلام ، يردد دائماً نفس الجملة :  
- ارجوك لا تجهد نفسك ، فالامر سيان ..

وعندما تأملته للنظرة الاولى تذكرت فجأة الزمان الغابر ( وكننا لم نزل  
نقطن في شارع نوقايا ) عندما تناهت الي اصوات الطبول وهي تققرع منذرة  
بالشر والويل في الطرقات العامة . وشاهدت كذلك عربات سوداء مرتفعة ، وقد  
التف الجنود حولها ، تتحرك من السجن باتجاه الساحة العامة ، وقد قبع فيها

رجل تحجب رأسه قبعة مستديرة وقد وضعت السلاسل الحديدية في يديه ترن  
كلها تحرك في مكانه . وكانت تتدلى من عنقه لوحة سوداء ، قد كتب عليها شيء  
ما باحرف بيضاء كبيرة ، انكعب رأس الرجل عليها كأنه يقرأ ما فيها ..  
- هذا هو ولدي !

تلفظت امي بذلك وهي تقدمني إلى الساعاتي ، بيد انني عدت الى الورا  
مدعوراً . وقد عقدت يدي وراء ظهري .. فأجاب هذا الاخير ، وقد انشدد  
فمه حتى اذنه اليمنى بطريقة مخيفة :  
- ارجوك ، لا تجهدى نفسك ...  
وتشبت فيّ من حزامي ، وشدني اليه وبرمني امامه بحركة ماهرة . ثم قال  
وقد تركني :

.. ان صحته جيدة انه لفتى قوي !  
واتخذت مكاني في مقعد يتسع للنوم ، وكان جدي يعتر ان ذلك المقعد كان  
يخص الامير جروزينسكي فيما سلف من الايام ، وشرعت اراقب من تلك الزاوية  
كيف يحاول الكبار ان يلهوا وكيف كانت تعابير وجه الساعاتي تتغير من غير  
توقف ، الامر الذي اثار دهشتي وارتياي ..

وتناول الضيوف الشاي الذي مزج بالروم ، واحتسوا الشراب الذي تهيه  
جدتي .. واكلوا الكثير من معجناتها المشوية التي تغمرها « القشطة » ..  
يشكرون جدتي على كرمها وما ان انتهوا حتى تهالكوا بتراخ في مقاعدهم وقد  
توردت وجوههم وزهت الوانها ، بينما يغرق خالي ياكوف في اغانيه الشجية  
بصوته القبيح ..

كان جدي مشغولاً في محادثة هامسة مع الساعاتي ، وهو يعد على اصابعه ..  
وكان الساعاتي يرفع حاجبه ، ويرنو ناحية امي ، ويهز رأسه . بينما تفرق اسارير  
وجهه في اضطراب بادٍ خبيث . اما والدتي فكانت جالسة بين الاخوين

سيرجيف كعادتها ، تنكلم بصوت هامس رزين الى فاسيلي الذي كان يتنهد  
ويقول :

- آه ! ينبغي ان افكر في ذلك !

فيلتسم فيكتور ابتسامة خبيثة ويجر قدميه على ارض الغرفة ، ثم يشرع في  
الانشاد فجأة بصوت حاد :

- اندريه ، يا با ... اندريه ، يا با ...

فيتوقف الجميع عن الكلام ، ويرنون بابصارهم إليه ...

قالت امه باعلاء :

- لقد حفظ ذلك عن « المسرح » إنهم ينشدون هكذا في المسرح .

امضينا ليلتين او ثلاثاً من هذه الامسيات ... وما زلت اذكر كم كنت احس  
بالملل والارهاق في هذه الامسيات . ثم أتى ذلك الساعاتي ، عند ظهيرة يوم  
احد ، بعد القداس الاخير قوياً . وكنت قابلاً في غرفة والدتي اساعدها في نزع  
اللائيء من ثوب بالي عتيق . حين فتح الباب على مصراعيه ، وبان وجه جدتي  
المضطرب فترة قصيرة كانت تهمس اثناءها :

- فارفارا ، لقد اتي !

فلم تتفاجيء امي لذلك ، ولم تنتفض لها عضلة ، ثم فتح الباب ثانية وولج  
الغرفة جدي وهو يهتف بوقار زائد :

- إرتدي ثيابك وتعالى ، يا فارفارا !

فسألت والدتي من غير ان تتطلع الية أو تقف :

- إلى اين ؟

- تعالي يباركك الله ، وكفى جدالاً . انه رجل نزيه ، ماهر في عمله ،

وسيصبح اباً طيباً لألكسي .

كان جدي يتكلم باهتمام لم اعهده به ، وهو ينقر على وركيه بيده من غير

انقطاع .. بينما اخذ مرفقاه يرتعشان . كأن يديه تودان الامتداد إلى الامام ،  
وهو يحاول منعها من ذلك .. قالت امي بهدوء :  
- لقد سبق وقلت لك ان ذلك لن يتم .

فدنى جدي اليها ، وهو يمد ذراعيه إلى الامام كرجل متسول ، وصاح  
بصوت جهوري ، مرتعشاً من قمة رأسه حتى اخمص قدميه :  
- تعالي ، وإلا جررتك جراً من رأسك !  
- ستجرني ؟

طرحت امي هذا السؤال وهي تنهض مقطبة الوجه ، وقد غاصت عيناها  
في وجهها وفيها وعيد نحيف .. وبسرعة نزعته عنها المعطف ، ثم تنورتها .  
قالت ، وليس غير القميص يستر جسدها .  
- حسناً ، جرني إذن !  
فصر على اسنانه هازأ قبضته ، وصرخ :  
- إلبسي ثيابك ، يا فارفارا !  
قدفعت امي ، واسرعت نحو الباب وصاحت :

- حسناً ، هيا بنا ! ...  
همس من رأس شفتيه :  
- سألنك .

- لست خائفة .. والآن ؟

وفتحت الباب . بيد ان جدي تشبث بها من طرف قميصها وتهاوى على  
ركبتيه منتحباً ، وهو يقول بصوت خافت لا يكاد يسمع :  
- ستهلكين ، يا فارفارا ! اينها الشقية الماكرة لا تجلي علينا العار ..  
وبعث بأنين مؤلم ، كأن الام يعتصر قلبه :  
- اماه ! اماه !

اثناء ذلك كانت جدتي قد سدت الطريق على امي واخذت تدفعها الى  
الغرفة بمحركات من ذراعها كما تفعل لفراخ الدجاج الصغيرة وهي تهمس :  
- ايتها الحقاء فاركا ! عودي ، يا قلية الحياء !  
وعندما امست امي في وسط الحجر ، اغلقت جدتي الباب بالمزلاج ، ثم  
التفتت نحو جدتي واقامته عن الارض بيد واحدة هازة اليد الاخرى في وجهه  
منذرة :

- انت ايها الشيطان الهرم ، ايها المخلوق الاعوج !  
واستدته على صرة من الثياب ، وهو حاني الرأس ، فاغر الفم هاتفة بوالدتي :  
- ارتدى ثيابك ، يا فاركا !

فقالت امي ، وهي تتناول ثيابها عن الارض :

- اني غير ذاهبة اليه ، أسمعان ؟

ودفعتني جدتي قائلة :

- امض وآت بوعاء من الماء ... هيا اسرع !

كانت تتكلم هامسة ، لكن بلهجة الأمر ... عدوت نحو المرر انفذ طلبها ،  
ومن هناك ارهفت السمع إلى احدى يسيير ببطء ذهاباً وإياباً ، بخطوات ثقيلة في  
الحجرة المقابلة . بينما بلغني صوت أمي تصيح في غرفتها .  
-- سأرحل غداً !

تابعت الى المطبخ ، حيث جلست الى النافذة كالحالم . كان جدتي يتأوه ويئن  
وجدتي تدمدم بشيء ما في نفسها . واغلق باب بشدة ، ثم نشر الصمت وشاحه  
من جديد .. وفجأة تذكرت الغاية التي اتيت من اجلها ، فملأت وعاء بالماء  
ومضيت الى المرر حيث شاهدت الساعاتي يسير حاني الرأس ويدغدغ قبعتيه  
المصنوعة من الفرو ، ويتفوه بكلمات جافة ... وكانت جدتي تحب في أثره ،  
مصالبة ذراعها على صدرها ، وهي تنحني له من غير أن يشاهدها ، تقول



هامسة :

— انت تعلم ذلك جيداً ، فالحب امر لا يجبر عليه احد ! ..  
وتعثر الساعاتي على عتبة الباب ، ثم مضى الى الساحسة ، ووقفت جدتي  
هناك ، وهي ترسم اشارة الصليب يرتجف كل عضو فيها ... ثمى هل ترتجف  
من الضحك أم البكاء ؟ لست ادري ! لانني في تلك اللحظة لم استطع ان اغوص  
في اعماقها ...

انطلقت اليها سائلاً :

— ماذا جرى لك ؟

فانتشلت الوعاء من يدي بشدة ، حتى اسالت بعض المساء على قدمي ،

وقالت :

— من اين ذهبت لاحضار الماء ؟ اقفل الباب !

وقفلت عائدة الى غرفة والدتي ، بينما ذهبت انا الى المطبخ ، ومن هناك  
اخذت استمع الى تأوهاتهما وتنهداتها المستمرة من غير توقف ...

كان الجو رائعاً ، والشمس ترسل اشعتها الذهبية التي تخترق زجاج النافذة .  
وكانت المائدة قد أعدت للغداء ، فانعكست اشعة الشمس في الصحون النحاسية  
وفي الوسط تربعت زجاجتان من الشراب .. وشدت الطيور الحبيسة في اقفاصها  
وتقنت باشعة الشمس ، المتسلقة على حفاف النافذة . \* بيد ان هذا الشدو وهذه  
الروعة المتألقة في وضح النهار ، لم يبعثا في شيئاً من الغبطة أبداً . كان الهسم  
يفيض في قلبي . فاعزف عن التمتع بجمال ذلك النهار البديع وعن أي شيء  
آخر في الحياة . واحسست بشيء يشدني الى إطلاق سراح الطيور لكي تنعم  
بالحرية والانطلاق . وما ان وضعت يدي على الاقفاص حتى تناهى الى أسعاعي  
صوت جدتي في المطبخ وهي تصيح . وتلطم خديها وتصرخ وهي تعسرو الى  
الموقد :

- لعنكم الله جميعاً . واخذكم الشيطان ! آه . يا لك من عجوز بلهاء ، يا أكويلينا !

واخرجت من الفرن فطيرة كبيرة . ونقرتها بإصابعها على القشرة المحترقة .  
ثم بصقت على الارض :

- لقد احترقت حتى اصبحت رماداً ! وقد اردت تسخينها ! تفو ، ايها الشياطين هلا ذهبتم جميعاً !

وأخذت تنتحب وهي تقلب الفطيرة من جهة الى اخرى ، وتدس القشرة المحترقة . وتبئها بدموعها السخية ...

وولج جدي ووالدتي الى المطبخ . فالقت جدتي بتلك الفطيرة المشوهة على الطاولة ، فتراقصت الصحون وعلا ضجيج صاحب ...

- هل رأيتما ما جرى . كل ذلك بسببكما . اخذكما الشيطان !

فالقت امي بنفسها عليها ، واخذت تعانقها بعد ان استعادت مرحها وهدوءها ورجتها ان تنسى ما جرى ... بينما اخذ جدي يتطلع حوله منهكاً متفضن الوجه ، وهو ياخذ مكانه الى المائدة ويربط منديله حول عنقه ، ويتأمل مشمئزاً بعينين منتفختين من الشمس ويدمدم :

- حسناً لننس ذلك . فقد اكلنا من قبل فطائر لذيذة . إن الله مقتر بعض الشيء ، مقابل دقائق من السعادة ياخذ سنوات من الشقاء ولا يعترف بالفائدة ... اجلسي يا فاركا ... وانسي ما جرى !

كان يبدو كأن مساً من الهوس قد انتابه ... بقي يتكلم طوال الغداء عن الله ، وعن آهاب « الكافر » وعن المصائب الشداد التي يتحملها الأب . فقاطعته جدتي محتدة :

- هيا تناول طعامك . ولا تتكلم كثيراً !

فضحكت امي وعلت البسمة بحياها ...

واخذت تربت على كتفي وهي تسألني :  
- حسناً . هل آسفت كثيراً على ما وقع منذ لحظة ؟  
- كلام آسف ! بيد انني احس الآن بالضيق والقلق . ولا استطيع إدراك  
ما وقع ...

لقد اطالوا في جلستهم الى طاولة الطعام . كما جرت العادة أيام الاحاد  
والأعياد ، حتى شعرت بالملل بضنيني ... ولم استطع ان اتصور ان هؤلاء  
الجماعة هم أنفسهم الذين كانوا لساعة مضت يصرخون في وجوه بعضهم يستشيطنون  
غضباً . وهم على استعداد للقتال في أي لحظة ... ولم استطع أن أصدق انهم  
كانوا يذهبون الى حد الفعل الجدي في اقوالهم وان كلفهم ذلك بعض التعب ...  
لقد اصبحت معتاداً على صراخهم ، ونحيبهم ، وذلك الشجار الذي لا يفتأ أن  
يتكرر ، كي يعود فيختفي بسرعة فائقة ، حتى اصبحت غير مبالٍ بما يحدث  
ويقع لهم .

لقد فهمت بعد فترة طويلة ، ان الروسيين الذين اجبرتهم الحياة على العيش  
فقراء كانوا يبحثون عن شيء يتلهون به حتى وان كان الحزن بعينه ، فيلهون  
به كالأطفال ، ولا يشعرون بالحنج من بلائهم إلا فيما ندر ...  
وعندما تكون الحياة رتيبة ، يصبح الألم نفسه عيداً يرحب به ، حتى ان  
الحريق يصبح تسلية لذيدة . حتى ان الجراح البسيطة ، في الوجه الخالي من أي  
معنى يمسي زينة جميلة رائعة ...



بعد ذلك الحادث ، أمست أُمي قوية ، وعماداً للبيت كله ، بينما استسلم جدي الى صمت عميق ، وقواضع زائد ، حتى غداً غير ذلك الشخص الذي اعهدته ...

كان يقبع طوال النهار في الطابق العلوي يطالع كتاباً غامضاً يدعى « مذكرات ابي » ، ولم يعد يترك البيت مطلقاً ... كان يحتفظ بذلك الكتاب في صندوقه الضخم .. وكثيراً ما شاهدته يغسل يديه قبل تناوله من موضعه . كان الكتاب من القياس الصغير الحجم ذا سماكة كبيرة ، وكان غلافه من الجلد اصفر اللون ، وقد دون على صفحته الزرقاء الاولى هذه العبارة ببحر شاحب اللون : « الى النبيل فاسيلي كاشيرين مع اخلص التحيات وأصدق الشكر ... » وكان يذيل هذه العبارة اسم غريب ينتهي بصورة جميلة تمثل عصفوراً يطير ... كان جدي يبذل عناية فائقة وهو يقلب الغلاف الجلدي السميك ، ويلبس نظارتيه الفضيتين ، ويتطلع مدة طويلة الى تلك العبارة ، وهو يلامس انفه محاولاً من إصلاح وضع نظارتيه . وقد سألته عدة مرات عن ماهية ذلك الكتاب . كان يجيب بشكل مثير :

— ليس من داعٍ لك لمعرفة الآن . تمهل قليلاً ، وعندما اموت ، سأتركه لك مع معطفي كذالك .

وغدا يقتضب في حديثه مع والدتي ، ولا يحدثها الا بصوت عذب لطيف ، ويرهف السمع اذا ما تحدثت إليه ، وهو يدمدم بصوت مبهم مشيراً بيده ، غامزاً بعينه كما كان يفعل العم بيوتر تماماً ..

كانت صناديقه تعج بالثياب الغريبة : قمصان حريرية مزركشة ، واثواب من البروكار طويلة من غير اكمام قد طرزت بالفضة ، وصدار من الفرو والساتان ، وقبعات مزدانة باللؤلؤ ، وعقود من الاحجار الكريمة مختلفة الالوان . وكان يحمل ذلك الصندوق الى حجرة والدتي ، ويلقي به على الطاولة ويقول ، عندما يشاهد اندهاش والدتي بالحلى :

— لقد كانت الثياب اتمن واجمل في ايام صباي منها اليوم ! اما الناس فكانوا يمشون ببساطة متناهية ويسودهم الحب والوثام اكثر منهم في هذه الايام . واعتقد ان ذلك الزمن ولى الى غير رجعة ، فجرني هذه الاشياء ، وانتهى ما يعجبك منها ..

وذات مرة ، نزلت امي عند رغبته ، وذهبت الى الغرفة المجاورة وارتدت ثوباً طويلاً ضارباً الى السواد ، وقد زخرف بخيوط من الذهب ، واعتمرت غطاء مزيناً باللازلي .. قالت وهي تنحني لجدي :

.. ايعجبك هذا ، يا صاحب السعادة ؟

فاشرق وجه جدي وهو يلهث ، واخذ يدور حولها هازماً بذراعيه ، يدمدم بارتباك كمن يحلم :

— آه ، فارفارا ! لو كنت غنية ، وكان هناك اناش اشراف فيما حولنا !

كانت والدتي تشغل غرفتين اماميتين في المنزل ، حيث انها كانت تستقبل العديد من الزوار . وكان اكثر الزوار تردداً علينا الاخوان مكسيموف . كان احدهما يدعى بيوتر ، ضابط قومي البنية ، بهي الطلعة ، ذو لحية عريضة شقراء وعينين زرقاوين ، وقد جلدني جدي مرة بحضوره يوم بصقت على رأس ذلك الأصلع . اما الآخر فيدهى يفجيني ، شاب طويل القامة فارغها ، صاحب الوجه

وله ساقين طويلتين ، ولحية سوداء ، وكان دائماً يرتدي بذلة خضراء ذهبية  
الازرار، ومن عادته ان يلقي بشعره الطويل من فوق جبهته العالية الى الورا ،  
وهو يبتسم بتواضع مكشوف، ثم يأخذ يروي حديثاً ما بصوت خافت «مبحوح»  
يفتحة دائماً بهذه العبارة :

– أنت ترين ، يخيل إليّ ان ..

فترهف والدتي سمعها الى حديثه ، وقد اغلقت عينيها نصف اغلاقاً، وكانت  
غالباً ما تقاطعه ضاحكة :

– انت ما زلت طفلاً يا يفجيني فاسيليفيتش ، وارجو ان تغفر لي  
قولي هذا ..

فيثني الضابط على قولها ، ضارباً على ركبته زيادة في التأكيد :

– اجل ! طفل ! إنه لكذلك !

انقضت عطلة الميلاد في حفل صاحب ، فكان الضيوف يجتمعون عندنا كل  
ليلة وقد تزوا بازهي الثياب ، كانت ثياب امي اجملها ، ثم ينطلقون من الدار  
للقيام ببعض الزيارات ..

كان المنزل ، كلما تدافع ذلك الجمع النشوان من البوابة ، يبدو كأنه يغوص  
في الارض، ويسبح في لجة من الكآبة والسامة . ويفرق في صمت عميق خائق ..  
وبعدها كانت جدتي تجوب الغرف معيدة كل شيء الى سابق ترتيبه ، بينما يقبع  
جدي مديراً ظهره الى قرميد الموقد يتدفاً وهو يدمدم بينه وبين نفسه :  
... حسناً ، سريّ إلام يستقودها هذه الطريق التي تسلكها الآن .

وما ان انتهت فترة عيد الميلاد حتى قادتي والدتي مع ساشا ، ابن الخال  
ميخائيل إلى المدرسة .. وكان هذا الاخير قد تزوج للمرة الثانية ، وما ان مضى  
على زواجه عدة ايام حتى اخذ ساشا ينال عذاباً مرأ من خالته التي كرمته  
بسرعة فائقة ، ونزولاً عند رغبة جدتي ، اقترح جدي ان يتكفل بتربيته .  
وداومنا مدة شهر واحد على حضور الدروس . ولست اذكر ، من كل ما تلقنته

خلال تلك الفترة ، إلا شيئاً واحداً ، وهو انه لا يكفي عندما اسأل عن اسمي ان اجيب « بشكوف » .. بل ينبغي أن اقول : « إسمي هو بشكوف » .  
وكذلك انني لا استطيع ان اخاطب المعلم هكذا : « لا تصرخ في وجهي على هذا النحو ، يا استاذ . فانا لا ارهبك ! .. »

وسرعان ما كرهت المدرسة .. بينما ازداد بها ابن خالي شغفاً ، ورافق عدداً لا بأس به من الطلاب . بيد انه ذات يوم غفا اثناء الدرس وشرع يصرخ في نومه : « كلا الأُر .. يد .. » .. وعندما استيقظ استأذن بمغادرة الصف ، بيد ان الطلاب قد هزأوا منه بقسوة .. ونحن في طريقنا الى المدرسة صباح اليوم التالي توقف عن المسير ، بعد ان تجاوزنا ساحة سينابا ، وقال لي :  
- ستكمل الطريق من دوني ، فاني لست بذهاب هذا اليوم إلى المدرسة ،  
انني افضل القيام بنزهة ..

وجلس القرفصاء ، ووارى كتبه في الثلج ، وانطلق .. كنا في كانون الثاني والشمس مشرقة ، وقد التمعت الارض بما اضفت عليها اشعتها وضياءها .. وانتابني شعور بالغيرة من ابن خالي ، بيد انني صررت على اسناني واكملت طريقي باتجاه المدرسة حياً بأمي .. وكان ان سرقت كتب ساشا المدفونة في الثلج ، فاتخذها ذريعة لعدم ذهابه الى المدرسة في اليوم التالي .. وفي اليوم الثالث ، اكتشف جدي تصرفات ساشا وسلوكه الغريب .

وقدم كلاًنا للتحقيق : فقد جلس جدي وجدتي وامي خلف الطاولة في المطبخ يتولون التحقيق . وما زلت اذكر ، حتى الآن ، اجوبة ساشا السخيفة على اسئلة جدي :

... لماذا تمنعت عن الذهاب إلى المدرسة ؟

... لقد نسيت مكانها .

... نسيت ؟

- أجل ، وبقيت ابحت عنها وقتاً طويلاً ..
- كان ينبغي ان ترافق الكسي . فهو يعرف الطريق .
- لقد افتقدت الكسي .
- افتقدت الكسي ؟
- أجل .

- وكيف يعقل ذلك ؟  
 غرق ساشا لحظة في التفكير ، ثم قال متنهداً :  
 - لقد حدثت عاصفة ثلجية فلم اعد اقدر على رؤية شيء مطلقاً .  
 فقهقه الجميع . لان الطقس كان بديعاً صافياً مشمساً ذلك اليوم . حتى ان  
 ساشا لم يستطع ان يجيب عن ثغره ابتسامة خفيفة . بيد ان جدي صرّ على  
 أسنانه وقال بمكر :

- الم تستطع الامساك بيده أو حزامه ؟  
 - لقد فعلت ، بيد ان الرياح عصفت بي وافتقدتني اياه ..  
 كان يتكلم بلهجة فاقد الامل . فكرهت ذلك الكذب الذي لا فائدة منه ،  
 ولم أستطع أن أفهم معنى لعناده .

وبعد ان اخذنا نصيبنا من الجلد ، استأجروا لنا أحد عمال المطافىء ، وهو  
 شيخ ذو ساعدين ملتويتين ، ليرافقنا الى المدرسة . وقد اوكلت اليه مهمة  
 مرافقتنا إلى المدرسة والحذر من ان يضل ساشا الطريق او يحميد عنها . لكن  
 عبثاً ، فما ان بلغ خندق الساحة في اليوم التالي حتى نزع ابن خالي احد حذائيه  
 والقى به عن يساره . ثم نزع الحذاء الثاني والقى به عن يمينه ، واخذ يخب في  
 الساحة يجوربيه .. وعدا الشيخ محاولاً جمع الحذاءين ، ثم قفل عائداً بي إلى الدار  
 وقد ارتجفت منه الاوصال وبدا الرعب عليه ..  
 بقيت جدتي وامي . طوال ذلك النهار ، تبحثان في البلدة عن الهارب حتى



عثرنا عليه . قبيل المساء . في حانة شيركوف بالقرب من الدير ، يسرّي عن الجمهور برقصاته .. ورجعنا به إلى الدار . بيد انها لم ينزلا به عقاباً لشدة القلق والاضطراب اللذين اثارهما فيها صمته العنيد . وتعدد بالقرب مني في السقيفة . يضرب بقدمه الفضاء وهو يقول بهدوء :

- خالتي لا تحبني . وجدتي كذلك ، فلما بقائي هنا ؟ سأتعرف إلى مكان اللصوص من جدتي ، واهرب اليهم .. وعندئذ ستعلمون كل شيء .. لنفرمّ معاً ، ما رأيك ؟

كان الهرب بالنسبة اليّ مستحيلاً ، فقد كنت ارمي هدفاً في ذلك الحين ، وارنو إلى غاية اخرى في الحياة . وهي ان اصبح ضابطاً ذا لحة كبيرة شقراء . الامر الذي يجبرني على متابعة دروسي ، والمواظبة على المدرسة . وعندما شرحت لابن خالي المشروع ، غرق في تأمل عميق ، ثم اجاب وقد رأى فكرتي عين الصواب :

- حسناً ! فعندما تصبح ضابطاً اكون انا قد اصبحت زعيماً للصوص ، وينبغي عليك ان تمسك بي .. وسيضطر احدنا إلى قتل الآخر . او اخذه اسيراً ، وانا لن اقتلك مطلقاً مهما كلف الامر ..  
- ولا انا كذلك .  
وعلى هذا تم قرارنا .

\* \* \*

في الغداة عندما استيقظت وجدت جسمي قد امتلا لطخاً حمراء صغيرة .. إنه الجدري ! ..

نقلت إلى غرفة في الطابق العلوي منفردة ، حيث قبعت هناك زمناً طويلاً مضطجماً في سرير وقد قيدت اليه ذراعي وساقاي بربطات عريضة ، لا اعني ما يجري حولي . وكانت جدتي الانسان الوحيد الذي يعودني ، تناولني الطعام

بالمعلقة كأنني طفل صغير . وتحكي لي أقاصيص وخرافات لا تنضب .. وذات يوم ، وقد تحسنت حالتي وامسيت في طريق الشفاء ، فقد فكت اللفائف والرباطات عن ساقى وذراعي ، وان بقيت اكمام ستري مربوطة بشكل يمنعني من حك وجهي باصابعي ، تأخرت جدتي عن زيارتي كعادتها ، فتضايقت لذلك وتصورت أشياء عدة .. وفجأة تصورتها ممددة على ارض الحجره التي يلاها الغبار . وقد دس رأسها في التراب ، وتباعد ذراعاها . وحز عنقها من الوريد إلى الوريد تقريباً كمنق العم بيوتر ، وعيناها الكبيرتان الخضراوان تدوران في محجريها من غير توقف .

قفزت من السرير ، وهشمت زجاج النافذة بقدمي وكتفي . ورميت بنفسي على الثلج تحت النافذة .. في ذلك المساء كانت امي تستقبل بعض الزوار ، مما حجب عن اسماع أي إنسان صوت تحطم الزجاج .. وبقيت مدة طويلة ممدداً على الثلج من غير ان يعلم احد بأمرى ، ولم يكسر أي عظم ، وان وهن عظم كتفي ، في حين نالني الزجاج في مواضع كثيرة من جسدي يجروح . كما أصبحت عاجزاً عن تحريك ساقى ، بقيت على اثر هذا الحادث مضطجعاً في غرفتي مدة ثلاثة اشهر من غير ان آتي حركة . أرهف السمع إلى اصطخاب الحياة في الدار ، وإلى صوت الابواب تصطحق من غير انقطاع ، وغدو الناس ورواحهم .

كانت الرياح تزجر ، وعواصف الثلج تهب عاتية فوق السطوح ثائرة امام باب الطابق العلوي ، تمصف بالنوافذ بشدة ، تخترق المدخنة صارخة حزينة . وفي النهار كنت استمع إلى نعيب الغريان ، اما في الليالي الهادئة فكانت اصوات الذئاب المرعبة تتناهى الي عبر الحقول البعيدة ، ونفسي تنضح بتلك الموسيقى المرعبة ..

ومن بعدها اتى الربيع ، خجولاً هادئاً ، وطرق نافذتي ببشر وفرح ، واخذت الهرتموه على السور وتلمب ، وانغام ربيعية حلوة تنساب عبر النافذة ،

من تكسير الجليد ، وقد حرج الثلوج على السطوح ، إلى رنين أجراس العربات  
التي ازدادت بنزوح الشتاء ..

ولن تتوانى جدتي عن زيارتي لحظة واحدة .. واخذت في المدة الاخيرة  
تكثرت من شرب الفودكا ، حتى انها اخذت في حمل ابريق الشاي معها مخفية  
اياها تحت سريري ، وهي تحذرنى بقولها :

- إياك ان تعلم جدك الشيطان بهذا ، ايها العصفور الصغير !  
- لماذا تشربين الخمر ؟

- صه ، ستعرف ذلك عندما تكبر ..

وبعدها تأخذ جرعة من الابريق . ثم تمسح فمها بكم قميصها ، وتلتفت  
نحوي مبتسمة :

- حسناً ايها الفتى اللطيف ، عن كنا نتحدث البارحة ؟  
- عن والدي .

- واين توقفنا عن الكلام ؟

وعندما اخبرها ، يأخذ حديثها الموزون ينساب طوال ساعات ..  
فقد كانت البادئة في الحديث عن والدي من غير ان اسألها ، فذات يوم  
كانت منسوجة القوي ، هادئة ، حزينة :

- شاهدت في احلامي ليلة البارحة اباك . لقد كان ينبعث من فمه صفير  
لطيف . وهو يجوب الحقول ، وقد حمل في يده عصاً من شجر الجوز ، يعدو  
خلفه كلب مفصوم الجسم وقد تدلى لسانه الوردي حتى بلغ الارض .. إن  
مكسب سافاتيفيتش ما زال يعودني كثيراً في هذه الايام في احلامي . وأنا جاهلة  
سبب ذلك .. أعتقد ان روحه متألة هائمة ..

وبقيت خلال أسابيع متتالية تحدثني عن والدي فتحكي لي عنه أقاصيص ،  
تبلغ في اهميتها ، باقي قصصها الاخرى . كان أبي إنناً جندي ترفع إلى رتبة

ضابط بعد خدمة طويلة ، لكنه بتعسفه لمرؤوسيه نفي إلى سيبريا . وهناك في  
مجاهل سيبريا ولد أبي ، فعاش حياه عسيرة شاقة .. واخذ ، ولم يزل طفلاً ، في  
محاولة الهرب من المنزل .. وذات يوم أفلت والده كلباً من كلاب الصيد ، وطفق  
يبحث عنه في الغابات كأنه أرنب هارب .. وعندما وجده ضربه ضرباً مبرحاً  
حتى أتى الجيران واختطفوه منه وخبأوه في منزلهم .. فسألت :

– هل يجلدون الصغار دائماً ؟

فأجابت بسكينة :

– دائماً !

ولم يتجاوز أبي التاسعة حتى توفي والده وكانت والدته قد توفيت وهو لم  
يزل طفلاً .. فتبناه عرابه الذي كان يعمل نجاراً ، والحقه بمعمله في مدينة برم  
واخذ يعلمه مهنة النجارة ، بيد ان والدي سرعان ما لاذ بالهرب . شرع في  
باديء الامر ، يجر العميان في الطرقات ، حتى وفد اخيراً إلى نيجني نوفجورود ،  
وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، وأخذ يعمل ، عند متعهد للمراكب  
يدعى كولشين ، نجاراً . وما أن بلغ العشرين حتى أصبح مشهوراً في صنع  
الغرف الخشبية وتنجيد المفروشات .. وكان المصنع الذي يعمل فيه نجاراً يجاور  
منزل جدي « والد أمي » في شارع كوفاليسكا ..  
فقهقهت جدتي وهي تقول :

-- سور منخفض ، وساقان رشيقان .. وهكذا فقد كنا، انا وفاريا، نقطف  
توت العليق في الحديقة . عندما تطلعت إلى السور وشاهدت والدك يقفز من  
فوقه بشكل أفقدني صوابي . واتي في اتجاهنا يتخايل في مشيته بين أشجار  
التفاح ، فتى مارداً يرتدي قميصاً ابيض اللون ، وسروالاً مقلماً ، حافي القدمين  
عاري الرأس ، يربط شعره الطويل إلى الخلف بربطة من الجلد . وماذا تعتقده  
اتي يفعل ؟ أتى يطلب يد أمك ! وكنت قد رأيت مرات عدة من قبل يتخطر

تحت النافذة . فأقول في نفسي كلما شاهدته : « ما ابداع هذا الفتى ! » وهكذا يمت نحوه عندما -جاءني، وقلت : « لماذا اخطأت السراط المستقيم ، يا عزيزي ؟ » . فقال ، وقد ركع على ركبتيه : « اقولنا إيفانوفنا ، هأنذا ، وهما هي ذي نفسي بكليتها تجشو عند قدميك ، وهما هي فاريا ، حبة بالمسيح ، ساعدينا على الزواج ! » . فعلا ، فهذا ليس بالامر السهل ! فبغت<sup>٤</sup> ، ولم اعد قادرة على الكلام .

« تلفت<sup>٥</sup> ، فشاهدت أمك الماكرة متوارية خلف شجرة تفاح ، وقد تورد وجهها ، وهي تشير بيديها . وقد طفحت عيناها بالدموع . قلت لها : « آه ، أيتها الغبية ! أيها المصفوران ما هذا الذي أتيتناه ؟ هل فقدت إحساسك يا فارفارا ؟ وأنت أيها الشاب ، هل فكرت فيما تفعل ؟ أفلست ترنو إلى أكثر ما في استطاعتك مناله ؟ » . كان جدك غنيا في تلك الايام ، إذ أنت امواله لم تكن قد قسمت بعد بين اولاده ، كان يملك اربعة منازل . وقدراً من المال لا يحصى . وكان أتباعه يكونون له قدراً عظيماً من الاحترام ، علاوة على ذلك فقد منحوه ، بزة وقبعة مزخرفتين بالقصب إحتفالاً بالعام التاسع لترأسه المعمل . بيد أنه كان متمجعراً عظيماً الكبرياء ، في تلك الآونة ! وهكذا فقد قلت ما ينبغي قوله ، وكنت مضطربة طوال الوقت ، والحسرة تمزق قلبي أسمى عليها . فقد بدا اليأس على محياها قاتلاً . وعند ذلك نهض والدك وقال : « اذني عالم أن فاسيلي فاسيليفيتش لن يزوجني فاريا بارادته ، لأجل ذلك لا بد لي من أن اخطفها إذن ، وهما نحن في أمس الحاجة إلى مساعدتك » . . مساعدي تصور ذلك ! لقد طردته ، ورفعت يدي قاصدة ضربه ، بيد انه لم يتحرك من مكانه . قال : « تستطيع رمي بالحجارة إن أردت ، بيد انه ينبغي أن تساعدني ! فأنا لست براجع عن رأيي ! » وعندئذ تقدمت فارفارا نحوه ، واضعة يدها على كتفه ، وقالت : « لقد أصبحنا زوجاً وامرأة منذ زمن طويل ، منذ شهر ايار . . وكل

ما نحن بحاجة اليه هو الاكليل فقط .. عند ذلك تهاويت على الارض كأنني  
تلقيت ضربة قاضية ! آه ، يا الهي ..  
وتبايل جسد جدتي من الضحك ، ومسحت الدموع من مقلتيها ، واردفت  
وهي تنهد بسعادة :

— لم تول صغيراً بعد لتدرك الفرق بين معاشرة رجل وامرأة اعتبارية وبين  
الزواج . انما يجب ان تعلم أنه امر فضيع ان تلد فتاة من غير زواج . ينبغي ان  
تتذكر ذلك عندما تصبح شاباً فلا تزجر الفتيات في مثل هذه الامور ، تلك  
خطيئة لا تغتفر ، وتصبح مسؤولاً عنها ، لانك ستسبب التعاسة والشقاء للفتاة ،  
ويصبح الطفل من غير اب شرعي ، ينبغي ان لا تنسى ذلك مطلقاً ! ينبغي  
ان ترحم تلك المرأة ، وان تحبها من كل جوارحك ، ليس لمجرد المتعة . وهذا  
درس كبير إياك أن تنساه .

وسرحت لحظة في تأملاتها قبل ان تتالك نفسها . وتتابع قصتها من جديد :  
— إذن ماذا ينبغي ان افعله في مثل هذه الحال ؟ ضربت مكسيم على رأسه  
وجررت فاريا من جدائلها . بيد ان والدك افضى اليّ بشيء عظيم على جانبا  
كبير من الحس السليم ا « ان الضرب لا يصلح المسألة ا » . وازافت والدتك :  
« ينبغي ان توجدي لنا مخرجاً لهذه المشكلة ، ثم تضربيننا ، فقلت له : « هل عندك  
شيء من المال ؟ » . فأجاب : « عندي الشيء القليل منه . بيد اني قد ابتعت  
به خاتماً لفاريا » . فسألته : « هل يساوي ثلاثة روبلات ؟ » . فأجاب : « كلا  
بل مائة روبل تقريباً » .. وكانت الاشياء في تلك الآونة بخسة جداً ، المال  
يكلف غالياً . تأملت والدك ووالدتك وهما يقفان امامي ، انها صبيان صغيران  
لا اكثر ، وابلهان كذلك . قالت امك : « لقد دسست الخاتم تحت احد الالواح  
حتى لا ترينه . والآن نقدر ان نبيعه » . إنها طفلان ، اليس كذلك ؟ حسناً ،  
لقد قررنا ان يتم الزواج خلال اسبوع ، وكان عليّ ان اتفق مع الكاهن على ذلك

آه لكم بكيت آنذاك . وانفطر قلبي وارنجف خوفاً من جدك ، بيد انه كان يحب فاريا ويعطف عليها ..

« كان هناك عدو واحد لأبيك ، رجل حقود شرير من رؤساء العمال . بقي مدة طويلة يراقبها فاستطاع تخمين كل شيء . ففي ذات يوم ألبست ابنتي الوحيدة أبي ما عندي من ثياب ، وانطلقت بها من البوابة . وخلف احد المنعطفات ، كانت ترويكاً تنتظر مركبتها ، وبعث مكسيم بصفير خافت من بين شفثيه .. وها هما يذهبان .. رجعت أدراجي إلى المنزل ، وقد انسابت دموعي على خدي .. واذ بذلك الوغد اللثيم يدنو مني بمكر قائلاً : « انني رجل طيب القلب ، ولا ابغي تهديم سعادتهما . انما اطلب منك اعطائي خمسين روبلا فقط يا اكوлина إيفانوفنا ! » . كنت لا املك شيئاً ، فانا اكره المال ولا ادخر منه شيئاً ، وأجبت ببلاهة : « انني لا املك شيئاً من المال ، ولن أعطيك شيئاً ! » فأجاب : « إذن عديني بان تدفعين لي » . فصرخت : « أعدك ؟ ومن اين آتي بالمال ان وعدتك ؟ » . فأجاب : « يصعب عليك أن تحتلبيه من زوج ثري بنص به ؟ » . يا لي من غبية ! كان ينبغي ان اجره إلى نقاش طويل واحتمال عليه ، بيد انني بدلاً من ذلك بصقت في وجهه ، ومضيت في حال سيئلي . فتبعني حتى الساحة ، وبالفصيحة التي أثارها !

واغمضت عينيها ، بينما علت شفثيها ابتسامة شاحبة :  
« وحتى هذا اليوم ، انني كلما تذكرت ما تلا ذلك حماقة ولؤم ، ترتعد فرائصي .. اخذ جدك يهدر كوحش مفقرس كاسر . فقد كانت صفقة بالنسبة إليه . فقد كان يرنو إلى فارفارا ويفتنخر بأنه سيزوجها من سيد نبيل ، والييك النبيل الذي انتقته ؟ بيد ان العذراء الطاهرة تعلم اكثر منا من هم الاشخاص الذين يفهمون بعضهم بعضاً .. وشرع جدك يركض في الساحة وكأن النيران تلتهم جسده . ينادي ياكوف ، وميخائيل ، والسائس كلیم ، ورئيس العمال

اللئيم ، الذي شاهدته يحمل عصاة .. في حين تناول ميخائيل بندقيته .. كانت خيولنا جسورة ، والعربة خفيفة سريعة ، فقلت في نفسي : « سوف يلحقون بهما من غير شك ! » .

« بيد ان ملاك فارفارا الحارس الهمني فجأة ، فأخذت سكيناً وحزرت به الحبل .. وتوقعت أن ينقطع في الطريق . وهكذا كان .. فقد خارت مقاومة الحبل . وكاد يقضي على جدك وميخائيل وكليم . واضطروا إلى التوقف بعض الوقت لاصلاح ما حدث . وما أن بلغوا الكنيسة اخيراً حتى كانت فاريا ومكسيم واقفين أمام بابها ، وقد تم زواجهما .. شكراً لله !

عند ذلك التقى رجالنا بانفسهم على مكسيم ، بيد إنه كان مقداماً قوي البنية ، وقلائل من الرجال يتمتعون بالقوة التي يتمتع بها مكسيم .. وهكذا فقد أطاح بميخائيل والقاه أرضاً وأصابه برضوض في ذراعه ، وأتبع كليم به سريعاً ، لذلك وجل منه جدك وياكوف ورئيس العمال ، ولم يجدوا الشجاعة الكافية على الدنو منه . وبقي مكسيم متالكاً أعصابه ، على الرغم من آجام غضبه .. فتوجه إلى جدك قائلاً : « التقى بهذه العصاة هناك ! فأنا رجل احب السلام ، وما حصلت عليه كان نعمة من الله ، وليس لأي إنسان حق في أخذه مني وهذا هو ما أطلبه منكم ! »

ورجع رجالنا أدراجهم .. جلس جدك مكتئباً وصرخ : « وداعاً يا فارفارا ! فأنت لست إبنتي بعد الآن . وليس لي رغبة في رؤيتك بمسد الآن . فسيان عندي رؤيتك حية أم ميتة » وعاد إلى المنزل حيث أمطرتني بوابل من السباب والضرب . بيد انني ركنت إلى الصمت ولم أقل اية كلمة .

« كنت أعلم ان كل ذلك يمضي سريعاً ، وان ما ينبغي أن يكون سيكون . قال لي « إسمعي يا أكوлина ، يجب أن تعلمي أن ابنتك ذهبت إلى الابد ، كأنه لم يكن لك ابنة مطلقاً » أتفهمين ؟ . أما انا فكنت دائماً أفكر ببني وبين نفسي :



« أمي الاحمر الرأس ، إغرق في الكذب ! لا بأس عليك ، إنك الآن في ثوب  
نفسية من الغضب ، لكن ذلك لن يطول .. فالغضب كالجليد ، لا تلمحه الشمس  
إلا ويذوي ! .. »

كنت أصفي اليها لاهث الانفاس .. فقد كان في روايتها أشياء عدة تروعي ،  
لان جدي قد روى لي قصة زواج أمي بصورة مختلفة جداً عن رواية جدي ..  
لقد عارض الزواج فعلاً حسب ادعائه ، ولم يسمح لأمي أن تأتي المنزل بعد  
ذلك ، لكن هذا الزواج كما قال لي ، لم يكن سرياً مطلقاً ، بل حضره بنفسه  
وترددت وانا احاول إيضاح ذلك من جدي ، لكنني فضلت حكايتها التي كانت  
أكثر روعة وخيالاً ..

وأخذت تهتز في مقعدها ، وهي تتحدث وتبالغ في تمثيل المشهد بحركات  
مثيرة عندما تبلغ مشهداً مخزناً أو مرعباً من حكاياتها .. وفي اغلب الاحيان  
كانت تغمض عينيها ، ويرتجف حاجباها ، بينما تملو محياها إبتسامة فرحة ،  
وكنت أرتي لتلك الطريقة الاعتبارية التي تعفو فيها عن كل شيء ..

« لقد بقيت مدة اسبوعين أو ما يزيد لا اعلم شيئاً عن فاريا ومكسيم ومحل  
إقامتهما . ولكنها أرسلت إلي بطفل صغير يلعبني بكان إقامتها . وعندما خرجت  
نهار السبت التالي بحجة الذهاب إلى الكنيسة لحضور قداس الغروب ، مضيت  
اليها بدلاً من الذهاب إلى الكنيسة .. وفي جناح صغير من دار سيوتنسكي  
يقطنه عدد من العمسال ، كانا يقيمان .. كانت القذارة تملأ الدار ، تعج بالحركة  
والضوضاء بيد انهما لم يعيرا بالأ لذلك ، وبقيتا يلموان ويمرحان كهبرين سعيدين .  
وابتعت لهما بعض الحوائج من سكر ، وقمح وطحين وشاي وبعض المال سرقته  
من جدك ، بيد ان والدك أبي أن يأخذه ، وقال شاكياً : « نحن متسولان ؟ » .  
واخذت فارارا تلحن نفس النغم : « لماذا احضرت هذه الاشياء يا أماه ؟ » .  
فقلت مغتاظة بلهجة موبخة : « إنني ام بعثها الله إليك أيها الابله ! أما انت

ايتها المجنونة فاني امك الحقيقية اهل سمعت ان شخصاً يستطيع إهانة امه ؟  
فاذا اهانا على الارض مرة ، جعل ام الله في السماء تبكي .. « عند ذلك حملني  
مكسب بين ذراعيه واخذ يلف بي في ارجاء الغرفة فقد كانت قوياً كالوحش ،  
واخذت فارياً تزهو مفتخرة باعتزاز عن « دراهما » ، وكأنها مربية هرمة ..

« وهكذا جرت الامور مدة طويلة .. حتى اصبحت انت على وشك ان  
تطل على الوجود ، وجدك لم يزل معتصماً بالصمت انه انسان شرير ، ولم اتوان  
عن زيارتهما الامر الذي لم يخف عنه ، وان تظاهر بالجهل .. بيد انني كنت  
ادرك ان قلب الاب لن يبقى اصماً .. واتي الوقت المناسب .. كان مساء ليل  
عاصف ، والرياح تضرب النوافذ وتدوي بوحشية ، وقد كنت الى جانب جدك  
والنوم لا يرود اجفاننا .. وفجأة نهضت .. وقلت له : « في هذه الليالي العاصفة  
يرقد الفقراء بتعاسة بينما الاثرياء الذين ترهق الخطيئة ضمائرهم هم اكثر تعاسة ..  
ومن غير انتظار قال جدك : « كيف حالهما؟ » فقلت « لا بأس ، ليست سيئة ! » .  
فسألني : « عن معتقدين انني اسأل ؟ » . قلت : « عن ابنتنا فارفارا ،  
ومكسيم ا ، . فصرخ : « وكيف اعتقدت ذلك ؟ » . فقلت له : « يكفيننا  
مهزلة ! لقد اتى الوقت الذي يجب ان نكف عن ذلك الهراء فهو لا يجلب  
السعادة لاحد ا » . فتنهد طويلاً ثم قال : « ما اخبار ذلك الغشم المجنون ؟  
— يقصد والدك — لقد تزوجت بابل ، اليس كذلك ؟ » . قلت له : « ابله ا ان  
الابله هو الذي لا يعمل ويعيش عالة على الآخرين ، لو القيت نظرة تأملية على  
ولديك ياكوف وميخائيل لوجدتهما وحدهما الابلهان المجنونان ا من يأتي بالمال  
والاشياء هذه الدار ؟ انت وحدك فهل يساعدانك في العمل » . وعند ذلك  
امطرتني بوابل من الشتائم يعلم الله وحده عددها ، وبقيت ساكنة حتى قال اخيراً :  
« كيف خدعت بانسان اجهله ، ولا يدري احد من أين اتى ؟ » . وبقيت  
لائذة بالصمت حتى تعب من حديثه ، عندئذ قلت : « من الافضل ان تذهب  
وتشاهد بنفسك الحياة التي يعيشانها حلوة رائحة ا » . فقال : « ذلك شرف

لا يستحقانه ، فليجيئا هما إلى هنا ا . . وعند ذلك طفت ابكي من الفرح والغبطة حين تلفظ بذلك ، فيما راح هو يحل ضفائر شعري وهو يدمدم :  
« كفاك نجيباً ، ابتها المعجوز الحقاء ا اتمعدين انني بدون قلب ؟ » . .

وهكذا أتيا لزيارتنا ، والدك والدتك ، في عيد الفصح . . كنا جميلين جداً وانيقين . ووقف مكسيم تجاه جدك فلم يبلغ هذا الاخير اكثر من كتفه . قال له مكسيم : « لانظن ، يا فاسيلي فاسيليفيتش ، أنني اتيت مطالباً بالمر . لا أبدأ ا بل اتيت اقدم احتراماتي الحارة لوالد زوجتي فقط . فاغضب جدك لذلك ، وقال : « ايها الوحش الكبير ا كفانا هزاراً فقد حان الوقت لتأتي الى دارنا وتقطن معنا » فمعد مكسيم ما بين حاجبيه وقال : « هذا يتعلق بفاريا ، وسأعمل على اسعادها فكل شيء يرضيها يرضيني » .

لقد سكننا في الجناح المطل على الحديقة ، وهناك ولدت انت ، عند الهجير . . وعندما عاد والدك لتناول طعام الغداء ، واذا بك تطل عليه فكاد يفقد صوابه من السعادة والفرح ا وكاد يقتل والدتك بمداعباته . . ثم حملني على كتفه ، وانطلق بي عبر الساحة لأخبر جدك بمجيء حفيد آخر له . . ففرق جدك بالضحك ، وقال : « يا لك من شيطان يا مكسيم ؟ » .

« وقد كره خالاك مكسيم كثيراً لأنه كان فطناً ، سليط اللسان ، ماهراً في اكتشاف الإلعيب والحيل . . وفي يوم عاصف بينما كان مكسيم وخاليك عائدون من بعض الزيارات ، أقنعوا والدك بالذهاب الى بحيرة دو كوف بحجة انهم يريدون التزلج هناك ، ولكنهم ما ان بلغوا البحيرة حتى القوبه فيها . . » .  
— ما الذي يجعل خالي شريرين بهذا الشكل ؟  
فجأبت جدتي بلهجة صامته هادئة .

— انها ليسا بشريرين ، انها بكل بساطة ابلهان . . لقد القيا به في الحفرة اذن بيد انه طفا على وجه الماء وتمسك باطراف الجليد ، عند ذلك شرعا

يدوسان على اصابع يديه بأحذيتيهما ومن حسن حظهم انه كان صاحياً بينما كانا  
ثلين .. وبعون الله تدبر امره وبقي في وسط البركة لا يطفو غير رأسه كي يتنفس  
بينما شرعا هما يرميانه بالجليد من غير ان يصيباه ، واخيراً تركاه ومضيا ظناً  
منهما بأنه سيفرق . ونجا اخيراً من البركة وانطلق الى مركز الشرطة وكان  
رئيسها يعرفه كما يعرف افراد الاسرة جميعاً فسأله عما جرى له .. فلم يخبره بما  
حدث فعلاً بل قال له : « لقد ذهبت الى البحيرة فلما حيث سقطت هناك من  
خلال الحفرة » . بيد ان رئيس الشرطة ادرك أنه يكذب فهو يعرف تماماً أنه  
لا يشرب .. ودلوكوا له جسمه بالفودكا هناك في الحفر ودثروه باغطية جافة ثم  
اتوا به الى المنزل .. ولم يكن ياكوف او ميخائيل قد رجعا بعد الى الدار ..  
كان ازرق اللون . مهشم الاصابع ، والدم يسيل منها ، وقد شاب شعره وغدا  
ابيض اللون .. فصرخت فارفارا .

— ما الذي فعلاه بك ، يا مكسيم ؟

وشرع رئيس المركز يطرح عليه الاسئلة التي لا تنضب .. بينما رحمت  
اسأول ان اعرف منه الحقيقة بعد ما اوكلت امر المفتش الى فارفارا قال  
هامساً : « امضي واجئي عن ياكوف وميخائيل واعلميهما بن يقولا اننا افترقنا  
عند شارع يامسكاي ، ونبيهما من ان يخلطا الامور ، والا وقعنا في متاعب مع  
الشرطة » .

« فمضيت الى جدك واخبرته بالحقيقة فارتدى ثيابه وهو يرتعد خوفاً ..  
واتجه جدك الى مكسيم وقال له : « شكراً لك يا بني ، لو كانت غيرك في  
مكانك لتصرف بطريقة اخرى . اني ادرك ذلك تماماً . وشكراً لك يا ابنتي اذ  
اتيتني برجل كهذا الى داري ! » .

« وبقي والدك بعد ذلك مدة ثلاثة اسابيع وهو يهذي ويقول : « لنرحل  
الى مدينة اخرى ، يا امه ، انني اكاد اختنق هنا » . وسرعان ما رحل بعد

ذلك الى استراخان حيث كانوا ينتظرون زيارة القصير فطلبوا من والدك ان يشيد لهم قوس نصر . واجمرا على اول مركب بخاري .. كانت الكتابة تخيم يوم الفراق فقد كان فراقاً اليماً قاسياً بالنسبة اليّ وحاول ابوك ان يقنعني بمرافقتهمما ..

كان جدي يدخل الغرفة على حين غرة ويفاجئنا اثناء الحديث فينرؤ الى جدتي ، وينصت لحظة ويدمدم :  
- إكذبي ، إكذبي ..  
وفجأة كان يسألني :  
- أكانت تحتسي الخمره هنا يا ألكسي ؟  
- كلا !

- انت تكذب ، انني الاحظ ذلك من عينيك !  
ويترك الغرفة والشك يخامره .. فتغمزني جدتي بعينها باتجاه جدك الذي يعتمد وتردد دائماً !  
- رافقتك السلامة ، لكن لا ترعبنا  
وذاث يوم وقف في وسط الغرفة ، وقد ركز عينيه في ارض الغرفة وقال :  
- اماء ! ..

... ماذا بك ؟  
- اعملين كيف تجري الامور ؟  
- اجيل اعرفه .  
- وماذا تعتقدن في ذلك ؟  
- إنه القضاء يا ابتاه ! الا تذكر ما قلته لك عن ذلك الـ بد البديع ؟  
- ام ... م ؟  
- حسناً ، يظهر انك على حق .

- بيد انه صعلوك .
- ذلك شيء يخصها وحدها .
- وانطلت جدي . وقد شعرت بمصيبة جديدة :
- عمّ تتكلمان ؟

فقال متأففة وهي تمسك ساقي وتقول :

- انك تود ان تعرف كل شيء اليس كذلك ؟ واذا عرفت كل شيء وانت صغير ماذا يبقى لتعرفه وانت كبير ؟ الحقيقة ان جدك فقد كل شيء .. فقد استلف منه احد النبلاء ، مبلغاً كبيراً من المال يبلغ الآلاف ، وقد افلس ذلك النويل ..

ثم لاذت في صمت عميق مدة طويلة واعتلت كآبة قائمة ثغرها المشرق ..

سألتهما :

- بماذا تفكرين ؟
  - كنت افكر فيما اقص عليك ..
- ونادراً ما كانت تأتي والدتي لزيارتي في الطابق العلوي فاذا فعلت كانت تنفوه بكلمات مضطربة عجلى .. ثم تسرع بالرحيل ..

وفي اغلب الليالي كنت اضطجع في سريري احاول الرقاد بيد ان النوم يأبى ان يزورني ، فأسرح ناظري اراقب السماء والنجوم .. كنت اذهب في خيالي بعيداً فأختلق اقاصيص كئيبة واجمل والدي بطلا لها . كان ابي فيها وحيداً ، يحمل في يده عصاة ، ويمدو في اثره كلب صغير مشعث الشعر ..

\* \* \*



أنا زالمومف الانموزج الحبي لشخصية الام  
( نيلوفنا ) في كتاب ( الأم ) .

ذات مساء وبعد كبوة قصيرة نهضت وقد شعرت ان ساقى قد تحركتنا . فالقيت  
بها على حافة السرير . فاذا بالجمود يعود اليها مرة ثانية ، ولكن ثقى بأنتي  
سأتمكن من السير على قدمي ، ولدت في نفسي غبطة عظيمة مما جعلني أهتف  
عاليا . حاولت الضغط على قدمي عندما وضعتهما على الارض فحاولت النهوض  
بيد انني تعثرت وسقطت ، فأخذت اجر نفسي حتى بلغت الباب حيث هبطت  
السلم زحفاً ، وانا التخيل المفاجئة التي ستدهش الجميع حين يشاهدونني . .

ولم اعد اذكر كيف عثرت على نفسي في أحضان جدتي في حجرة والدتي .  
حيث التفت حوالي انا غرباء بينهم امرأة هرمة ، شحيلة القوام ، مخضرة  
اللون . . تفرمت هذه المرأة بصوت رهيب سيطر على الجو :

— أعطه بعضاً من مربى توت العليق مع الشاي الساخن ، دثريه جيداً  
بالاغطية ، من رأسه حتى اخرص قدميه . .

فسألت مرتبكاً :

— من تكون هذه ؟

فأجاب جدتي بلهجة حادة .

— ستصبح لك جدة اخرى ا

فملا ضحك والدتي ، ودفعت يديني مكسيموف نحوي وهي تقول :

— وهذا سيكون أباً لك ا



واردفت ببعض كلمات سريعة مبهمه ، بينما ضيق مكسيموف من فتحة عينيه ، وانثنى قائلاً :  
- سأقدم لك بعض الوان التصوير .

كانت الانوار تسطع في الغرفة بشكل شديد ، وعلى طاولة في احدى الزوايا يركن شمعدان فضي تذوي فيه شمعات خمس .. كانت وجوه مستديرة كالكعك تطل من خلال النوافذ السوداء . واخذ كل ما يلف بي يموج بشكل غريب بينما اخذت المرأة المخضرة تجمس بأصبعها الباردة ما وراء اذني ، وهي تتمم !

- على كل حال : على كل حال ..

فقلت جدتي :

- لقد غفا ..

وبعد ذلك حملتني نحو الباب ..

والواقع انني لم اغف ، بل اطبقت عيني بكل بساطة ..

قلت لها ، وهي تصعد بي السلم :

- لماذا لم تعلميني ؟

- حسناً ! لا تتكلم الآن ، هل تسمع ؟

- دجالون كلكم .

وعندما مددتني في سريري ، وضعت رأسها تحت الوسائد ، وسبحت في بحر من الدموع ، بينما اخذ جسدها يتشنج بفعل نحيبها وهي ما زالت تقول لي :

- هيا ابك ! ابك قايلاً !

لكن لم يكن لي رغبة في البكاء .. كان الجو في الطابق العلوي بارداً يخيم عليه الظلام ، ومن شدة اضطراري اخذ السرير يهتز ، وخيال تلك المرأة الخضراء يأبى أن يزول من امامي .. فتظاهرت بالنوم ، فذهبت جدتي وخلفتني وحيداً ..

مرت الايام التالية رتيبة ممة .. أما والدتي فقد تركتنا بعد ان تكلمت ،  
فخيم السكون الرهيب على منزلنا .

وفي صباح يوم ، اتى جدي وقد حمل في يده ازميلا ، وشرع يتزح المعجون  
من حول النافذة المزدوجة ، ثم اتت جدتي في إثره وهي تحمل وعاء من الماء وبعض  
التياب المهترئة .. سألت في صوت هامس :

- حسناً إيتها المعجوز !

- ماذا بك ؟

- هل انت سعيدة ؟

فاجابته كما اجابتنى ونحن على السلم

- حسناً ، لا تحدثني الآن هل تسمع ؟

كان لهذه الكلمات معنى خاص ، فهي تستر شيئاً بغيضاً عظيماً يعلمه الجميع ،  
ويتناسونه .. فتحت جدتي النافذة المطلة على الحديقة ، فشلمت بناظري عبر  
الحقول .. كانت العصافير تغرد اجمل الالحان ، وتناهى إلى العرفة رائحة زكية ،  
رائحة التربة المتصاعدة من الارض بعد ذوبان الجليد ، فنهضت محاولاً النزول  
إلى الارض ، بيد ان جدتي نبهتني قائلة

- اياك ان تمشي حافياً !

- انني قاصد إلى الحديقة .

- تريث حتى تزول الرطوبة .

لكنني لم اجد رغبة في الاستماع اليها ..

كانت براعم الزهر تتفتق في اغصان الاشجار ، وانبلجت بعض الاعشاب  
من الطلح من باطن الارض وغطت سطح منزل بتروفنا ، واخذت العصافير  
تمرح متنقلة بين الاغصان تشدو اجمل الالحان ورائحة ذكية تعبق في جميع  
الارجاء تبعث في نفسي نشوة فائقة .. وبداء لي المكان الذي ذبح فيه العم بيوتر

قد ازدان بمعشب بني اللون يوشحه الثلج من كل جانب ، فلم تكن هذه البقعة تنسجم مع إنشراح الربيع بل اصبحت هذه الحفرة عديمة النفع .. واجتاحني فجأة رغبة عارمة في نزع تلك الاعشاب ، وازالت كل ما يدنس الحفرة ثم اشيد مكانها كوخاً استطيع أن امضي فيه فصل الصيف بعيداً عن سائر الناس ..

كانت جدتي وامي تستوضحان دائماً :

– لماذا انت عابس هكذا ؟

كان هذا السؤال يزعجني كثيراً .. فانا لست بحاقد عليها .. كل ما هنالك ان كل شيء يمت إلى البيت بصلة اصبغ غريباً عليّ .. وغالباً ما كانت تلك المرأة الخضراء تشاركنا الغداء او العشاء او الشاي ، فتقتعد هناك كأنها كتلة بالية عفنة ، قد شدت عينها إلى وجهها بخيوط غير مرئية ، تتفحصان كل شيء وقدوران بشكل غريب .. كانت تمسك شوكة الطعام بشكل يبعث على السخرية .. كانت وابنها مبالغين في النظافة حتى لا يجرأ امرىء على الاقتراب منها .. ولقد حاولت مرات عدة ، في الايام الاولى لتعارفنا ، حملي على تقبيل يدها الميتة ، التي تفوح منها رائحة البخور والصابون. فكنت أزوغ من طريقها .. ولا تزال تقول لابنها :

– ان هذا الولد بحاجة إلى تربية .. أتدرك هذا ، يا يفجيني ؟

فلا يجب يفجيني سوى الاطراق برأسه طائماً ، وقد قطب وجهه وفي الواقع كان الجميع يقطبون وجوههم عندما تحضر تلك المرأة الخضراء .. لقد كرهت تلك العجوز وكرهت كذلك ابنها كرهاً عظيماً كلفني الكثير من الجلد .. وذات يوم بينا كنا نتناول الطعام ، شرعت تحدجني بنظرها وهي تقول :

– يا عزيزي الكسي ، لماذا تلتهم الطعام بهذه الشراهة ؟ ولماذا تجعل حجيم

اللقة كبيراً هكذا ؟ سوف تحتنق !

فقذفت اللقة من فمي غارزاً فيها الشوكة ! وقدمتها لها قائلاً :

- هيا ، تناولها ان كنت آسفة عليها ا  
فاختطفتني والدتي من على الطاولة وطردتني بشكل مخزٍ إلى الطابق  
العلوي . وبعد ذلك لحقت بي جدتي ، ووضعت يدها على فمها وهي تنفجر  
ضاحكة :

- آه ، يا إلهي كم انت وحش صغير ، اخذك الشيطان .

لم يعجبني وضعها يدها على فمها ، فزفت منها ، وصعدت سطح المنزل ،  
وقبعت هناك خلف المدخنة مدة طويلة .. اجل ، انني احس برغبة لا تقاوم في  
اعمال ( الشيطنة ) وفي اهانتهم جميعاً .. فذات يوم احضرت غراء وطلبت به  
مقعدي زوج امي وجدتي الحديثة ، وما أن جلستا حتى تشبث كل منهما بمقعده  
بصورة تبعث على السخرية والضحك ، وبعد ان جلدي جدي ، اسرعت امي  
اليّ في الطابق العلوي وشدتني اليها واضعة اياي بين ركبتيها ، ثم قالت :  
- لماذا تفعل هذ الاعمال الشيطانية ؟ لو تعلم كم يحز ذلك في نفسي ا .

واغرورقت عيناها بالدموع ، وقد شدت رأسي إلى خدها الناعم ، واحسست  
بضيق كبير فلو جلدتني لكان ذلك اخف وطأة علي ، حلفت بعد ذلك الـ  
اتعرض لآل مكسيموف بشر . شرط أن تكف عن البكاء .. قالت بلطافة :  
- حسناً .. ينبغي الاتكون ماكرأ ا سوف نتزوج عما قريب ، ثم نرحل  
إلى موسكو في رحلة قصيرة ، وعندما نرجع ستعيش معنا .. إن يفجيني  
فاسيليفيتش رجل طيب ، وانا اعلم انك ستكون سعيداً معنا . سيرسلك إلى  
المدرسة لمتابعة دروسك حتى تصبح مثله وعند ذلك تصبح الرجل الذي تحب أن  
تصبحه لان الرجل المثقف قادر على فعل ما يريد .. امض الآن وأهو ..

كنت اشعر أن هاتين الكلمتين ( الآن ) و ( عند ذلك ) اللتين تتكرران  
أبدأ ، هما سلم منحدر يؤدي بي إلى الاسفل بعيداً عنها حيث اغرق في الظلمة  
والوحدة . وان هذا السلم لم يكن يبعث في نفسي الفرحة أبداً ، فتشديني رغبة

في أن أقول لها :

- لا تتزوجي . سأعيلك ، أنا وحدي ..

بيد انني لم أقل ذلك .. كانت والدتي تبعت في " احساساً وعواطف رقيقة  
لم اكن اجد الشجاعة للانفصاح عنها .

كدت اعمل في الحديقة بنجاح يوماً بعد يوم .. فقد ازلت الاعشاب ومهدت  
الارض بقطع من الآجر ، ثم بنيت من قطع اخرى مقعداً مريحاً واسماً استطيع  
أن اتمد فيه كما يحلو لي . ثم جمعت قطعاً من الزجاج الملون والصحاف المكسورة  
ووزعتها في الطين بين الآجر فكانت ترسل وميضاً برّاقاً كلما زارتها الشمس في  
الصباح .

وفي ذات يوم بينما كان جدي يتأمل عملي هذا قال :

- ان عملك هذا بديع ! بيد ان الاعشاب ستتموت ثانية وتفسد كل شيء فقد  
تركت في جوف الارض جذور الاعشاب ، هيا تاولي معولاً لاتزع لك هذه  
الجذور .

وعندما اتيت به بالمعول نقت في يده ، ثم غرس المعول في اعماق الارض وهو  
يهمهم قائلًا :

- إلتقِ بالجذور بعيداً ، سأزرع لك هذه الزاوية بالخيزي ودوار الشمس  
سيكون ذلك بديعاً ، بديعاً جداً !

وعلى حين غرة انثني على المعول من غير حراك وبقي مدة لا ينبس بكلمة  
واحدة .. فتأملته جيداً ، فشاهدت الدموع تدرف من عينيه الصغيرتين ..  
سألته :

- ماذا بك ؟

فاضطرب ومسح وجهه بيده ، وتأملني ثم قال :

- آه ، ان العرق يغسلني .. تأمل ما اكثر هذا الدود ، واخذ يحفر الارض

مرة ثانية ، وقال فجأة :

- من العبث العمل هنا . سأبيع البيت بأسرع ما يمكن .. في الحريف على الأرجح .. انني بحاجة إلى المال مهراً لوالدتك . يجب أن تعيش بصورة لائقة .. وسيكون الله معها ! ..

والقى بالمعول جانباً ، ومضى قاصداً زاوية من الحديقة حيث يحتفظ ببعض ادواته .. فشرعت احفر الارض حتى قطعت ايهامي بجد المعول .. مما جعلني غير قادر على حضور عرس والدتي ، وقد رافقتها بعناء حتى البوابة حيث اخذت أتأملها وهي تجتاز الشارع مع مكسيموف الذي امسك بذراعها ، كانت مطرقة الرأس تشي بعناية فائقة بين الاعشاب المنبجسة من بين شقوق الرصيف القرميدي وكأنها تشي على مسامير مسننة ..

كان العرس هادئاً .. فقد تناولنا الشاي بعد الاحتفال ، من غير بهجة .. ثم اسرعت والدتي إلى حجرة نومها ، واخذت في حزم امتعتها ، بينما جلس زوجها يجانبي وقال :

- لقد صممت ان اهديك بعضاً من الالوان . بيد ان الانواع الموجودة هنا مسن الصنف الرديء الذي لا يصلح للرسم . ولا استطيع ان اهديك الواني الخاصة . لاجل ذلك سأبعث لك بهديتي من موسكو ..  
- وماذا افعل بها ؟

- الاتحب الرسم ؟

- لست ادري كيف اقوم بذلك !

- إذن سأبعث بشيء آخر .

وفجأة دخلت امي .. قالت :

- لن نتأخر سنعود قريباً .. بعد أن ينتهي والدك من دراسته وامتحانه . كنت اشعر بغبطة عظيمة وهما يتحدثان اليّ كأنني واحد من الرجال ، بيد

انني عجبت أن يكون رجل ذو لحية في طور الدراسة . فسألت :  
- ماذا تدرس ؟  
- تخطيط الاراضي .

ولن اود ان اسأل معنى ذلك .. كان يجيم على البيت سكون عميق ، وصوت  
حفيف الاوراق ، فتشوقت لهبوط الليل .. وقبض جدي وقد استند بظهره إلى  
الموقد ، يتأمل بعينين نصف مغلقتين المشهد من النافذة . . بينما اخذت المرأة  
الخضراء تساعد امي في حزم امتعتها ..  
وتركتنا امي في غداة اليوم التالي .. فعانقتني مودعة ثم رفعتني عن الارض  
بكل بساطة ثم تأملتني بنظرة غريبة لم اشاهد مثلها من قبل ..  
قالت وهي تعانقني :  
- حسناً ، الوداع !

فقال جدي بلمحة كئيبة ، وقد تعلق عيناها في لازوردية السماء :  
- سليه أن يطيع أوامري .  
فتقدمت نحووي راسمة اشارة الصليب فوقي :  
- ينبغي أن تسمع اقوال جدك .  
كنت انتظر أن اسمع شيئاً آخر ، فغضبت على جدي لتقاطعه اياه عن  
الحديث .. صعدت ومكسيموف إلى العربة ؛ بيد ان ثوبها تعلق بشيء ما ،  
فبقيت مدة طويلة تحاول في غضب شديد على افلاته ..

قال جدي موجهاً الحديث إليّ :  
- ساعدها في تحرير ثوبها ، الا ترى ؟  
كنت هائماً في هاوية من التفكير اليأس لا اقدر على فعل شيء .. ومد  
مكسيموف ساقيه الطويلتين اللتين قد التفتا بسر وال ازرق اللون ، فيما حاولته  
جدتي بعض الصرر التي تكدست فوق ركبتيه ، فشد عليها بذقنه ، ثم رفع

حاجبه المضطرب وقال :

- يكفي ا

وصعدت المرأة الخضراء اللون ابنها الاكبر ، الضابط ، في عربة اخرى .  
جلست باستقامة كجسم شمعة ، بينما شرع ابنها يحك لحيته بقبضة سيفه ..  
سأله جدي :

- إذن ، فأنت ماضٍ إلى الحرب ؟

- بدون ريب .

- هذا بديع ا ينبغي قهر اولئك الاتراك .

وتحركت العربتان .. فيما التفتت امي مرات عدة نحوها وهي تلوح ببنديلها ،  
واخذت جدتي تلتحج بجانب حائط الدار لهلوحه بدورها ببنديلها ، اما جدي  
فقد انسابت الدموع من عينيه ، وهو يدمدم بصوت متقطع :  
- لن يكون شيء نافع .. شيء جيد .. من هذا .. مطلقاً ا

جلست إلى مقعد صغير اأمل العربتين تتواريان شيئاً فشيئاً وراء احد  
المنعطفات ، فاحسست بشيء يختلج في صدري ..  
كان الوقت لم يزل باكراً في الصباح ، والشوارع خالية ، والنوافذ ما زالت  
مغلقة . فلم أرَ ابدأ من قبل مثل هذا السكون الخيف .. ومن البعيد ، من  
الاماكن النائية ، تناهت إلى اسماعي الحان راعٍ يعزف على نايه . فامسكتني  
جدي من كتفي وقال :

- تعال لتناول الفطور ، يبدو ان الله قد شاء لك ان تعيش معي ابدأ ،  
وتلازمي حتى النهاية .

كنا نعمل في الحديقة ، انا وجدي ، من الغدوة حتى هبوط الظلام والصمت  
ينشر اشرعته بيننا ، هو يحفر التربة ويشذب اغصان الاشجار ويقلم بعض  
الاعشاب الشجرة . ويقتل الدود الذي يجده متدثراً ببعض الاوراق ، بينما اغرق



انا في توضيب زاويتي من غير كلل .. انسج مظلة من الاعشاب اليابسة أقي بها منزلي من حر الشمس وقطر الندى حتى غدت زاوية رائعة .. وعندما اقتلع جدي آخر الكتل الخشبية ووضع مكانها جدع مستقيم ثبتته في الارض لكي اعلق به اقفاص عصافيري .. قال :

- انه لعمل رائع أن تتعلم تنسيق امورك الخاصة بنفسك .  
كنت اعتر بملحظاته العظيمة في الحياة .. وفي بعض الاحيان كان يفترش مقعدي الذي غطيته بالعشب ، ويكلمني بهدوء ، فأتصور أن الكلمات تسحب من فيه بصعوبة فائقة !

- انك الآن قطعة فصلت عن والدتك ا وسوف تلد امك أطفلاً آخرين  
يكونون بحاجة إلى امهم اكثر منك ، اما جدتك فقد اصبحت كما تعلم تتعاطى شرب الخمر .

ثم ينصت فترة طويلة ، كأنه يحاول الاستماع إل شيء ما ، ثم يعود إلى متابعة حديثه معتصراً الكلمات في فمه :

- انها المرة الثانية التي تتعاطى فيها الخمر ، كانت المرة الاولى عندما طلب ميخائيل إلى الجندي الاجبارية ، ولكنها اقنعتني اخيراً ان اتقدم إلى السلطة وادفع التعويض ، يا لها من معنوية ، من يدري لو انه خدم في الجيش لكان اصبح شيئاً آخر .. اما انا ، فعما قريب سأموت وهذا يعني انك ستصبح وحيداً .  
هل انت فاهم ؟ ستبقى وحيداً تتدبر امورك بنفسك .. بيد اياك ان تتحني للغير ا عش حياتك هادئاً ، مسالماً ، لكن يجب ان تكون عنيداً ، وسر في طريقك الخاص من غير خوف أو وجل .. واسمع للجميع ، لكن إفعل ما يلميه عليك ضميرك وما تراه مناسباً ..

أمضيت الصيف بأكمله في الحديقة ، ما عدا الايام الماطرة . فقد كنت اقضي الليالي الدافئة فيه ، فقد خصصت لي جدتي قطعة من اللباد صنعت منها

ربراً . واغلب الليالي كانت جدتي تضيئها وهي تقص علي روايات عديدة  
كنت أصغي اليها بانتباه ..

وقبل الشمس نحو المغيب ، وترسل أشعتها وهي تذوي في الشفق تاركة  
وراءها الحدائق وقد اكتست برداء لازوردي محمراً فوق الاغصان . وبعد ذلك  
تزور الظلمة الكون فتذوي اشعة الشمس من على الاغصان ويحني العشب رأسه  
أسفاً على دفيء الشمس .. وتنبعث من البعيد موسيقى ملائكية تستقبل الهدوء  
كأنها ترانيم ام حنون ..

وتتمدد جدتي بالقرب مني ساعات طويلة وقد اسلمت رأسها إلى ذراعها . وما  
تزال تروي بعض الاقاصيص بانفعال سلس ، غير مبالية ان كنت اصغي لها أم  
لا .. وكانت بمكانة عظيمة إذ تعرف كيف تضيئي على سكون الليل وهدوئه  
باقاصيصها المناسبة فيزداد روعة وجمالاً ..

كنت استسلم إلى نوم عميق وانا أصغي إلى حديثها الموزون ، وما استيقظ  
إلا والشمس تغسل بنورها وجهي وتملأ العصافير أسماعي الحاناً شجية . ويب  
نسيم الصباح يدغدغ وجهي بلطف . وتلتمع حبيبات الندى على غصون  
الاشجار ، وينتفض العشب مستقبلاً نور الشمس البهي ..

لقد كانت تلك المراحل اكثر سكينه وتأملاً في حياتي ، ففي ذلك الصيف  
ازداد شعوري بثقتي بنفسي وتأصل . وأصبحت انجذب للناس ، فلا تدفعني  
الرغبة ، عندما اسمع صراخ الاطفال إلى الاستماع اليهم او الانضمام اليهم .  
واصبحت عندما يأتون لزيارتي أخاف من أن يعبثوا بمحديقتي ، بدلا من الابتهاج  
والغبطة ، وهي أول شيء صنمته يداي في حياتي ..

وكذلك لم تمد احاديث جدي تثير في نفسي ادنى اهتمام ، بعد ان اصبحت  
اكثر جفافاً ومدى .. وازدادت مشاجرات جدي وجدتي ، واصبح يطردنا  
من البيت ، فتقصد إلى منزل الخال ياكوف او الخال ميخائيل . واحياناً كانت

تتوارى عن البيت اياماً عديدة . فيضطر جدي إلى تهيئة طعامه بنفسه ، وهو يكيّل الشتائم ، ويحرق اصابعه ، ويكسر الصحون ، وتتأصل الشراسة فيه يوماً بعد يوم .

وعندما كان يزورني في حديقتي ، كان يقتمد في مجلس مريح بين الاعشاب . ويأخذ في تأملي مدة طويلة من غير أن ينطق بكلمة واحدة .. ثم يسألني فجأة :

— لماذا لا تتفوه بكلمة ؟

— لست ادري .

فيشرح عند ذلك بالحديث كأنه استاذاً يلقي محاضرة :

— اننا من غير طبقة النبلاء ، كما تعرف .. وليس من احد قد علمنا شيئاً ، فينبغي أن نأخذ العلم بانفسنا ، ان الكتب قد وجدت لغيرنا ، والمدارس قد اشيدت ليس لنا بل لسوانا .. فالواجب علينا بالتالي أن نحصل كل شيء م-ن تلقاء انفسنا ..

ثم يفرق في صمت عميق ويبقى صامتاً حتى يبعث الرعب في نفس المتأمل فيه ..

ثم باع المنزل في ذلك الحريف ..

وقبل ان يبيع جدي الدار ، قال ، بينما كنا نجلس إلى طاولة الطعام لتناول الافطار ، بلهجة حازمة حزينة :

— حسناً يا اماء ، لقد اطعمتك مدة طويلة فيما مضى ومن الآن وصاعداً حاولي أن تكسي قوتك بنفسك .

اصغت جدتي اليه سمعها في هدوء عميق ، كأنها كانت تنتظر منه هذا الكلام منذ زمن طويل .. فاجابت .

— حسناً ، كما تشاء .. يجب أن نتدبر أمرنا على اكمل وجه

واستأجر جدي منزلاً مؤلفاً من غرفتين صغيرتين مطليتين في قبو عتيق  
يؤدي إليه عبر طريق ضيقة .. وعندما كنا نحزم امتعتنا ، اخذت جدتي  
حذاءً قديماً ورمته تحت الموقد ، ثم جلست القرقصاء وشرعت تنادي عفریت  
البيت الحارس :

- تعال ايها العفریت ، تعال واركب هذا الحذاء وامض معنا إلى المنزل  
الجديد حاملاً معك الحظ السعيد لنا ..

وأطل جدي من الساحة عبر النافذة وصرخ :  
- انك تناديه لآخذه معك ، اليس كذلك ؟ سوف ادق عنقك ، ايها  
الجاحدة لسوف تجملين مني مهزلة في اعين الناس !  
فتبته قائلة :

- ماذا يا ابناه احذر جيداً لما تقول .. أن ذلك يعني حظاً تيسراً لنا ..  
بيد ان احتداد جدي كان يفوق التصور . فمنعها من مرافقة العفریت لنا إلى  
المنزل الجديد .

وخلال فترة ثلاثة أيام بقي يبيع الاثاث لبعض الترتين ، وهو يساومهم  
ويكيل لهم السباب من غير حساب . بينما كانت جدتي تراقبهم من النافذة ،  
تضحك تارة وتنتحب اخرى ، وهي تصرخ في صوت خافت :  
- هيا خذوا كل شيء كسروا كل شيء ، ولا تتركوا شيئاً .

كانت الدموع تترقرق في مقلتي كلما فكرت في زاويتي التي اقمتها في الحديقة ،  
واقت عربتان لنقلنا إلى المنزل الجديد ، فاخذت العربة التي اعتليناها تتأرجح  
كأنها تود أن تقذف بي خارجاً من فوق أكداس الأمتعة والصناديق ..  
وبقيت مدة سنتين أعيش واحساس يطغى عليّ بان شيئاً خفياً يحاول  
انتزاعي والقذف بي ، حتى توفيت والدتي .. وبعد انتقالنا إلى القبو اتت أمي  
لزيارتنا .. كانت شاحبة اللون ، نحيلة القوام ... كانت تتأمل كل شيء بانتباه

فائق ، وكأنها تشاهدني مع والديها للمرة الاولى في حياتها .. اخذت تتأملنا في صمت ، بينما بقي زوجها يجوب الغرفة ذهاباً وإياباً ، مطلقاً صفيحه الخافت ، وقد وضع يديه خلف ظهره ..

قالت أمي وهي تدغدغ وجنتي بين راحتي يديها :  
- يا للسماء كم كبرت ا

كانت ترتدي ثوباً فضفاضاً بشعاً ، ينفتح فوق بطنها ، بني اللون ، قال زوجها ، وهو يمد لي يده :

- مرحباً كيف الاحوال مملك ؟  
ونفتت بمنخريه ودمدم :  
- إن الرطوبة لزائدة هنا ا

كان التعب بادياً على محياهما ، كأنها كانا يعدوان منذ أمد طويل .. وليس في سباتهما سوى الطلب للراحة .. ثم اخذنا الشاي بصمت تام ، بينما قبع جسدي يتأمل المطر طوال الوقت ، واخيراً استوضح قائلاً :

- إذن فقدتما كل شيء بسبب النار ؟  
فاجاب زوج والدتي بلهجة صارمة كثيبة :  
- كل شيء . ولم ننقذ أنفسنا إلا بصعوبة كبيرة .

- آه ا إن النار ليست في الحقية هزار .

ودنت والدتي من جدتي وأسرت اليها بشيء في اذنها فضيقت جدتي من دائرتي عينيها وقد ازداد الوجوم شدة ..  
وطلى حين غرة قال جدي بلهجة مغتظة :

- لقد تناهى إلى أسماعي يا يفجيني فاسيليفيتش ، بعض الاشاعات التي تقول أنه لم يكن هناك من نار أبداً . بل أنك فقدت كل شيء في لعب الورق .  
فخيم صمت عميق ، لا يسمع خلاله سوى بعض قطرات من المطر التي تنقر

على النوافذ ..  
قالت أمي .  
- ابتاه ...  
فزعل جدي :

- أبتاه ! حسناً ، ماذا ايضاً ؟ الم افهمك أنه من الهوس أن يتزوج الجيل الثالث من الجيل الثاني ؟ .. اليك ما غدوت ، إنه نموذج بديع لقد جعل منك نبيلة ما كيف ترين ذلك ، يا ابنتي ؟  
وعند ذلك تعالى صراخ الجميع وكان صراخ زوج أمي يفوقهم جميعاً . مضيت إلى المشى حيث جلست على رزمة من الحطب مندهشاً . هذه المرأة لا يعقل ان تكون والدتي ، إنها مختلفة كل الاختلاف عن أمي .. وانا الآن في الظلة استطيع أن اتذكر وجهها تماماً كيف كان قبلاً ..

وبعد ذلك اجدني من غير أن اذكر كيف جرى ذلك ، في سورموفو ، في منزل جديد بنيت جدرانها من الحشب .. وقد تركت شقوق صغيرة بين قطع الحشب قد حشيت بنبات القنب ، قد اكتنزت بعدد كبير من الصراير . كانت أمي وزوجها يقطنان في حجرين في مواجهة الشارع ، بينما سكنت وجدتي في المطبخ الذي له نافذة واحدة تطل على السطح . وفي البعيد خلف السطح كانت المداخن تنتصب يتصاعد منها الدخان محلقاً في السماء ..

كانت جدتي تقوم بجميع أعمال البيت اليومية ، فهي مشغولة منذ الصباح حتى المساء في إعداد الطعام ، وتنظيف الارض ، وجلب الحطب ، وإحضار الماء ، وما أن يأتي المساء حتى تتهاوى متعبة منهوكة القوى ، وفي بعض الاحيان بعد إعداد طعام الغداء كانت ترتدي معطفاً قصيراً وترفع الكام قميصها ، ثم تمضي إلى البلدة وهي تقول :  
- سأذهب لمشاهدة ذلك المعجوز وكيف يتدبر امور حياته ..

— خذيني معك ..

— سوف تتجمد حتى الموت . ألا ترى هذه الرياح الهائجة !  
كانت جدتي تقطع مسافات طويلة حتى تبلغ البلدة ، في حقول مسن الثلج ،  
بينما تقبع والدتي الحامل في الدار ، وقد التفت بشال بالرمادي اللون ينتهي  
بزر كشة طويلة .. كنت أكره ذلك الشال البالي فاود تمزيقه نتفأ . وقد كرهت  
البيت وسائر تلك الضاحية . كانت والدتي تجوب الغرفة وهي منتعلة حذاء  
مهترى .. كانت بين الحين والآخر تتأمل الشارع مدة طويلة ..

سألتها :

— لماذا نقطن في هذا المكان ؟

فاجابت .

— آه ، لا تسل :

وغدت تقتضب في حديثها معي ، فلا تحادثني إلا إذا أرادت أن تصدر  
أمرأ ، او تطلب مني عملا :

— أت لي بهذا ، تناول ذلك . إمض إلى المخزن .

ولم تكن تسمح لي بالخروج إلى الشارع للهو ، لأنني كنت أرجع دائما وقد أشبعني  
أقرا في ضربا ولكما .. كانت المشاجرة اللذة الوحيدة التي بقيت لي من الماضي .  
فكنت أستسلم إليها بكل طبعتي ، وكان جزائي العقاب الاليم الذي لا يزيدني  
إلا شغفا بها ، فاقاتل في اليوم التالي بوحشية ، فتضاعف أمني بدورها العقاب ..  
وذات يوم أنذرتها بانني ساعض لها يدها وأتوارى في الحقول إن عادت إلى  
معاقبتي ..

قالت وهي تلهث تعباً :

— يالك من وغد حقير !

كان زوج أمني شديد القسوة عليّ " يقتضب في حديثه مع والدتي ، كان دائما

يرسل صغيره الناعم ، ويتوقف قبالة المرآة يطرق اسنانه العوجاء . وغدت مشاجرته مع والدتي كثيرة ، فقد كانت هذه المشاجرات تثير في نفسي نغمة يائسة . فكلمنا تشاجرا كان يوصد باب المطبخ حتى لا يتناهى إلى أسماعي حديثه معها ، بيد أن اصدااء صوته الاجش كانت تصلني رغما عنه ..

كان يضرب الارض بقدمه ويصيح :

— أنني غير قادر على دعوة أحد إلى المنزل بسبب بطنك اللعين ، ابتها

البقرة الشمطاء !

كان عدد كبير من العمال يأتوننا نهار السبت ليبيعون بطاقات طعامهم ، إلى زوج أمي ، التي تكون الشركة قد وزعتها عليهم لابتياح حاجياتهم من مخزنها .. فقد كان المعمل يوزع هذه البطاقات بدلا من الاجور فيشترها زوج أمي بنصف ثمنها .. لاجل ذلك كان يستقبل العديد من العمال في المطبخ ، فيجلس إلى الطاولة وعلى وجهه مسحة من الرزانة ، ويأخذ يتأمل البطاقات وهو مقطب الحاجبين :

— روبل ونصف .

— يفجيني فاسيليفيتش ، عجة بالسيد المسيح ..

— روبل ونصف .

لم تمتد بي هذه الحياة التعمية المضطربة ، فقد ارسلوا بطلي قبل أن تضع أمي طفلها ، لاعيش مع جدي .. كان يسكن منزلا جيدا مؤلفا من طابقين في شارع بيستاناينا في كونافينو ، يطل على مقبرة كنيسة نابولنايا . وقد وضع في الغرفة التي يقطنها مؤقد ضخم ، وفيها نافذتين تطلان على الساحة ..

أخذ جدي يضحك حين لحنني ، وشرع يرسل صراخا حادا متقطعا :

— حسنا ! يقول المثل ( خير رفيق لك هو أمك .. ) لكننه يظهر ان

افضل رفاقك هو جدك ، الشيطان الهرم ! تفو ، تبا لهم من قوم !



وما ان تعرفت على البيت الجديد حتى جاءت امي وجدتي بالمولود الجديد .  
بينما فقد زوج امي عمله في المعمل لاحتماله على العمال . بيد انه استنجد باصدقائه  
الذين سرعان ما اوجدوا له عملاً كمحاسب في محطة للسكك الحديدية ..  
ومضت الايام طويلة قبل ان اذهب ، مرة ثانية ، لاقطن مع والدتي في  
قبو منزل حجري .. لقد ارسلتني امي ترواً إلى المدرسة ، بيد انني كرهتها لتوي  
منذ اليوم الاول ..

كان الاستاذ اصلع الرأس ، مصفر الوجه ، يلج غرفة الدرس وقد حشا منخريه  
بالقطن ، ثم يجلس إلى الطاولة ، ويطرح علينا الاسئلة في صوت ( مخنخن ) ثم  
يتوقف في منتصف الكلمة يسحب القطن من انفه ويتأمل هازأ رأسه .. كانت  
وجهه مسطحاً ، لحاسي اللون ، تبدو فيه بقع زرقاء .. اما عيناه الصغيرتان ،  
وهما اشنع ما في وجهه حيث لا مكان لهما مطلقاً ، وثبقيان عالقتين في وجهي  
فامسح وجهي بيدي لازالتها عن وجهي ..

قبعت في الايام الاولى في المقعد الامامي . توأ تحت انف الاستاذ ، حتى انني  
اتصوره لا يشاهد احداً غيري ، ولا يبرح يقول من بين أسنانه :  
- بشكو .. و .. ف ا غير قميصك ! بشكو .. و .. ف يكفي احتيالا !  
بشكو .. و ف ! لقد ترك هذاؤك مرة ثانية بعض الوحل على الارض !

لقد كان ذلك فوق ما اقدر على احتماله .. بيد انني كلت اختراع الالاعيب  
القاسية انتقاماً لنفسي .. ففي ذات يوم ، احضرت بطيخة نصف متجسدة ،  
ونزعت محتوياتها ، وبعد ذلك ربطها بمقبض الباب في الممشى المعتم ، فعندما فتح  
الباب ، صعدت البطيخة في الهواء وما أن أوصده الاستاذ حتى سقطت على رأسه  
الاصلع .. فرافقني الحارس الليلي إلى منزلنا وقد حمل معه ورقة من الاستاذ ،  
فكان جزائي كبيراً على تلك الفعلة ..

ومرة ثانية وضعت مسحوق الفلفل في درجه وما أن فتحه حتى إجتاحته

نوبة قوية من العطاس اضطرته على الاثر إلى مغادرة الصف حيث أرسل صهره الضابط كي يراقب مكانه .. وأمرنا الضابط بإنشاد ( انقذ الله القيصر ) و ( آه يا حريتي المباركة ) عدة مرات .. وعندما كان أحدنا يفلط في اللحن يضربه على قمة رأسه بمسطرة حديدية تتعالى منها ضجة تبعث على الضحك . وان كانت لا تؤلم مطلقاً .

وكان استاذ الدين كاهنا في عز الشباب ، كثيف الشعر وقد كرهني لانني لا أقتني نسخة من ( قصص مقدسة من المهدين القديم والحديث ) ولانني بالتالي اقلد اسلوبه في الحديث ..

ويعد أن يدخل قاعة الدرس كانت يقول لتوه :

- بشكوف ، هل أبتعت الكتاب أم لا ، أجل ، الكتاب !

- كلام افعل . أجل .

- وماذا تقصد بأجل ؟

- كلا !

- هيا إلى البيت ! أجل إلى البيت ! لانني لا ارغب في تعليمك ، أجل لا

ارغب مطلقاً !

لم أكن أبدي أي اعتراض على مغادرتي الصف فكلت اسرح في ساحات الضاحية وأدور في ازقتها القذرة ، أراقب الحياة الصاخبة من حولي حتى يأتي موعد انصرافي من المدرسة .

كان وجه الكاهن بديماً كوجه السيد المسيح ، وعيناه جيلتان كعيون النساء . ويداه لطيفتان صغيرتان .. كان قليل العطف على الاطفال وبالرغم من ذلك كانوا شغوفين به .. وبالرغم من أن علاماتي كانت حسنة للغاية ، فقد حذرت بانني سأطرد من المدرسة بسبب سلوكي ، مما جعلني اضطرر ، لان النهاية ستكون محزنة قاسية لان والدتي أصبحت تزداد حدة يوماً بعد يوم

وغدت تضاعف من جلدي ..

بيد أنني نجوت من تلك المصيبة عندما زار ، على حين غرة الاسقف  
كريستانس مدرستنا ، وكان على ما أذكر محدودب الظهر .. وغصت غرفة الصف  
بجو من الحرارة والانطلاق غير مهود عندما ولج ذلك الرجل الصغير وقد  
ارتدى ثوباً واسماً اسود اللون ، واخذ مكانه إلى الطاولة ..

قال ، وهو يخرج يديه من كفيه الواسعتين :

— حسناً اهلا تحدثنا قليلاً ، يا اولادي ؟

واتى دوري للشول أمامه في نهاية الجدول تقريباً .. سألني :

— كم عندك من العمر؟ حقاً؟ يا الهي ايا لك من فتى طويلاً بالنسبة إلى

عمرك ! لا شك انك قبعت طويلاً تحت المطر !

فوضع إحدى يديه فوق الطاولة ، بينما أمسك في الاخرى لحيتته الصغيرة ،

وحدثني بلطف :

— هل لك أن تحكي لنا قصة من التاريخ الديني تحبها .

وعندما اجبته بانني لا املك كتاباً دينياً حتى احفظ التاريخ الديني ،

سؤي من وضع قلنسوته وقال :

— كيف ذلك؟ ينبغي ان تحفظ هذه الاشياء . لكنني أعتقد انك تحفظ

منها شيئاً من كتاب آخر . لم تستمع إلى بعض الاقاصيص في مكان ما؟ هل

تعرف المزامير؟ لملك تعرف حياة بعض القديسين يظهر انك فتى مثقف !

وولج كاهننا الاحمر الوجه وهو يلهث .. وبعد أن باركه الاسقف شرع

يحدثه عني .. فقال الاسقف مقاطعاً اياه بمجرد أن يده :

— أنتظر لحظة !

ثم التفت اليّ ثانية :

هل أخبرتنا شيئاً عن رجل الله الكسي ..

وعندما توقفت عن قراءة الشعر لأنني نسيت منه سطرًا قال :  
- شعر بديع ، اليس كذلك يا ولدي ؟ عليك تعلم شيئًا عن الملك داوود ؟  
بديع ! سوف اكون مقتبطًا بالاستماع اليك ..  
واستشفيت من سبها وجهه انه فعلا مقتبطًا ، وانه يجب الشعر وترك لي مجالاً  
لتلاوة بعض الاشعار قبل أن يقاطعني :

- هل تعلمت احرف الهجاء من المزامير ؟ من لقتك اياها ؟ جدك ؟ جدك  
الطيب ؟ جدك ( الشير ) ؟ انك لا تقصد ذلك ابدأ . بيد انهم اعلموني انك  
تسبب بعض الشغب ..  
فعلت الحمرة الوردية وجنتي ، ثم اعترفت بذلك ، وأصدق هذه الحقيقة الكاهن  
والاستاذ إلى درجة كبيرة . ثم قال اخيراً وهو يتنهد :

- هل سمعت ما يقولون عنك ؟ تعال إلى هنا !  
ووضع يدي التي تفوج منها رائحة البخور على رأسي ، ثم قال :  
- ما الذي يدفعك إلى هذه الشقاوة ؟  
- ان المدرسة تبعث في الضجر .  
- تبعث فيك الضجر ، ان في ذلك بعض الخطأ ! لانك ان وجدت المدرسة  
تبعث فيك الضجر لاصبحت تلميذاً سيئاً ، بيد ان علاماتك تعدل على عكس  
ذلك . اعتقد أن هناك شيئاً آخر يضايقك .

وأخرج من ثوبه كتاباً صغيراً ودون :  
- بشكوف ، الكسي ! يجدر بك أن تعدل عن شقاوتك ، يا ولدي !  
شيء قليل من الشغب لا بأس به ، لان الناس غير قادرين على تحمل الكثير منه ،  
كما تعرف الست محقاً ، ايها الصغار ؟  
فاحابته مجموعة من الاصوات :  
- اجل ! انك على حق !

- وماذا عنكم ؟ أعتقد انكم لا تأتون الا القليل منه ، اليس كذلك ؟ .  
 فعلا ضحك الاطفال :  
 - آه الابل الكثير .  
 فقال بنغمة مندهشة ، دوت لها عاصفت من الضحك اشترك فيها الكاهن  
 والاستاذ كذلك !
- ما اغرب ذلك ! لقد كنت بدوري مشاغباً كبيراً عندما كنت في مثل  
 سنكم ، ما الذي يدفعنا إلى ذلك في رأيكم ؟  
 فتعالى ضحك الاولاد ، وهو يطرحهم باسئلته فيوقمهم في شراكة الشيء الذي  
 زاد من فرحتي واخيراً نهض قائلاً :  
 - انه لمن المؤسف أن اترككم ، ايها الماكرين بيد أن ساعة مغادرتي قد  
 حانت .
- ورفع يده ، دافعاً كفه العريض إلى الخلف ، ثم رسم اشارة الصليب فوق  
 الصف بأكمله :  
 - ليطل الله في حياتكم، ويهديكم سواء السبيل ، باسم الآب والابن والروح  
 القدس . الوداع !  
 فصاح الاولاد :
- الوداع ، يا صاحب الغبطة ! ارجع الينا باكراً !  
 فاجاب وهو يسوّي قلنسوته :  
 - سأرجع سأرجع باكراً ! وسأتي لكم ببعض الكتب .  
 ثم التفت إلى الاستاذ :  
 - ليذهبوا الآن إلى بيوتهم .  
 وواقفني في المشى ، وهمس في صوت خافت :  
 - عدني بان لا تأتي بعض المتاعب في المستقبل ، هل تعدني ؟ آه انا افهم لماذا

تفعل ذلك ، حسناً إلى اللقاء !

كان الانفعال يسيطر عليّ وقد احسست بشعور غريب يعتلج في صدري ،  
حق انني وجدت نفسي أصغي اليه بانتباه فائق ، ووجدت نفسي كذلك اصغي  
إلى الاستاذ بكل طيبة خاطر ، الذي طلب مني ان ابقى بعد انتهاء الدروس  
واخذ يفهمني ان اكون كالحمل وداعة ولطافة .  
وكلمني الكاهن قائلاً وهو يرتدي معطفه :

– ينبغي من الآن وصاعداً ان تحضر دروسي . اجل ، هذا ما ينبغي فعله ..  
لكن ابقى هادئاً . اجل ، هادئاً !

وسارت الامور في المدرسة بصورة حسنة ، بيد ان حادثاً قد وقع لي بعث  
في الاشمزاز والنفور في البيت .. اذ انني قد سرقت روبلا من امي ، من غير  
ان اتعمد ذلك أو أقصده ..

ففي ذات مساء خرجت والدتي ، وخلفني وحيداً مع الطفل الرضيع ،  
فتناولت كتاباً من كتب أمي ( ملاحظات طبيب ) مؤلفه دواماس الكبير ،  
وقد تناولته لاني لم اجد شيئاً افعله افضل من ذلك . وقد عثرت بين صفحات  
الكتاب على ورقة من فئة الروبل الواحد ، وثانية من فئة العشرة روبلات  
فاطبقت الكتاب وما ان اردت ارجاعه إلى مكانه حق راودتني فكرة بأنني  
استطيع بذلك الروبل ان ابتاع ليس ( تاريخ الدين ) فعسب ، بل و ( روبنسون  
كروزو ) كذلك ، الذي علمت به حين كنت أقص على الاولاد في يوم بارد احدى  
روايات الجان فقاطعتني أحدم باحتقار ! ( ان روايات الجان لا تنفع بشيء اما  
أما روبنسون كروزو ، فانها قصة واقعية ) .

كان عدد كبير من الاولاد قد قرأوا روبنسون كروزو ، وشرع الجميع بمدح  
الكتاب . وقد تأملت كثيراً لسخرتهم من قصة جدتي ، وقررت ان اقول ،  
بعد قراءته انه سيء لا يساوي شيئاً .

وفي الغداة اتيت المدرسة وانا احمل كتاب ( تاريخ الدين ) وكتاب صغيرين من روايات هانس اندرسون الخرافية ، وتزودت بثلاثة اوقيات من الخبز الابيض ، وأوقية واحدة من اللحم ، وفي زاوية مظلمة عثرت في مكتبة فلاديمير على نسخة من روبنسون كروزو ، كان كتاباً صغيراً اصفر اللون وما أن فتحت اول صفحة منه حتى وجدت صورة رجل له لحية قد وضع قبعة من الفرو على رأسه ، وعلى كتفيه قد القى معطفاً من جلد النمر . لكنني لم ارتح لمنظره بل فضلت عليه روايات الجان التي تأخذ بشغاف قلبي ، على الرغم من مظهرها الخارجي الذي لم يكن مزخرفاً ..

واثناء الفرصة اقتسمت الخبز واللحم مع الاولاد واخذنا نقرأ معاً قصة ( العندليب ) الساحرة التي اخذت بشغاف قلوبنا منذ الصفحة الاولى :

( ان غالب الناس في الصين صينيون ، وكذلك الامبراطور نفسه صيني ) .. وما زلت اذكر كم اسرتني هذه الجملة بضمونها البسيط ، وموسيقاها الشجية ولست ادري إن شيئاً آخر فيها كان أكثر عمقا بصورة بديعة .. ولم يكن لدي الوقت الكافي لانهي قراءة ( العندليب ) في المدرسة ، وعندما رجعت إلى البيت سألتني والدتي بصوت متهدج ، وهي تقلي البيض :  
- أخذت روبلا ؟

- أجل وما هي الكتب ..

فقاطعتني بضربة قاسية من المقلاة . وخطفت الكتب الخرافية مني ، ووارتها عني إلى الابد .. فكان هذا الجزء اشد ايلاماً من الجلد ..

وتخلفت اياماً عدة عن المدرسة .. لان زوج والدتي قد اخبر الناس في المعمل على فعلي ، وقد نقلوها بدرهم إلى أطفالهم الذين اتوا بالقصة إلى باحة المدرسة حيث رتبوا لي استقبالاً عندما عدت إلى المدرسة واطلقوا علي لقب ( اللص ) .. كان اللقب مختصراً ، جلياً ، بيد انه خاطيء .. ولم احاول أن اخفي حقيقة

سرقتي للروبل .. وعندما حاولت أن اوضح ذلك لم يصدقني احد .. وهكذا عدت إلى البيت واطلعت والدتي بما حدث واخبرتها بانني لن اعود إلى المدرسة مطلقاً ..

كانت قابعة إلى النافذة تناول اخي الصغير ساشا طعماه فالتفتت نحوي وتأملتني بعينين مذعورتين يبدو فيها البؤس ، وفغرت فاهها كالسمكة ..

قالت بصوت خافت :

– إنك تكذب إذ لا يعقل أن يدري إنسان بانك سرقت الروبل .  
– يجب عليك أن تستوضحي إذن .  
– لا شك بانك انت الذي اطلعتهم على الحقيقة اقل لي الحقيقة ألم تخبرهم ؟  
ولكن لا تكذب ، لانني سأذهب غداً إلى المدرسة لأستوضح الحقيقة .  
فاعلمتها باسم التلميذ ، فاذا بوجهها يتغضن ، والدموع تترقرق من مقلتيها بغزارة ..

قصدت المطبخ ، ثم اضطجعت على الفراش خلف الموقد الذي كان خاصتي ..  
وقد تناهى إلى أسماعي صوت أمي وهي تنتحب في الغرفة المجاورة وتصد  
تأوهاتنا :

- آه يا إلهي ! يا إلهي !

ولم أعد احتمل رائحة الاسماك التي ترسلها الحرارة ، فمضيت إلى الساحة .  
ندهتني والدتي :

– إلى أين انت ذاهب ؟ تعال إلى هنا !

افترشنا الارض سوية ، وقد جلس ساشا على ركبتها يشد بازرار ثوبها ..  
فالتصقت بوالدتي فطوقتني بذراعها ، قالت :

– اننا فقراء معدمون .. كل كوبيك واحد ...  
ثم شدتني بذراعها ، غير قادرة على التصريح بما تود قوله ..



وفجأة زجرت ، وهي تعيد كلمة سمعتها تتفوه بها كثيراً من قبل :  
- آه يا للوحش ، يا للوحش !  
فقلدها ساشا قائلاً :  
- وش !

كان طفلاً عجيبياً ، كبير الرأس ، حذق الطباع ، ذا عينين زرقاوين تتوجها الابتسامة دائماً ، ولقد شرع يتكلم في سن مبكرة .. ولم يكن يبكي مطلقاً بل يبقى دائماً في حالة فرحة .. كان يغتبط كثيراً عندما يشاهدني ، فيمد يديه إليّ ويأخذ في مداعبة أذني بإصبعه الندية التي تتضوى منها رائحة ، لست أدري لأي سبب ، البنفسج . وقد مات فجأة من غير أن يصاب بمرض . كان مسروراً كل السرور في الصباح كمعهه دائماً .. بيد أنه عندما أتى المساء ، وشرعت اجراس الكنائس تدق داعية الناس إلى الصلاة ، كان يتمدد على الطاولة من غير حراك . وقد وقع ذلك بعد ولادة الطفل الثاني نيقولاي بمدة وجيزة ..

وقد برت والدتي بوعدها بترتيب الامور في المدرسة ، فرجعت إلى متابعة دروسي كالمادة. بيد أنني عدت اعيش من جديد مع جدتي بعد اسبوع كامل .. وذات يوم بينما كنت ادخل إلى المطبخ تناهى إلى ممعي صوت أمي تصيح بلهجة يائسة :

- يفجيني ، يفجيني ، لا تمض ، اقوسل اليك !  
فاجابها زوجها :  
- سخافة !

- انني اعلم جيداً بانك ماضٍ اليها !  
- حسناً . وماذا يضير في ذلك ؟  
وركن كل منها إلى صمت عميق فترة . ثم قالت أمي بين نوبتين من السعال :  
- يا لك من وغد سافل نأفه !

وسمعته يضربها ، فركضت إلى داخل الغرفة كي اشاهدها وقد جثت على ركبتيها ، وتستند إلى أحد المقاعد بظهرها وقد تدلى رأسها إلى الوراء . وشع من عينيها بريق لم أعهده من قبل بينما انتصب مكسيموف أمامها ، وقد ارتدى بذلة جديدة ، يركلها بساقه الطويلة على صدرها .. فتناولت سكيناً ماضياً ووجهتها نحو خاصرته بكل ما اتيت من قوة .

ومن حسن حظه أن أمي قد دفعته عنها في الوقت المناسب ، فقطعت السكين المعطف ، ونالت الجلد يجرح طفيف . فاطلق صراخاً عالياً . ومضى من الغرفة وهو يعدو ماسكاً بخاصرته .  
فشدتني والدتي وقد صدرت عنها صيحة عظيمة ، ثم القتني أرضاً . بيد أن زوج والدتي عندما رجع من الساحة اختطفني منها ..

وعندما خرج زوج والدتي ، رغم كل شيء ، في ساعة متأخرة من الليل ، أتتني والدتي خلف الموقد ، وعانقتني بجمرة قائلة :  
- سامحني ، يا عزيزي . لقد قسوت عليك . لكن كيف يعقل أن تفعل ذلك ؟ بسكين !

فاقسمت وأنا مدرك معنى كلماتي ، أنني سأقتل زوج أمي ثم اقتل نفسي بعد ذلك .. ولقد حاولت ذلك . واني ما زلت اذكر حتى اليوم تلك القدم البغيضة تتأرجح في الفضاء ، وتهوي على صدر امرأة ضعيفة ..

وعندما آتني ، في بعض الاحيان ، على وصف شناعات تلك الحياة الروسية الوحشية ، اتساءل ان كانت تستحق أن يتكلم المرء عنها .. وقد اقتنعت بعد تفكير طويل أن من الواجب عرضها ، لأنها تكون الحياة الشريرة التي لم تستأصل باكملها حتى اليوم .. انها تمثل واقعاً يجب معرفته حتى أعمق جذوره ، كي نزيلها بعد ذلك من حياتنا الكثيبة الملوثة بالعار . فننتزعها من صميم الانسان ومخيلته ..

بيد أن هنالك سبب آخر ، أكثر موضوعية ، يدفعني الى وصف هذه الافعال الهمجية . اذ بالرغم من شناعتها وما تشوه من نفوس يمكن أن تكون نفوساً بديعة طيبة ، فان الروسي يملك من الشجاعة وسلامة التفكير ما يدفعه الى اعادة مثل هذه الاشياء وانه لفاعل ذلك بكل تأكيد ..

ان حياتنا بديعة ، ليس لانها تأصلت في تربة خصبة من الهمجية وحسب ، بل لما ينضح ورائها من قوى فعالة وخلاقة . وان الخير سوف يزداد ، وان شعبنا سوف ينفتح على حياة ملأى بالجمال ، تنضح بالانسانية .

\* \* \*

واجدني مرة اخرى مع جدي ..  
 القى علي السلام وهو ينقر بجدة على الطاولة :  
 - حسناً ايها الخبيث ! انني لن أقيتُك بعد الآن دع جدتك تتكفل بهذه  
 المشكلة .

فقال جدي :  
 - سأندبر ذلك ، بيد أن هذا الامر صعب ا  
 فصرخ :  
 - حسناً خذيه في عهدتك إذن .  
 ثم اوضح لي الامور بهدوء كبير :  
 - ان كل شيء يتركنا الآن وينفصل ، كل واحد يهتم بأمره لوحده ..

وقبعت جدي الى النافذة تطرز ، فأخذت بكرات خيطانها تتدحرج بنشوة  
 على الوسادة التي قلاها الدبابيس النحاسية التي تلتصق في اشعة شمس الربيع . كانت  
 جدي تبدو وكأنها إناء من البرونز لم يتغير فيها شيئاً ابداً . لكن جدي أمسى  
 أكثر هزالاً وأشد تفضناً وقد تساقط شعره ، وتحول هدوءه الى عصبية محندمة  
 واصبحت عيناه تشككان في كل شيء . واخذت جدي تخبرني عن اقتسامها  
 الاملاك مع جدي ، فقد اعطاها جميع العلب ، والاواني ، والاحواض ، وقال :

- كل هذا لك ، واياك ان تطلي شيئاً آخر ا

وبعد ذلك جمع ثيابها العتيقة وما تملكه يداها ، وباعها لقاء سبعمائة روبل .  
وضعها بالفائدة ليهودي قد اعتنق المسيحية وهو تاجر فواكه . وقد اصبح طعاماً  
حتى وقع في المرض من طمعه .. فقد كان يزور بعض اصدقائه القدماء ويسألهم  
إعطائه بعض المال مدعياً أن ولده قد قاداه الى الخراب ، فكانوا يقدمون له  
منحاً سخية تقديراً لمركزه السابق ، فيرجع الى البيت ملوحاً ببعض الاوراق  
تحت انف جدتي هازناً منها كطفل صغير :

- أتشاهدن هذه ، ايتها العجوز البلهاء ؟ ليس هنالك من يدفع لك عشر  
هذا المبلغ .

ثم وضع جدي هذا المال بالفائدة عند رجل تعرف عليه حديثاً يعمل تاجر  
فراء ، طويل القامة ، اصلع الرأس ، يلقب بـ ( السوط ) ..

كان جدي وجدتي يقتسمان كل شيء بصورة مضبوطة ، ففي اليوم الذي  
تهيء فيه جدتي طعام الغداء من مالها الخاص في اليوم التالي يشتري جدي  
الحبز والطعام وعندما يأتي دور جدي يكون الطعام رديئاً . بينما كانت جدتي  
تشتري لحماً مقدداً كان جدي يشتري رئة خروف أو أمعاء . حتى أن كل  
منها كان يحتفظ بشايه الخاص وسكره ، بيد انها يغليانه في ابريق واحد ، ويقول  
جدي مضطرباً :

- مهلاً دعيني اشاهد .. كم وضعت فيه ؟

ويأخذ اوراق الشاي في يده ، ويشرع في عدّها بدقة :

- ان الشاي الذي تشتريه له اوراق رقيقة بينما الشاي الذي ابتاعه انا اكثر  
كثافة لذلك اصبح من الواجب أن تضمي عدداً اكبر من اوراقك .

ويراقب جدتي ، وهي تسكب الشاي ، حتى يشاهد اذا كانت حصته  
تساوي حصتها .. كانا يرشطان دائماً عدداً متساوياً من الاكواب .

وكانت جدتي قبل أن تسكب الكوب الاخير تسأله :

– هل تشرب الكوب الاخير ؟

وبعد أن يلقي بنظرة الى جوف الابريق يوافق :

– حسناً ، انه الكوب الاخير في الحقيقة !

حتى اصبحا يتناغان كل بدوره الزيت اللازم للتعديل ، وذلك بعد مضي  
خمس سنين من الحياة المشتركة .

كنت الاحظ أن أفعال جدي مسلية تدعو الى الاشمئزاز ، أما افعال جدتي  
فقد كانت مسلية فقط . كانت تقول لي :

– تناسى ذلك ! ماذا ينتج عنه ؟ لقد هرم كثيراً حتى غدا شاذ الطباع .  
لقد تجاوز الثمانين ، تأمل هذا العدد الكبير من السنين ! ليصبح شاذ الطباع ،  
ماذا يضير في ذلك .. بينما انا وانت ، فكن على ثقة تامة بانني سأجد بعض  
الخير لكلينا دائماً ..

حتى انني اصبحت بدوري اكسب بعض المال ، فما أن يطل نهار الاحد  
حتى احمل كيساً على ظهري واجوب الطرقات بحثاً عن العظام والخرق البالية  
والمسامير والاوراق .. كان جامعو هذه الاشياء يدفعون لي عشرين كوبيكاً لقاء  
كل حزمة من الخرق والاوراق والقطع المعدنية ، وثمانية أو عشرة كوبيكات  
لقاء كل رزمة من العظام . حتى انني اخذت في جمع هذه الاشياء بعد خروجي  
من المدرسة خلال الاسبوع ، فأجني كل نهار سبت من اربعين الى خمسين كوبيكاً  
أو حتى كان هذا الربح يزيد اذا كنت قد توفقت في جمعها ..

وعندما اعود بالمال كانت جدتي تأخذه مني سريعاً ، وتودعه في جيب  
فستانها ، وتغمز بعينها وهي تشكرني :

– شكراً ، ايها الكتكوت الصغير ! لن نجوع بعد الآن .. أليس كذلك ؟  
بيد انني وجدت أن ربحي بمتاجرة الخروق اقل مما اكسبه من سرقة الالواح

الخشبية من فبركة تقع على ضفاف نهر الاوكا أو في جزيرة ( الرمال ) حيث يقام سوق سنوي للمتاجرة بالمعادن تحت كشكيات مصنوعة من الاخشاب . وكانت تلك الكشكيات تبقى مكانها عندما ينتهي السوق فتفك وتكدس فوق بعضها .. وكان ارباب البيوت يدفعون لنا عشرة كوبيكات ثمن كل لوح جيد من الخشب وكنا نستطيع سرقة لوحين أو ثلاثة في النهار .. بيد أن عملية سرقة اللواح كان ينبغي أن تجري في الايام الماطرة أو التي يسودها الضباب وعندما يكون الحراس داخل المخافر ..

وكانت العصابة التي اعمل فيها شلة من الفتيان الطيبين . منهم سانكا فياخير الملقب بالحمامة ، فتى في العاشرة من عمره ، رزين ، مرخ الطباع ، وكان هناك كذلك اليتيم كوستروما واسع العينين شديد النحول وقد شنتق نفسه فيما بعد عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره ، في اصلاحية للاحداث لانه سرق زوج حمام .. وكذلك غابي الملقب بشمشون فتى في الثانية عشرة من عمره وقد جمع الى جانب قواه الجسدية نفساً طيبة ساذجة .. و ( ياز ) صاحب الانف الافطس في الثامنة من عمره لا يأتي حركة ويبقى ساكناً وقد اصابه ( الداء الاسود ) ، وفي النهاية كبير عصابتنا ، وهو شخص عاقل ، يوجه للكلمات بخفصة ، يدعى ريشكا شوركا .. وكنا جميعنا نقطن في نفس الشارع ..

لم تكن السرقة جريمة في نظر سكان حيننا ، بل كانت الطريقة الوحيدة تقريباً ، التي يستطيع معظم الاناس الذين يتضورون جوعاً أن يحصلوا بواسطتها على لقمة العيش ..

كان الاولاد يعمدون الى سرقة المطارق من النجارين وحذوات الاحصنة والحخير من اصحاب العربات ، بيد ان عصابتنا لم تكن تأتي مثل هذه الاعمال مطلقاً ..  
قال شوركا ذات يوم .

- انني لن اعمد الى السرقة بعد الآن ، فامي لن تسمح لي بذلك .  
واضاف غايي .

- وانا لا تعجبني اتيان هذه الاعمال .  
وفي بعض الاحيان كان يقع بيننا الحصام .. بيد انني لا اذكرك ابدأ اننا  
تشاجرتا مرة واحدة ..

كان الحماسة يقوم بدور القاضي بيننا فهو قادر على ايجاد الكلمات التي تحد  
من اهوائنا . كلمات في غاية البساطة كانت تعجبنا وتجعلنا نخجل من انفسنا .  
حتى هو نفسه كان يندهش حين يتلفظ بها . ولم يكن يستاء مطلقاً من الأعيب  
ياز الدنيئة ، بل يتجاهل بهدوء تام كل ما يحدث منها على اعتبارها عديمة  
الجدوى . كان يسأل :

- لماذا فعلت هذا الشيء ؟

فندرك جميعنا ان ذلك العمل لم يكن له معنى في الحقيقة ..  
كان يطلق على امه لقب ( 'مردافيتي ) فكان يفرق في الضحك وعيناه  
المدورتان تشعان ضياءً .. بيد ان احداً منا لم يحد في ذلك ما يضحك ..  
كان يحدثنا عنها ويقول :

- في الليلة الفاتئة رجعت مرادفيتي الى المنزل وقد شربت الخمر حتى ابتلت  
فتعثرت على عتبة الباب وتمددت هناك ، يالها من دجاجة شمطاء ! حتى انها  
استغرقت هناك في النوم ، والرياح تعصف بحرية تامة في ارجاء الغرفة ، وانا  
ارتعد من البرد لانني غير قادر على جر جسدها الى الدار . وقد سألتها هذا  
الصباح : ( ماذا تبغين من هذا السكر ؟ ) . فأجابت : ( لا بأس عليك .  
ينبغي عليك ان تتحمل ذلك بعض الوقت ، فاني لا بد مائة قريباً ! ) .  
فأكد شوركا بخطورة :

- بكل تأكيد ! سوف لن تعمر طويلاً ؟ هلا شاهدت كيف انتفضت ؟



سألت بدوري  
- هل ستأسف لذلك ؟

فأجاب الحمامة وقد بدت عليه الدهشة :  
- طبعاً ! انها كانت أما طيبة لي .

وبالرغم من اننا كنا نعلم المعاملة التي تعامل بها ولدها ، فقد كنا ندرك انها من أصل طيب .. وقد كان شوركا في بعض الايام التي يزداد فيها رجحنا يقترح :  
- لينقد كل منا كريباً واحداً للحمامة حتى يشتري الفودكا لأمه ، وإلا جلده .

كنت انا وشوركا الوحيدين اللذين يلمان بالقراءة والكتابة ، وكان الحمامة يحسدنا على هذا ، فيهدل دائماً اذنيه الشبيهتين بأذني فأرة قائلا :

- عندما تموت موردافيتي سأركض إلى المدرسة . واجشو عند قدم الاستاذ مستغفراً كي يقبلني تلميذاً . وعندما انتهت من الدراسة سأصبح بستانياً عند الاسقف وربما عند القيصر نفسه .

وفي ربيع ذلك العام ، ماتت الموردافية مع عجوز كانا يجمعان التبرعات لبناء كنيسة جديدة ، عندما هوت فوقها كومة من الاخشاب . ونقلت إلى المستشفى ، فقال شوركا للحمامة :

- تعال واقظن معنا . سوف تعلمك والديتي القراءة .  
وبعد مدة من ذلك . توقف الحمامة امام مخزن ذات يوم ، ورفع رأسه بافتخار وشرع يقرأ :

- « بلافية » ...  
فقال له شوركا مصححاً :  
- بقالية ايها الفاطن !

– اعلم ذلك ، بيد ان مراجع الكلام تختلط علي  
– مخارج ا

– ان الاحرف تتقل من لقاء نفسها كأنها سعيدة لأن الناس تقرأها .  
وقد كان شغفه بالاشجار يسري عن انفسنا ... وعندما كان احدنا يفترش  
الاعشاب ، كان الحمامة يؤنبنا مغتاضاً :  
– انكم تفسدون الاعشاب ؟ ألا تستطيعون الجلوس على الرمل ؟ ذلك سيان  
عندكم .

وفي حضوره كنا لا نستطيع ان نقتطع غصناً من البيلسان المزهرة أو من  
الصفصاف المنتشر على صفاف الأوكا . كان يخاطبنا عند ذلك . هازأً بكتفيه  
مندهشاً :

– لماذا دائماً تفسدون الاشياء ، ايها المفاريت ؟  
وكان ذلك الاستغراب ينجلنا ...

وطوال الاسبوع ، كنا لجمع الاحذية البالية من الساحات استعداداً لرياضة  
ايام السبت ، فكنا نختبئ وراء زاوية في الشارع ننتظر ان يغادر التتاريون  
الذين يعملون في العتالة الرصيف السيبري كي نرشقهم بالاحذية . كانوا في بادئ  
الامر يفتاظون فيطاردوننا ثم سرعان ما تذلهم التسلية ، فكانوا يتسلحون بدورهم  
بالاحذية العتيقة استعداداً للمعركة ، حتى انهم كانوا يسرقون اشياءنا بعد ان  
هرفوا مكانها . بيد اننا اعترضنا على ذلك :

– هذا ليس لعباً .

كانت المعركة تستمر حتى هبوط الظلام . وكان بعض الاطفال البورجوازيين  
يراقبوننا وقد استتروا وراء احد المنعطفات . محتجين على إزعاج الناس ... حتى  
ان احدنا كان يتلقى صفة قوية سرعان ما تزول ذكرها بلذة القتال .  
وبعد ان ينتهي القتال كان التتاريون يرافقوننا حتى بيوتهم مقدمين لنا بعضاً  
من لحوم الخيل والخضار المطبوخة وبعد ذلك كانوا يقدمون لنا الشاي الكثيف .

فقد كانت معاملتهم لنا لطيفة ..

كانوا يضحكون ضحكاً مبرحاً .. حتى تسيل الدموع على وجناتهم .

وكان احدهم « موجيك من كاسيموف ، افطس الانف ، خارق القوة ،  
فقد حمل ذات يوم جرس الكنيسة ، وهو يزن قنطارين ، من احد المراكب حتى  
ضفاف النهر ، يهدأ وهو يضحك ولا ينفك يصرخ :  
- او .. و .. و .. او .. و .. و .. إن الكلمة عصفور . ان سمعت  
الكلمة امسكت العصفور ، عصفور ذهبي .

وذات يوم حمل الحمامة في يده ورفعها في الهواء قائلاً

- إمضِ وعش هناك في السماء !

كنا نجتمع في الايام الماطرة في بيت صغير في المقبرة حيث يعيش ياز مع  
أبيه . وقد ابتعنا شيئاً من الشاي وبعض السكر والحبز وقليلاً من الفودكا  
لوالد ياز ... كان شوركا يعطي الاوامر قائلاً :

- اشعل القناديل ، ايها الموجيك الخبيث !

وعند ذلك يتعالى ضحك الموجيك ويطيع الاوامر ، بينما نأخذ نحن بانتظار  
غليان الماء نلتسامر في شؤوننا الخاصة وهو يطرنا بالنصائح :  
- احذروا جيداً وافتحوا أعينكم . ستقام في دار آل تروسوف وليمة  
احتفالية بعد غد احتفاء بذكرى احد المتوفين . وسيكون هناك عدد كبير من  
العظام .

فيزيد شوركا ، وعنده الخبر اليقين دائماً :

- إن طبخة آل تروسوف تحتفظ بالعظام لنفسها دائماً .

فيتطلع الحمامة عبر النافذة إلى المقبرة ويقول متأملاً :

- سيصبح الطقس بديعاً ، وعند ذلك نستطيع الذهاب إلى الغابات .

كان والد ياز يعد الطعام فيضع على المائدة اكواباً عديدة مختلفة ويسكب  
لنا الشاي بينما يحتسي هو شيئاً من الفودكا ، ويعتلي الموقد حيث يشاهد من

علـ بمينين كعيني البوم ، مدمدماً :

— لتعمل عليكم اللعنة اهل انتم كائنات بشرية ، ام ماذا ؟ تقو ا جماعة  
من اللصوص ، ليحفظنا الله من الليالي المظلمة التي لا تنتهي .  
— بيد اننا لسنا بلصوص .

— اذن لصوص صفار !

وعندما يرهق والد ياز أعصابنا ، كان شوركا يصرخ بشدة في وجهه :

— إخرس ، ايها الموجيك اللثيم !

كنت وشوركا والحمامة لا نطيعه ولا نحب الاستماع اليه وهو يحصي مرضى  
الحي ، ويسأل نفسه من سيموت قبل الآخريين ... وعندما يحيد ان رواياته  
تضايقنا يأخذ في السخرية منا :

— انكم تخافون ايها الصعاليك الصغيرة ا هناك رجل كبير سيموت عما  
قريب . ولن يمتد الزمن به طويلا .

فنجحاول ان نجبره على السكوت بيد انه يستمر قائلاً:

— وسوف يأتي دوركم . فلا تنتظروا ان تعمروا طويلا فوق هذه الاكاداس  
النتنة حيث تعيشون .

فيقول الحمامة

— سوف نموت ونصبح ملائكة .

فيقول والد ياز بلهجة مندهشة :

— انتم ؟ ملائكة ؟

ثم ينفجر ضاحكاً ، ليعود الى رواياته البشعة عن الجثث . وفي بعض الاحيات  
يأتي على ذكر اشياء غريبة في صوت خافت :

— اتبهبوا ، ايها الفتيان ، بالأمس قد دفنوا سيدة ذات قصة غريبة . ولقد

علمت كل شيء عنها ، ما رأيكم في ذلك ؟

كنا نصغي اليه بانتباه فائق وهو يقص بصورة مضطربة فيتوقف عن كلامه

طارحا علينا اسئلة عديدة . بيد ان ما يقوله كان يترك في ذاكرتنا بقايا مثيرة .

— لقد سألوها : « من اشعل النار ؟ » . فقالت : « انا اشعلتها » .  
فقالوا : « كيف ذلك ايتها المجنونة ؟ فقد كنت تلك الليلة في المستشفى » .  
فأجابت : « انا اشعلتها » . والآن ، ما الذي يدفعها إلى التصريح بهذه الاشياء ؟ ليحفظنا الله من الليالي السئمة !  
بيد ان شوركا كان ينهض واقفا قبل هبوط الظلام قائلا :  
— انني ماض الى المنزل ، سوف تفلتي والدي ، من يصاحبني ؟

فذهب بصحبته جميعا ... ويرافقنا ياز حتى سور المقبرة ، حيث يقفل البوابة ضاغطا على قضبانها الحديدية وهو يودعنا .  
فترد عليه التحية قلقين من تركنا إياه في المقبرة . وذات مساء التفت كوستروما إلى الورا قائلا :

— سوف تنهض ذات صباح بديع فنجده قد فارق الحياة .  
وفي اغلب الاحيان كان شوركا يقول ان ياز يحيى حياة اسوأ منا جميعا ،  
فيعارض الحماسة قائلا :

— نحن لا نحيا بشكل سيء مطلقاً .

فكنت اثني على كلامه . كنت اجد اللذة في حياة الشوارع كما أجدها مع رفاقي ، حتى انني أشعر برفقتهم برغبة عظيمة في مساعدتهم جميعا ...  
وعدت إلى المدرسة لأجد المتاعب ، فقد شرع التلاميذ ينادونني بالتسول وجامع الاسمال ، ثم نقلوا إلى الاستاذ ، بعد مشاجرة عنيفة وقعت بيننا ، ان رائحة غريبة تفوح مني ، حتى ليستحيل الجلوس يجاني . وما برحت اذكر كم ألمني ذلك الادعاء . وكم وجدت من الصعب علي أن ارجع بعد ذلك إلى المدرسة كان الادعاء افتراء دنيئا لأنني كنت على الدوام اغتسل جيدا كل صباح ، ولا أعود إلى المدرسة بذات الشباب التي ارتديها عندما اجمع الاسمال .

وفي النهاية اجتزت امتحانات الصف الثالث بنجاح عظيم ، كوفئت عليه بشهادة شرفية وهدية مؤلفة من كتاب التوراة ، وكتاب خرافات كريلوف ، وكتاب آخر يحمل عنوانا مبهما « فانا مورجانا » . وعندما عدت إلى الدار حاملا معي هذه الهدايا ، اغتبط بها جدي كثيرا ، واثابه سرور عظيم معلنا انه من الواجب الاحتفاظ بالكتب بمكان امين ، ولذلك سيحتفظ بها في دولابه . وقد ألم مرض يجديي جعلها تلازم الفراش منذ عدة ايام ...

وحملت الكتب إلى أحد الباعة ، فاشترها مني بخمسة وعشرين كوبيكا رجعت بها الى جدي . وأفسدت الشهادة الشرفية بان « خرطشت » عليها ثم اعطيتها الى جدي الذي وضعها في دولابه بعناية فائقة من غير ان يتنبه إلى ما فعلته بها .

وما ان انتهيت من المدرسة ، حتى رجعت إلى حياة الشوارع التي أصبحت مع قدوم الربيع أكثر روعة وسحراً ... وأمسينا نكسب الآن كمية أوفر من المسال ، حتى اننا اصبحنا في ايام الآحاد نجوب الحقول والغابات ثم نعود في المساء إلى المنزل منهكي القوى ورغما من كل ذلك فالغبطة تملأ اساريرنا ، فتأصلت روابط الصداقة فيما بيننا .

بيد ان هذه الحياة لم تدم طويلا ، فما لبث زوج أمي ان فقد عمله فتركنا إلى مكان ما ، فأنت أمي واخي الصغير نيقولاي ليسكننا مع جدي . وبما ان جدي قد مضت للإقامة في منزل تاجر غني لكي تطرز له غطاء السيد المسيح ، كان من واجبي أن أسهر على تمرير اخي الصغير .

كانت أمي الناحلة الصامته ، تكاد لا تقوى على رفع قدمها عن الارض ، وكان اخي الصغير مصابا بقروح في يديه ، يذوي من الضعف ، حتى يكاد ان يمجز عن البكاء . فاذا جاع اخذ يثن بصوت يقطع نياط القلب واذا غفا أخذ يصعد زفرات قوية كالهـر .

وذاث يوم بعد ان تفحص جدي الرضيع قال :

— ان ما يحتاجه هو الغذاء الجيد ، لكن من اين لي ان اطعمكم جميعا ؟

فتنهدت امي واجابته بصوت خافت :

- انه ليس بحاجة إلى شيء كثير .

- هذا صغير .. وذاك صغير ... والجميع كثرة ...

وطوح بيده بشبه قرف ووجه إلى الكلام قائلاً :

- ان نيقولاي بحاجة إلى اشعة الشمس . فامض به إلى الرمال ...

اخذت كيساً من الرمل التنظيف الجاف ، وجمعتها في بقعة تطالها اشعة الشمس تحت النافذة ، وقد وارتيت فيها اخي حتى العنق كما أمرني جدي ، فأسر لذلك ... كنت احبه حباً جما .. فأظن انه يدرك كل أفكارني فأتمدد إلى جانبه ساعات طوال تحت النافذة .. كان نيقولاي يخلص ذراعيه ويمدهما نحووي هازراً برأسه الشاحب اللون ... وعندما يأتي الهجير كان جدي يمد راسه من خلال النافذة ويقول : « الغداء » .

وفي بعض الاحيان كان يأخذ اخي ويضعه على ركبتيه ويطعمه الغداء ، فكان يمضغ له الأكل المؤلف من الخبز والبطاطا قبل ان يدسه بين شفتيه .. وبعد ان يتناول الرضيع كمية من الطعام يأخذ جدي في رفع قميصه ويتحسس معدته قائلاً :

- لست ادري ان كان هذا يكفي ، اعتقد انه يلزمه كمية اخرى صغرى !

فتجيب امي القابعة في الزاوية حيث تضطجع :

- الا تراه يمد يديه نحو الخبز ؟

- ان الطفل لا يدري ان كان قد اكتفى أم لا .

فكان يلقمه كمية ثانية قائلاً في النهاية

- إمض به إلى والدته .

فكنت عندما آخذته بين ذراعي ، كان اثني يتعالى ماداً ذراعيه نحو المائدة وكانت أمي الهزيلة كشجرة عارية ، تقوّم نفسها مادة ذراعيها الهزيلتين اللتين قد ذوى منها اللحم . كنت اشعر انها مشرفة على الموت .. وكان جدي

يؤكد ذلك في حديثه عن الموت.. كان سرير جدي قائماً في الزاوية . فكأن  
عندما ينام يسرح ناظريه عبر النافذة . وقبل ان يفرق في نومه يدمدم بينه  
وبين نفسه :

— لقد آن وأوان الموت . وسوف نقابل الله .. ماذا عسانا أن نقول؟ لقد  
عملت طوال حياتي وهذا ما حصدنا ا

ككنت اضطلع بين النافذة والموقد في مسافة تقصرني جداً . فادفع بقدمي  
تحت الموقد حيث لا تنفك الصراير تدغدغ قدمي .. كان جدي عندما يعد  
الطعام على الدوام ، يكسر الزجاج النافذة بطرف الملقط ووجدت انه من المضحك  
أن رجلاً مثله لا يحاول قطع الطرف الذي يلامس الزجاج لينتهي من ضره .  
وذات يوم ، بينما كان شيئاً ما يقلي على الفرن ، اخذ الملقط ودفعه بشدة حتى  
تحطم الزجاج ومصراع النافذة وتهاوى الوعاء . فكأنت تلك مصيبة كبرى  
اقعدت المعجوز على الارض حيث شرع في البكاء . كان يرول :

« آه يا إلهي ، آه يا إلهي ! » .

وعندما مضى خارج البيت ، اخذت سكين الخبز وقطعت به طرف الملقط .  
وعندما عاد جدي إلى البيت وشاهد ما فعلت ، صرخ :  
— ايها الشيطان ، كان ينبغي ان تنشره ، هل انت سامع ؟ تنشره بالمنشار!  
كان باستطاعتنا ان نضع منه قطعاً من الدبابيس ونبيعها ، أف لهذه العشرة  
البلاء .

وعندما خرج مسرعاً ، قالت لي والدتي :

— من المستحسن أن لا تمد يدك إلى مطلق شيء .

وفي ظهيرة يوم الاحد من شهر آب توفيت . كان زوجها قد رجع مجدداً من  
سفره حيث وجد عملاً ، حيث استأجر جناحاً نظيفاً صغيراً واخذ معه جدتي  
ونيقولاوي ، وكانوا سينقلون والدتي اليه بعد ايام قلائل ...

وفي صباح اليوم الذي توفيت فيه ، قالت لي بصوت خافت واضح :



– إمضِ واخبر يفجيني فاسيليفيتش بانني أود مشاهدته .  
ونهضت مستندة إلى الحائط ...  
اردفت ، وهي ترمي ثانية على الوسائد .

– أعدو سريعاً !

لاحظت ان نوراً يسطع من عينيها وابتسامة تراود شفثيها ... كان زوج  
والدتي في الكنيسة ، فأرسلت بي جدتي إلى اليهودية كي ابتاع لها بعض  
« العطوس » . ولم يكن لدى هذه الاخيرة شيء جاهز منه ، مما ينبغي أن  
أنتظرها حتى تجهزه .

وفي النهاية عندما رجعت الى المنزل ، رأيت امي جالسة وقد ارتدت ثوباً  
جميلاً ليموني اللون ، وقد سرحت شعرها ، متكبرة مزهوة كما كانت في  
الماضي .

سألها بلهجة خجلة ، من غير ان اعلم سبب ذلك :

– هل انت احسن حالاً ؟

فحدجتنى بنظرة مرعبة وقالت :

– اقرب مني ، اين كنت تلهو ؟

وقبل ان اجيبها ، اخذتني من شعري وتناولت من على المائدة موساً طويلاً

ولطمتني بسطحه حتى سقط من يدها . قالت :

– تناوله ، هاته !

فأخذت الموسى واضعاً إياه على المائدة ، ومضيت لأجلس إلى الموقد وأنا

اتأمل والدتي بعينين فزعتين .

نهضت وسارت ببطء نحو الزاوية حيث تهاوت على الفراش واخذت تمسح

العرق الذي يبلل وجهها . كانت يدها تتحرك مذعورة وقد تهاوت على الوسادة

مرتين اثنتين والمندبل يرتجف بين اناملها .

– قليلاً من الماء ...

ملات قدحاً من الماء وناولتها إياه فرفعت رأسها بصعوبة وارتشفت جرعة منه . ودفعني بيد باردة وهي تصعد زفرة عميقة . تأملت في الزاوية ، ثم حرك شفيتها كأنها تبسم ، ثم أرخت جفניה الطويلين بتثاقل على عينيها .. بيتنا ففر .  
فما في دعر ولم يصدر عنه أي صوت وتوقف التنفس .

بقيت هناك مدة خلقتها اجيالاً طويلة والقدح في يدي أتأمل وجه امي وه يتفضن مكتسباً اللون الرمادي .

دخل جدي ، فقلت له :

— لقد توفيت امي .

فألقي نظرة عجلى على السرير وقال :

— لماذا تكذب ؟

ثم توجه إلى الفرن حيث شرع يحرك الفطير مثيراً ضجيجاً عالياً . تأملت وانا ادرك ان امي قد توفيت وانتظرت ان يتحقق من ذلك .

وولج زوج والدتي ، تناول بهدوء تام كرسيها وحملها إلى جانب السرير ؛  
وفجأة وقعت الكرسي من يده وصرخ بصوت مرعب :

— لقد ماتت ! هل ترى !

فاندفع جدي نحو السرير ، والملقط في يده ، وكادت عيناه ان تبرزتا من  
محجريها ..

عندما اخذوا يملون الرمل على نعش امي ، شرعت جدتي تنتقل بين القبور على غير هدى .. فارتطمت بأحد الصلبان ، وارتمت على الارض وقد تضررت وجهها . فحملها والد ياز إلى منزله . وبينما كانت تغسل جرحها همس في أذني بصوت خافت بكلمات معزية :

— ليحفظنا الله من الليالي السئمة ، ماذا جرى لك ؟ ينبغي ان لا تشغل نفسك بهذا الامر ، ألسنت على صواب ، ايتها الجدة ؟

ورنا عبر النافذة ، وفجأة عدا خارج المنزل .. ليرجع بعد قليل جاراً معه

الحمامة .. قال الرجل الهرم ملوحاً بمهراز محطم في يده .  
- تأملوا هذا تأملوا ما وجدنا . اننا انا والحمامة نقدمه هدية لكما . هل  
تشاهدون هذا الدولار الصغير ؟ لقد سقط من حذاء أحد القواذف . كنت  
أنوي أن أشتريه من الحمامة فقد عرضت عليه كوبيكين ...  
فقدمم الحمامة مفتاظا :

- ما الذي يجررك على الكذب ؟  
واخذ والد ياز يقفز امامي غامزاً بعينه :  
- ما قولكم به .. ان الحمامة يقدمه هدية لكما ، إنه ...  
عندما انتهت جدتي من غسل وجهها لفته بمنديل ونادتني لمرافقتها إلى المنزل  
بيد اني رفضت .. فقد كنت ادرك انهم سيتشاجرون حتما في الوليمة التي تتلوا  
المأتم . فقد تناهى إلى سمعي ، عندما كنا في الكنيسة صوت الخال ميخائيل  
يقول للخال ياكوف :

- سوف نأخذ قدحا لذيذاً هذا النهار ، ما رأيك ؟  
فحاول الحمامة ان يخفف عني ... فقد علق المهراز بذقنه وجرب ان يتوصل  
اليه بلسانه ، وشرع والد ياز يفرق في ضحك واضح المعالم انه يبالغ فيه ، وهو  
يصرخ :

- ارأيتم ما يفعله ، انظروا .  
بيد انه عندما وجد ان ذلك قد فشل في محاولة تسليتي ، قطب جادا فقال :  
- يكفي ، يكفي ! ان كل انسان مانت حتى العصافير ، اسمع سوف أضع  
بعض الاعشاب حول قبر والدتك ، هل تحب ذلك ؟ سوف نطوف البراري  
ونجمع ذلك العشب جميعنا ، انا والحمامة وانت وولدي ياز كذلك . سوف نحضر  
العشب ونضعه حول القبر بشكل جميل حتى لا يكون هنالك من قبر يضاهيه  
روعة وجمالاً .

لقد راقتني هذه الفكرة ، فمضينا جميعا إلى البراري ...

★★

وبعد فترة وجيزة من وفاة والدتي قال لي جدي :  
- حسنا يا الكسي ! انني في الواقع لا استطيع أن أجعل منك ميدالية فضية  
تتدلى حول عنقي ! فلم يعد يوجد لك مكان هنا بعد اليوم . فقد حان الوقت  
حتى تخرج إلى الحياة وترى الناس ..  
وهكذا خرجت منطلقا في الحياة إلى ما بين الناس .....



... لقد اصبحت الآن بين الناس انني « شغيل » في مخزن لصنع الاحذية  
كائن في الشارع الرئيسي من المدينة .

أما صاحب العمل فقصير القامة مربوعها .. تضرب اسنانه الى الخضرة ، أما  
عيناه فتميل إلى لون الماء العكر . ظننته كيف البصر ، فأخذت أقطب في  
وجهه لكي أوكد ظني .

قال لي بلهجة حازمة خافتة :

— لا تكشر هكذا !

فلم اصدق ان تكون عيناه تستطيعان الرؤية فقد كرهت ذلك كثيراً .  
وظننت أن رب عملي قد خمن ما أقيته ليس إلا .

لكنه أصر بعناد اكبر ، يكاد ان لا يحرك شفتيه :

— لقد قلت لك أن لا تكشر هكذا !

فأتاني صوته الخفيض كأنه يلاحقني :

— ولا تحك يديك . يجب أن تعلم انك تعمل في مخزن من الدرجة الاولى يقع  
في وسط المدينة . يجب ان يقف الشغيل عند الباب جامدا كالتمثال لا يأتي  
حركة .

لم اكن على علم بماهية التمثال . كما انني لم اجد سبيلا إلى عدم حك ذراعي  
الملطخة ببقع حمراء لا ترحم .

سألني وهو يختلس نظرة إلى يدي :

— ماذا كنت تعمل في البيت ؟

وعندما اخبرته بعلمي هز رأسه المستدير . الذي يلتصق فيه الشعر الأشيب  
في طبقات ، قال غاضباً :

— جمع الاسمال البالية ... هذا اسوأ من الشحادة ، حتى من السرقة .

فصرخت بلهجة لا تخلو من الاعتزاز :

— ولقد سرقت كذلك .

عند ذلك استند إلى مرفقيه ، وحدجني بنظرة مندهشة ، وصفر وهو  
جالس إلى مكتبه :

— ما .. ذا ؟ هل قلت انك سرقت ؟

فأوضحت له الامر ولماذا فعلت ذلك ...

— حسناً لننسَ ما حدث .. لكن إياك ان تسرق دراهمي أو احديتي فسوف

أدك بك في السجن حتى تبلغ سن الرشد .

قال ذلك بلهجة هادئة . الامر الذي ذعرت له وضاعف من كراهيتي له .

كان في المخزن مساعدان لرب العمل : ابن خالي ساشا ( ابن الخال ياكوف )  
ومساعد كبير ، وهو شاب ماهر . نحيف القوام ، مرح النفس . وكان ابن  
الخال ياكوف عظيم الاعتزاز بنفسه حتى انه كان يتجاهل وجودي ويتنكر  
لي .

فعندما أتى بي جدي إلى صاحب المخزن وطلب من ساشا ان يساعدني في

تعلم اسرار المهنة ، قطب ساشا ما بين حاجبيه بخطورة وقال :

— يجب عليه أولاً ان يعرف كيف يطيعني .

فدغدغ جدي رأسي بيده وقال :

- أطمعه ، فهو أكبر منك سنًا ومركزاً .  
 وعند ذلك حدّج ساشا بنظرة ذات معنى وقال :  
 - يجب أن تذكر كلمات جدك !  
 وطفق يستغل تقدمه في السن عليّ منذ أول يوم .  
 نبيه صاحب العمل قائلاً :  
 - كفاك حملقة يا كاشرين !  
 فحنى ساشا رأسه واجابه :  
 - انا ، ابي لم اخلق أبداً .  
 ويكون صاحب العمل لم يفته بعد من توجيه الارشادات اليه ..  
 - لا تشد بذقنك هكذا ... قد يحسبك الزبائن تيساً .  
 فضحك المساعد الأكبر بلهجة متحبة .. أما ساشا فتواري تحت المكتب  
 وقد علا الاحمرار وجنتيه من الحجل .  
 لقد سئمت هذه الكلمات : فهؤلاء الناس يستعملون كلمات غريبة حتى اظنهم  
 في بعض الاحيان انهم يتكلمون لغة اجنبية .  
 وغالباً ما كان المعلم يذهب إلى غرفة صغيرة كائنة في آخر المخزن وينادي  
 ساشا ، ويترك مساعده الأكبر مع بعض الزبائن . وما زلت أذكر انه في ذات  
 مرة قد مس ظهر قدم سيدة شقراء سمينة ، ثم جمع رؤوس ائامله إلى بعضها  
 وطبع عليها قبلة .  
 قالت المرأة بغنج :  
 - آه ! ... يا لك من خبيث  
 فانفجرت عند ذلك ضاحكاً بصورة مجنونة ، وقد تمسكت بقبضة الباب  
 حتى لا اقع فانفرج الباب واصطدم رأسي بزجاج فهشمه وسقطت ارضاً ...  
 فرفسني المساعد الأكبر ، في حين أن صاحب العمل قد دك رأسي بخائمه العظيم .  
 وحاول ساشا أن يشد اذني . ونبهني بلهجة حازمة ونحن في طريق عودتنا إلى  
 المنزل قائلاً :

- في المرة القادمة سيكون مصيرك الطرد.. ما الذي اضحكك بهذه الصورة؟  
كنت اجد حياتي الآتية باعثة على الضجر والملل . بعد ان اعتدت حياة  
اللهو والحقول والحرية والطواف على طول ضفتي نهر الاركا ، أو في شوارع  
كوتافينو الرملية . وكنت أشتاق إلى اصدقائي وجدتي .. فلا أجد انساناً  
اتكلم اليه ، ما عدا الجانب الخداع من الحياة الذي كان يثير غضبي وحتقي .  
فغالباً ما كانت السيدات يغادرن المخزن من غير ان يبتعن شيئاً ، وعند  
ذلك يثور غضب صاحب المخزن وقد ألم به الفشل ، فيأمرني وقد توارت عن  
شفتيه تلك الابتسامة المريبة :

- كاشرين . ارجع الاحذية إلى أماكنها :

ثم يشرع في كبل السباب والشتم من غير حساب :  
- انت تلك الخنزيرة تلوك بخرطومها هنا ، لقد كنت من الجلوس في البيت ،  
فأنت تنفس عن نفسها بالتجوال في المخازن . آه لو كانت زوجتي لأريتها نجوم  
الظهيرة ...

وبعد الغداء تمدد صاحب المخزن في الغرفة الصغيرة .. فنزعت غطاء ساعته  
الذهبية وسكبت بعض الخل في آلاتها . وكم كان سروري عظيماً عندما شاهدته  
يدخل المخزن بعد أن أفاق من نومه وقد امسك بالساعة في يده ، وهو  
يدمدم :

- ما قولكما في هذا الامر؟ لقد عرقت ساعتني من غير انتظار . لأنه لم  
يحدث من قبل أن عرقت . تأملا ذلك ! هذا بشير شؤم !  
وذاًت يوم ، بينما كنت افرغ صندوقاً جديداً في الساحة من البضاعة ، دنسا  
مني حارس الكنيسة ، رجل هرم مشوه الكتفين ، نحيل الجسم بال  
كالأسمال .

سألني :

- هلا سرقتم لي حذاء يا صغيري ؟

لم اجبه ، بيد انه جلس على صندوق فارغ ، وهو يتشاءب ثم رسم إشارة



على شفتيه ، مكرراً سؤاله :

- ملاّ فعلت ذلك ؟

فأجبتّه :

- ان السرقة أمر باطل .

فقال :

- لكنّها تقع ، هيا يا عزيزي ، وقيم بذلك احتراماً لشيخوختي .  
كان يبدو لي مختلفاً عن الآخرين . بشكل يبعث الطمأنينة ، وبقي يلح عليّ  
حتى قبلت أخيراً أن ألقى إليه بالخذاء عبر النافذة .

قال بلهجة هادئة ، ولكن بصورة غير مرضية :  
- حسناً ! انت لن تعشني ، اليس كذلك ؟ لا بأس ، فأنا أعلم أنك لست من  
الذين يسخرون من الناس .

وبقي جالساً مدة وجيزة من غير أن يتكلم ثم قال فجأة :  
- لكن ماذا لو كنت أنا أعشك ؟ ماذا لو اخذت هذا الخذاء إلى صاحب  
المخزن وقلت له بأنك قد بعثني إياه بنصف روبل وثنه يساوي روبلين ، ما  
رأيك ؟

تأملته بدهشة ، كأنه أبلغ ما وعد ، بينما أردف بصوت خفيض :  
- ما رأيك لو أن صاحب المخزن هو الذي دفعني إلى ذلك « إمض وجرب  
هذا الفتى الذي يعمل عندي ، وتحقق من مقدار أمانته » . ماذا عند ذلك ؟

فقلت مغتاضاً :

- لن أعطيك إياه !

فرد عليّ قائلاً :

- انك لا تقدر على التهرب بعد أن وعدت بذلك .

وأمسكني من يدي وشدني نحوه ، ونقر على جبّتي وهو يقول :

- كيف رضيت ، بهذه البساطة . ( خذ حذاءك ) !  
- لقد طلبته ، أليس كذلك ؟

- انني قادر على طلب أشياء عدة . فلو سألتك أن تسرق الكنيسة فهل تسرقها ؟ كيف تستطيع أن تثق بهذه البساطة في الناس ، أيها الأبله الصغير ؟  
ونهض وهو يدفعني عنه :  
- انني لست بحاجة إلى حذاء مسروق .. فقد كنت أمزح . وبما أنك قد وثقت بي فسوف أسمح لك بالصعود إلى برج الجرس . آتني في أسبوع الآلام ، حيث تقدر أن تشاهد المدينة وانت تقرع الجرس .

- انني أعرف المدينة .

- انها أجل من البرج بصورة أكثر .

ومشى ببطء ، وهو يذري الثلج بعقبه حذائه ، حتى تواري وراء زاوية من الكنيسة . وبينما كنت أتأمله وهو يرحل ، أخذت أسأل نفسي باضطراب :  
هل كان هذا الرجل يمزح فعلا ، أم أن صاحب المخزن قد بعثه ليجريني - واختلجت نفسي بالخوف وأنا أدخل المخزن .

صرخ ساشا بي وهو يلج الساحة عدوا :

- ماذا كنت تفعل كل هذا الوقت هنا ، بحق الشيطان ؟

فمررت « التناشة » أمام عينيه وقد اجتاحتني موجة عارمة من الحقد .

كنت أعلم أنه والمساعد يشتركان في سرقة صاحب المخزن . وقد يخفيان عدد من الاحذية في مكان حتى يحين وقت الانصراف . فينصرفان وقد أخفيا المسروقات في أكمام معطفيهما ، وهذا ما أغاظني وأرعبني في وقت واحد لأنني لم أنسَ بمد وعيد المعلم وتهديده .

سألت ساشا :

- هل تسرق ؟

فأجاب محتدأ :

— أنا لا أحاول السرقة مطلقاً ، بل إنني أساعد المساعد الكبير ، فهو يقول لي : « افعل ما أقوله لك ! » وأعتقد أنه سينتقم مني ان لم أفعل ما يأمرني به ، أما صاحب المخزن فإنه كان يوماً ما مساعداً في مخزن ما ، وهو يدرك جميع هذه الحيل . لكن يجب أن تلم لسانك !

كان يتأمل من غير انقطاع صورته في المرآة من غير أن يكف عن الكلام ، ويسوّي من رباطة عنقه .. وكان يصدر دائماً أوامره لتقدمه في السن عليّ . فقد كان يزعق في وجهي بصوت جهوري ، ويوميء لي بتمعجرف كبير .. كان يحقد على الطامية وقد كانت غريبة لا يستطيع المرء أن يتحقق من أنها شريرة أم طيبة .

كانت تصر على أسنانها وتحملق بعينها وهي تقول :

— أحب المشاجرة أكثر من أي شيء آخر ..

وكان اذا نشب قتال بين الحمام أو الديكة خارج البيت ، كانت تترك عملها وتسرع الى جانب الحائط حيث تقبع واقفة الى أن ينتهي القتال .. وكانت في المساء تلتفت الى ساشا قائلة :

— لماذا تقبعان هنا ، أيها الصبيان ؟ لماذا لا تتشاجران في معركة وديّة .

فيشتعل ساشا حقدأ :

— لست صبياً ، أيتها العجوز البلهاء ، انني المساعد الاصغر !  
— ما أصعب تصديقي ذلك ! سوف تبقى صبياً في نظري حتى يوم زفافك .  
— أف لك من عجوز حقاء ، خاوية الرأس !  
... الشياطين ذكية ، والله لا يجيبها !  
كانت طريقة حديثها تغيظ ساشا .. فكان يحاول مضايقتها وان فعل كانت

ترمقه بنظرة سريعة وتقول :

- تقو ! أيها الصرصور الحقيير ، يا مصيبة الله الكبرى .

كانت ، عندما تشعر بالسأم والضجر ، تطلب مني أن أقص عليها بعض الروايات ، فأروي لها وأنا نصف يقظان وهي ما زالت مطبقة الشفتين تهتز الى الوراء والامام . ويخيل لي أن رائحة من الشمع والبخور تفوح من جسدها ، وانها سرعان ما ستموت . . فأشعر بخوف يمتاحني ، فأرفع من صوتي . فتقاطعني قائلة :

- صه ! ستوقظ أولاد الزني هؤلاء فيعتقدون أنك عشيقتي .

كانت دائماً تجلس في وضع معين حانية الظهر ، وقد التفت يداها حول ركبتيها وضغطت ساقها بشدة على بعضها ، حتى أن أضلاع صدرها كانت تبدو من تحت قميصها الحشن . . كانت تقبض هكذا مدة طويلة وفجأة تقول بلهجة هامسة :

- ليتني أموت ، لكي أتخلص من هذا الشقاء !

أو تلتفت إلى أحدم قائلة :

- لقد أمضيت أيامي ، فما هو نفعها ؟

حتى انها كانت لا تتوانى عن مقاطعتي في منتصف القصة لتقول لي بنبرة حادة :

- هيا إلى النوم !

كان ساشا يناديها من وراء ظهرها : « الساحرة العجوز » وذات مرة قلت

له أن يناديها وجهاً لوجه بهذا الاسم ، فصرخ :

- أتعقد أنني أخاف ؟

لكن سرعان ما قطب وجهه وأردف :

- كلا ، لن أناديها بذلك في وجهها . فربما تكون ساحرة فعلا .

لم تكن ترحم أي شخص أبداً فهي الغضوب المتعجرفة ، كانت تشدني متى

قدمي في السادسة صباحاً ، وقصرخ :  
- يكفي شخيراً ، انهض واحضر الحطب ، وقشر البطاطا !

كان ساشا يهب من نومه على صوت صراخها ، فيصرخ في وجهها :  
- لماذا تنبحين ؟ سأخبر صاحب المخزن بانك لا قتركين لنا فرصة للنوم .  
تنهض وهي تسمر عينيها المشتعلتين في وجهه متجهة نحو المطبخ وتقول :  
- تقو ، يا مصيبة الله الكبرى ! لو كنت أجيري لما أبقيتك لحظة .

فيسبها ساشا :

- لعنة الله عليك !

ثم بصرح لي ولحن في طريقنا إلى المخزن :  
- سأجعلهم يتركونها . سأضيف إلى الطعام كمية كبيرة من الملح في غفلة عنها  
وبما أن الطعام سيكون دائماً مالحاً فإنهم سيضطرون إلى طردها . بل سأضع  
بترولاً ، لماذا لا تفعل ذلك ؟

- لماذا لا تفعله أنت ؟

فصرخ في وجهي :

- جبان !

وتوفيت الطاهية أمام ناظرينا . فقد كانت منحنية لترفع شيئاً عن الأرض ،  
فتدحرجت على جنبها وأرخت يديها ، وأخذ الدم ينزف من فمها .  
وبقينا فترة عاجزين عن الكلام ، واخيراً انطلق ساشا خارج المطبخ ...  
وأقبل صاحب المخزن ، وجلس القرفصاء إلى جانبها مضطرباً ثم جس جسدها ،  
وقال :

- لقد توفيت فعلاً . ما قولك في ذلك ؟

ثم أخذ يرسم اشارة الصليب ، حتى اذا انتهى من صلاته صرخ عبر  
المشى :

كاشرين ، انطلق واعلم الشرطة !

وأتى أحد رجال الأمن ، وأخذ يتنقل بثناقل .. حتى قبض رشوة ومضى .  
وسرعان ما عاد بصحبة سائق عربية ، وحملا الطاهية ونقلاهما إلى الخارج .  
وكانت امرأة صاحب المخزن تسترق النظر من فتحة الباب .  
قالت تأمرني :

- أفرك الأرض جيداً  
وتنهد صاحب المخزن قائلاً :  
- حمداً لله أنها توفيت في المساء .  
ولم أدرك لماذا يحمد الله على ذلك ..

وعندما اضطجعت في الفراش قال ساشا بلمهجة غير ممهودة من الرقة :  
- لا تطفئ النور !  
- هل أنت خائف ؟

فغطى رأسه باللحاف ، وركن إلى السكون مدة طويلة . وكان الليل بدوره  
هادئاً صامتاً كأنه يسترق السمع إلى شيء ما . وتخيلت أن رنين الأجراس سيتعالى  
بعد لحظة ، وان سكان البلدة سينهضون هلعين وهم يتدافعون في شيء من الخوف  
والجزع .

ثم أخرج ساشا أنفه من تحت اللحاف . واقترح عليّ بلمهجة رقيقة :  
- لنم جنباً إلى جنب على الموقد .  
- الحرارة شديدة هناك .  
ثم غرق في الصمت من جديد...  
وأخيراً قال :  
- ألم تتركنا فجأة ؟ لقد ظننتها ساحرة . ان النوم لا يراود أجفاني .  
- ولا أنا .

وشرع يتحدث عن الأموات ، وكيف ينطلقون من قبورهم الى البلدة في منتصف الليل . مفتشين عن منازلهم وأهلهم .

ثم همس في أذني قائلاً :

– الموتى يتذكرون البلدة فقط ، بيد أنهم لا يتذكرون الشوارع والمنازل .  
واشتدت السكينة وخيل إلي أن الظلام يشتد حلقة ...  
... كانت الرياح تعصف والمطر ينهمر ضارباً النافذة بجيبياته .. فاستدار  
ساشا تجاه الحائط ولاذ بالصمت .

وفجأة من غير أن يلتفت إلي قال :

– مهلا حتى تجف أرض الحديقة .. سأريك شيئاً يبهر أنفاسك .  
واتجهت إلى الفراش من غير أن أجيبه .

وبعد لحظات من ذلك هب من فراشه فجأة ، وأخذ يضرب الحائط ثم قال  
بصوت أدركت منه مبلغ خوفه وهلمه :

– إنني خائف .. آه يارب ، هل أزلت خوفاً يا رب ، ارحمني !

وفجأة سرت عدوى الخوف إلي فشعرت برعشة خوف باردة تجتاح أوصالي  
وتحملت الطاهية تقف إلى النافذة وهي تشد نفسها إلى الزجاج وقد أولتني ظهرها ،  
كما هي عاداتها حين تراقب مشاحنة الديكة .

بعد بضعة أيام أقبل علينا عيد لم نشتغل فيه إلا قبيل الظهر ، فرجعنا أدراجنا  
الى البيت لتناول طعام الغداء ، وبعد أن آوى صاحب المخزن وزوجته لأخذ  
قسط من النوم في الظهيرة أقبل عليّ ساشا خفية وقال :

– تعال معي !

وأدركت أنه في سبيل مرافقتي الى رؤية ذلك الشيء الذي سيهبر أنفاسي .  
زلنا الى الحديقة فاستدار ساشا حول البيت متجهاً نحو سور الشارع ثم توقف  
تحت إحدى الشجيرات ، وبقي واقفاً فترة طويلة يراقب المنزل المجاور وجلس

القرفصاء ، فجأة وأخذ يزيل كومة من الأوراق بيديه ، حتى كشف عن جذع معوج وقرميدتين قد غرقتا في الأرض الى جانبه. فأزاح القرميدتين فاذا بصفيحة من القصدير قد فرشت تحتها ، وما ان أزاحها حتى شاهدت حفرة عريضة في باطن الأرض .

أخذ ساشا عوداً من الثقاب وأشعل بقايا شمعة قد خبأها في تلك الحفرة .  
ثم قال :

– أنظر ؛ لكن لا تخف .

كان الخوف يرسم على وجهه بوضوح تام ، فالشمعة ترتعد في يده ، واصفّر لونه ووارى يده الثانية خلف ظهره ، وانتقلت عدوى الخوف إليّ ، فتأملت باحتراس بالغ إلى ما تحت الجذع الذي يشكل قوساً لكهف صغير. في حين أشعل ساشا ثلاث شمعات بهرت المكان بنور أزرق ، كان الكهف بالغ العمق وقد غطيت جدرانها بقطع من الزجاج الملون والفخار . وفي وسطه مرتفع صغير وضع عليه نعش قد صنع من القصدير الرقيق . شبه مغطى بقطعة مسن القماش تشبه النسيج الحريري . ومن تحت هذا الغطاء كانت مخالب رمادية لعصفور دوري تبرز مع منقاره الصغير .

كان نور الشمعات الثلاث يتجه نحو فوهة الكهف فيشكل ألواناً براقية متعددة . كان الكهف يعبق برائحة التربة والعفونة في فترات متراوحة ، بينما ارتسمت ألوان قوس قزح أمام ناظري . كل ذلك أثار في نفسي الدهشة وبدد خوفي وأزاله .

سألني ساشا :

– أليس هذا بديعاً ؟

– لكن ما فائدته ؟

فأوضح لي :

– إنه مكان حرم ، أفلا يبدو لك كذلك ؟



- لست أدري .  
- العصفور الدوري يمثل الجسد . وربما أصبح جثائه معجزة مقدسة لأنه  
قضى ضحية بريئة !

- هل عثرت عليه ميتاً ؟  
- كلا . لقد دخل الكهف ، فاصطدته بقبعتي وخنفته .  
- لماذا فعلت ذلك ؟  
- هذا ما حدث .

وحدجني بنظرة غريبة من جديد ، واستوضح :  
- أليس هذا بديعاً ؟  
- كلا !

فانثني وسد الكهف بسرعة بواسطة القطعة الخشبية ، وقطعة القصدير ثم  
أرجع القرميدتين إلى مكانها ، ثم نهض واقفاً وهو يزيل التراب العالق على ركبتيه  
وقال بلهجة جافة :  
- لماذا لم يعجبك ذلك ؟

- لأنني حزنت على ذلك العصفور الدوري .  
ثم سرح نظره في نقطة بعيدة كأنه يسترجع شيئاً ما ثم لطمني على صدري  
فجأة ، وزعق قائلاً :

- أحق ! لقد زعمت أنه لم يعجبك لأنك تغار . بل ربما تعتقد أنك رقت  
زاويتك في الحديقة بصورة أجمل ، هناك في شارع الكافانائيا ؟  
فأجبت من غير تردد ، وقد عادت صورة الزاوية إلى مخيلتي :  
- انه فعلاً كذلك بكل تأكيد .  
فنزح ساشا معطفه ورماه أرضاً ونفت في يديه وصرخ :  
- حسناً إذن لنتقاتل .

لم اكن اجد رغبة في القتال في ذلك الحين فقد كنت متضجراً من كل ذلك .  
فلم اعد اطيع رؤيـة وجه ابن خالي الفاضل .  
هجم عليّ والقائي رضاً ثم جثم فوق اضلاعي صائحاً :  
- الحياة ام الموت ؟

كنت اشد منه وقد ثار غضبي الآن . ولم يمض زمن حتى كان متهاكاً علي  
الارض وقد خارت قواه ، واضعاً يديه فوق رأسه ، وجربت ان انهضه ، وقد  
شعرت بقلتي عظيم بيد انه دفعني عنه ، مما ضاعف قلتي . وابتعدت عنه لا ادري  
ماذا افعل .

- لقد تغلبت عليك الآن . سأظل متمدداً علي الارض حتى يماثر عليّ  
صاحب الخزن وسأعلمه بكل شيء فيطردك .  
واخذ يكيـل لي الشتائم مما اثار غضبي ، فقصدت الكهف ، وانزعجت  
القرميدتين ، والقيت بعش العصفور من فوق السور ، ووطئت الحفرة بقدمي .  
- اليك اليك هل شاهدت هذا ؟

كان رد فعل ساشا شديداً . فقد اقتعد الارض وفمه نصف مشدوق ، وقد  
تقوس حاجباه ، يتأملني من غير ان يقول كلمة وعندما انتهيت مما فعلته ، نهض  
علي مهله نافضاً عنه الغبار ، ثم القى بمعطفه علي كتفيه ، وقال بلهجة هادئة فيها  
شيء من الوعيد :

- سوف تشاهد ما يحصل . مهلاً لقد فعلت هذا من اجلك فقط ، انه  
سحرا وقد تم الآن .  
فشعرت ببرودة تسري في اوصالي كالجليد قتهاويت في مكاني وابتعدتني  
ساشا من غير ان يتطلع وراه .. محطمني ببروده ذلك .  
وتم رأبي ان اهرب في صباح اليوم التالي من المدينة وصاحب الخزن ومن ساشا  
وسحره حتى من الحياة الرتيبة الموحشة .

صرخت الطاهية الجديدة وهي تنبهي من النوم في الصباح :  
- يا الهي ! ماذا جرى لوجهك ؟  
فقلت بيني وبين نفسي ، وقد انتابني شعور من الرعب :

- لقد بدأ السحر فعله !  
بيد ان الطاهية انفجرت ضاحكة حتى انني لم اتمالك نفسي من الابتسام  
عندما رأيت وجهي في مرآتها . كان وجهي قد غطي بطبقة كثيفة من الهباب .  
سألت :  
- هل ساشا فعل ذلك ؟  
فقهرت الطاهية قائلة :  
- قد اكون انا التي فعلت ذلك .

وشرعت في تنظيف الاحذية بيد انني ما ان وضعت يدي داخل احدها  
حتى لذعني وخز دبوس ، فقلت في نفسي :  
- لعل هذا ايضا من فعل السحر !  
كانت الابر والدبابيس قد وضعت بأحكام في جميع الاحذية بصورة لا بد لها  
من وخز اللحم . فأخذت وعاء من الماء البارد وصبته بغبطة كبيرة فوق رأس  
الساحر الذي كان لا يزال يغط في نومه أو أنه كان يتظاهر بالنوم .

بيد أن الشقاء من ذلك لم يفادرتي . حتى انني لم استطع التخلص من رؤيا  
النمش الذي يلذ المصفور الدوري ومخالبه العارية بينما نور ساطع يشع من  
حواله يحاول عبثاً ان يلم نفسه في قوس قزح . واتسع النمش وكبرت مخالب  
المصفور ، واخذت تكبر وتكبر ، حتى دبت فيها الحياة .  
قررت في تلك العيشة على الهرب . بيد انني بينما كنت أسخن الحساء على النار  
قبيل الغداء ، فسبحت في بحر من التصورات والاحلام وبقي الحساء يغلي كثيراً .  
وعندما حاولت اطفاء النار انقلب القدر على يدي فارسلت الى المستشفى .

كان الناس جميعاً وخاصة جدي وجدتي يرددون دائماً ان الناس يتضورون جوعاً حتى الموت في المستشفى . فادركت ان ايامي قد امست معدودة . واقتربت مني امرأة ذات نظارتين وكتبت شيئاً لم ادركه بالطبشور على لوحة مشبته عند رأس سريري . فتكسرت الطبشورة وتناثرت على شعري .

سألتنى :

-- ما اسمك ؟

- ليس لي اسم .

- ليس لك اسم ؟

- كلا .

- يكفي هزراً ، وإلا ضربت .

وانني كنت على يقين تام بانهم سيجلدونني ، أبيت ان اجيبها إلى طلبها ..

فبصقت ثم توارت .

واشعل قنديلان واخذنا يلتهبان كأنها يودان ان يتحدا بنور واحد .

تعالى صوت احدم في زاوية ما :

- هيا نلعب بالورق .

- وكيف العب بيد واحدة ؟

- آه لقد بتروا ذراعك اذن ، اليس كذلك ؟

وخيل الي انهم بتروا ذراعه لانه لعب الورق فاخذت اتساءل ماذا يحل بي

قبل أن يقتلوني .

وتطاول الليل حتى بدا كأنه اعوام . فانزلت قدمي على الارض ونهضت

باتجاه الباب المزدوج . كان شبه مفتوح فيما ان وصلت اليه حتى بسدا لي شبح

في الظلمة قابض على صخرة اشيب الشعر وشاهدت عيناه تحمقان بي ، فحارلت

الاختفاء .

– من الذي يتجول هناك ؟ تعال هنا !  
كانت رنة الصوت ناعمة لا توحى بالرعب أبداً . فتأملت طريقي ، وتأملت  
وجهه المدور الملتحي . كان شعره يتناثر في جميع الأرجاء كهالة فضية . وسلسلة  
من المفاتيح تتدلى من حزامه .. وخيل لي أنه لو كان شعره ولحيته أطول بقليل  
لكان أشبه خلق الله بالقديس بطرس .  
– هل انت ذو اليدين المحروقتين ؟ لماذا تتجول في حلقة الليل ؟ هذا شيء  
يخالف القوانين واللائحة المرعية .

ثم نفث الدخان في وجهي وطوقني بذراعه الدافئة وشدني اليه :  
– هل انت خائف ؟  
– اجل .

– الجميع هنا يخافون لأول مرة . بيد انه ليس من داعٍ للخوف . وخاصة  
معى ، لانني لا اترك احداً يصاب باذية .. اين والدك وولدتك ؟ ليس لك من  
اب ولا ام ؟ لا بأس ، لا حاجة بك اليها فينبغى ان تتدبر امورك من دونهما .  
لان اظافرك لم تعد ناعمة .

لقد مضى وقت بعيد لم اصادف فيه انساناً يتحدثني بهذه الاحاديث البسيطة  
الناعمة ، وكنت اجد لذة في الاستماع الى اقواله .  
ثم ارجعني الى سريري .  
رجوته :

– إبقى لحظة أخرى معى .  
فاجاب :

– حسناً ، سأبقى .

– من انت ؟

– جندي ، لقد حاربت في القفقاس ، وحاربت في معارك عديدة وهذا

شيء طبيعي اذ أن الجندي يعيش لخوض المعارك . وقد اشتركت في صفوف  
الهنغارين والشراكسة والبولونيين ، ان الحرب يا بني شر كبير .  
وغفيت برهة ، وعندما أفقت من غفوتي وجدت جدتي جالسة مكان  
ذلك الجندي ، بينما قد انتصب هو في جوارها ، يقول :

- وهكذا توفي الجميع . لا تقولي ذلك !  
واشرقت الشمس بطلعة بهية كطفل يرح ، ثم اختفت بسرعة صابغة كل شيء  
في الافق بلون اشعتها الذهبية ، لتعود أدراجها من جديد باشراق جديدة  
فتملأ الكون باشعتها الدافئة .  
اثنت جدتي وسألتنني :

- ماذا جرى لك ، يا صغيري ، هل تأذيت ؟ لقد اعلمت ذلك الوحش  
الاحمر الرأس بالقضية ..  
فقال الجندي ، وهو يذهب :  
- سأدبر كل شيء ، في لحظات ، وفقاً للانظمة والقوانين .  
قالت جدتي وهي تمسح الدموع عن وجنتيها :  
- يظهر ان هذا الجندي من بالاخنا .  
وركنت الى صمت عميق وانا اعتقد انني ما زلت غارقاً في بحر من  
الاحلام .

ثم اتى احد الاطباء وضمم لي يدي ، ثم غادرت المستشفى بصحبة جدتي  
فاجتازنا شوارع المدينة ونحن في عربة .  
قالت جدتي :  
لقد فقدت عقله . واصبح عظيم البخل ، حتى انه يثير الاشمئزاز ..  
كانت السحب تتطاير في السماء كالعصافير والشمس تتلألأ بانوارها .. واخا  
قلبي يفرد كالحسون :

- كم احبك ، يا جدتي ا

فلم تندمى لذلك .

قالت ببساطة :

- هذا طبيعى .. بيسد اننى لا استطيع ان اقول أن الغريباء كذلك

يحبوننى .. لتكن العذراء الطاهرة مباركة ا

واردفت وهي تبسم .

- لسوف تفرح سريعاً ، فابنهما سيقوم من بين الاموات ، اما ابنتى انا ،

فاريوشا ..

وركنت الى صمت عميق ا

\* \*

وجدت جدي في ساحة المنزل حيث كان راکعاً يسوي عموداً بفأسه . القى  
 الفأس كأنه بهم أن يضربني ، ثم نزع قبعته وقال بلهجة استهزاء ومهاترة :  
 - أهلاً بكم بيننا ، يا صاحب السعادة المعظم . ها قد انتهت خدمتك ؟  
 حسناً تستطيع ان تعيش كما يحلو لك . تفو !  
 فقاطعته جدتي وهي تلوح بيدها :  
 - نعلم هذا كله .

وعندما ولجنا الغرفة التفتت اليّ جدتي قائلة :  
 - لقد افلس جدك هذه المرة تماماً ! فقد اعطى جميع ما عنده من مال  
 لنقولاى ، ابنه في المعمودية ، ليعمل به لحسابه من غير ان يأخذ ايصالاً بذلك .  
 لست اعلم ما جرى بالتأكيد ، لكنني اعلم انه فقد جميع ما يملك ، هذا جزاء  
 من لم يساعد الفقراء والمساكين لم نرحم البؤساء وهكذا فعل الله فلم يرحم آل  
 كاشرين . فأخذ منا كل شيء .

وتلفتت حولها ، و اردفت :  
 - وقد عملت جهدي كي احزن قلب الله حتى لا يقسو كثيراً على العجوز  
 الهرم . فاني اخرج في الامسيات ، أوزع بعض الحسنات على الفقراء مما اكسبه .  
 في استطاتنا الليلة الذهاب معاً اذا اردت فعندي شيئاً من المال .



ويدا جدي في الباب ، كالح الوجه كئيب الطلعة .  
قال :

- هل حصلتيا على ما تقوتان به أنفسكم ؟

فأجابته جدتي :

- لسنا نقتات من أموالك . باستطاعتك أن تبقى معنا إذا شئت فهناك ما  
يكفيننا .

فجلس إلى الطاولة ودمدم بلطافة :

- اسكبي لي قدحا .

لم يتغير شيء في الغرفة ، سوى زاوية أُمي المهجورة التي تبدو كئيبية المظهر ،  
وعلى الحائط فوق سرير جدي علقت ورقة كتب عليها باحرف كبيرة: «خلّص  
ايها المسيح نفسي ... لترافقني رحمتك طوال حياتي حتى ساعة وفاتي » .  
- من كتب هذا ؟

فلم يجر الجسد جواباً ، بينما قالت جدتي بعد لحظة من الصمت وهي  
تبتسم :

- هذه الورقة تساوي مائة روبل .

فصرخ جدي :

- هذا شيء لا يخصك . ساهب جميع ما أملك للغرباء !

فأجابته جدتي بلهجة صارمة هادئة :

- لم يبقَ عندك شيء تهبه ، وإذا بقي فأنت تبخل به على نفسك .

فزعل الجسد :

- صمتاً !

وأنتني أخبار فاجعة موت فياخير وأنا في الشارع في أسبوع الآلام ، لقد مات  
بالجدري ، وانتقل غايي إلى المدينة ، في حين أن ياز فقد القدرة على المشي فهو غير

قادر على مبارحة منزله . وقال لي كوستروما القاتم العينين ، وهو يقص عليّ  
هذه الاخبار :

- ان الأولاد يموتون سريعاً !

- لم يميت غير فياخير .

- الأمر سيان . عندما يمضي الفتى في الشارع تستطيع أن تعتبره ميتاً .  
انك لا تكاد تصادق أصدقاء وأصدقاء وتجمعك الألفة بأحدم ، حتى يبعثوا به الى العمل  
أو يطوي الموت حياته . وقد استأجر سكان جدد في ساحتك عند شيسنو كوف  
ولهم صبي اسمه لوشكا ، صبي طيب ، شديد الهزال ، وابنتان ، الواحدة صغيرة  
والأخرى عرجاء ، تمشي على عكازين . وهي جميلة .

واردف بعد فترة :

- لقد وقعنا أنا وشوركا في هواها . ولا نزال طوال الوقت نتخاصم .

- معها ؟

- بالطبع لا . فيما بيننا ، فنحن قليلاً ما نتخاصم معها .

وشاهدت الفتاة العرجاء في عشية ذلك المساء . كانت تنزل سلم الساحة ،  
فأفلتت منها عكازتها ، فبقيت مكانها غير قادرة على الحركة ، وقد تشببت  
بالدرازين . فحاولت بنفسي أن التقط العكاز ، بيد أن ضمادات يدي خانتني ،  
فبقيت مدة أحاول مفتافاً بينا وقفت هي تتأملني وتضحك برقة بالغة .

سألتنى :

- ماذا جرى ليديك ؟

- لقد حرقتها .

- وأنا عرجاء . هل تسكن في هذه الناحية ؟ هل أمضيت زمناً طويلاً في

المستشفى ؟ لقد أمضيت فيه مدة طويلة .

وأردفت بعد أن أصعدت تنهدة حرى :

— مدة طويلة هائلة .

كانت ترتدي ثوباً ابيض عتيقاً ، ومع ذلك فهو مرتب المنظر .. كان شعرها المسرح ناعماً ينساب على صدرها في صفائر قصيرة ، تضيء الوداعة في عينيها ..  
تعلمو مبسما ابتسامة عذبة ، مع كل ذلك لم ترق لي حتى ان كل كيانها المريض يكاد ان يقول :

— لا تلمسني ارجوك ا

شعرت بالاضطراب ، فرجعت ادراجي الى المنزل .

\* \* \*

وتتالت الحياة ، سريعة .. فكان كل مجرى فيها يفعم نفسي بانطباعات  
تغبطني ، او تكدرني ، او تشلني ، او تحملني على التأمل والتفكير .  
وسرعان ما شعرت برغبة عارمة تتأجج في نفسي لرؤية تلك الفتاة العرجاء ،  
والتحدث معها ، او الجلوس الى جانبها بهدوء وسكون قرب البوابة . حتى ان  
الجلوس بجانبها بصمت عميق كان يبعث في نفسي الغبطة ، كانت نظيفة مرتبة  
تجيد وصف الحياة في القوزاق حيث عاشت فترة من الزمن مع عمها وهو  
ميكانيكى في مصنع للزبدة والألبان ، ثم رحل والدها وهو صانع اقفال ، الى  
نيجني نوفجورود .

— ولي عم آخر يعمل في خدمة القيصر نفسه .

في امسيات الأعياد كان الناس القاطنون في ذلك الشارع ينطلقون من منازلهم  
فيمضي الفتيان والفتيات الى المقبرة يتنزهون وينشدون اعذب الأغاني ، بينما  
ينطلق الرجال الى الحانات ، ولا يبقى في الشارع غير النساء والأولاد ... كنا  
نلعب بجوية فائقة ومنافسة وحشية ، ومهما غرقنا في لعبنا ، شوركا وكوستروما  
وانا ، فمن المؤكد اننا نخصص بعض الوقت لنعدو نحو الفتاة العرجاء ونمتر  
بهارتنا وقوانا .

— هل شاهدت كيف رميت الاوتاد الخمسة بضربة واحدة ، يا لودميلا ؟  
فتبتسم برقة ، وهي تهز رأسها .

كانت شلثنا تلعب ، فيما سبق ، في صف واحد من اللعبة ، أما الآن فاني  
ألاحظ أن شوركا وكوستروما يفترقان في معسكرين مختلفين ، ويعملان بشق  
الطرق للتنافس في المهارة والقوة الى درجة المشاجرة في بعض الاحيان . وقد  
تشاجرا ذات مرة بعنف شديد اضطر معه الكبار الى التدخل ، وقد سكبوا  
عليها الماء فكأنها كلبان يتعاركان .  
كل ذلك ضايقي وكدرني . فقد أدركت انني أفتقد صديقي ، والسبب في  
ذلك كله لودميلا وحدها .

وبينما كنت ، ذات مساء ، أفرز العظام والحرق والاسمال التي جمعتها ،  
أنت لودميلا ووقفت أمامي وهي تلوح بيدها اليمنى .  
هزت رأسها مرات ثلاث ، ثم قالت :  
— مرحباً ، هل ذهب معك كوستروما ؟  
— أجل .

— وشوركا ؟  
— لم يعد يلعب شوركا معنا مطلقاً . وانت السبب في ذلك . لقد وقعا أسير  
هواك . وهذا ما يدفعها الى القتال .  
فاحمر وجهها ، بيد انها أجابت مازحة :  
— لا تقل ذلك ! لماذا انا المسؤولة ؟  
— لماذا اوقعتها في غرامك ؟  
فأجابت محتدة .  
— لم اطلب اليها ان يقعا في غرامي ؟

وأضافت وهي تمضي :

— هذه سخريه ا فأنا اكبر منها سنأ . إني فتاة في الرابعة عشرة من عمري .  
والفتيات لا يقعون في غرام فتيات يكبرنهم سنأ .  
فصرخت ، وأنا أتمد إغاظتها :  
— حقأ ! هلا تأملت صاحبة المتجر ، أخت كليست ، فهي كبيرة في السن ،  
ومع ذلك فالفتيان يلاحقونها !  
فغرق عكازها بعميقأ في الرمال وهي تلتفت إليّ بغضب .  
قالت بسرعة ، والدموع تترقرق في مقلتيها ، وقد غصت الكلمات في  
فمها :

— أنت لا تدرك الأشياء ، فصاحبة الخزن امرأة ساقطة ، هل تظنني  
كذلك ؟ إني ما زلت صغيرة . ولا ينبغي أن يمسي احد أو يقرصني ... لو  
انك طالمت الجزء الثاني من «الكامشادلكاه» لما تلفظت بهذه الأشياء !  
وانطلقت باكية ، فشعرت بالأسف من اجلها . إن عباراتها تحوي في الواقع  
اشياء من حقيقة لم اكن ادركها بعد . لماذا يقرصها رفيقاي ؟ وهما يدعيان  
حبها !

وفي اليوم التالي اردت ان اكفر عن ذنبي ، فاشتريت بسبعة كوبيكات  
«سكر النبات» وكنت اعلم انه الصنف المفضل من الحلويات عند لودميلا ،  
فسألتها :

— اتودين شيئأ من هذا ؟

فقالت ، وهي تتصنع الغضب :

— اليك عني الا اريد مصادقتك !

بيد انها ما عتمت ان تناولتها قائلة :

- كان يجب أن تضعها بورقة على الأقل ، فأمل قدارة يديك .
- لقد غسلتها ، بيد أن لونها لم يتغير .

فأخذت يدي في يدها الحارة الجافة ، وتأملتها :

- لقد شوّمت يديك .
- وكذلك أصابعك مخزّمة .
- هذا من فعل الإبرة . فأنا أخيط كثيراً .

وبعد لحظات ، تلفتت حولها قائلة :

- لنختبئ في مكان ما لنقرأ « الكامشادلكا » ما رأيك ؟

امضينا وقتاً طويلاً حتى وجدنا المكان الملائم . وقررنا في النهاية ان نأتي إلى ممر غرفة الغسيل ، وبالرغم من انه معتم فإنه باستطاعتنا ان نقبّع إلى النافذة المطلة على فسحة قد فرشت بالقرش ، وميزة هذا المكان ان الناس لا يأتونه إلا نادراً .

وهكذا قبعت لودميلا إلى النافذة ، ومدت ساقها المريضة بينما استندت الساق السليمة إلى الارض ، وقد امسكت بيديها كتاباً بالبرواخذت تسكبه منه على مسامعي جداولاً من العبارات الكثيرة المبهمة . كنت اشعر برغبة ملحاحة بأن اصيغ هذه الكلمات بعبارات شعرية واحاول ان اضعها في عدة قوالب الشيء الذي حال بيني وبين متابعة وقائع الكتاب ،

استوضحت الفتاة :

- هل انت صاغر ؟

فهزرت برأسي ، وازداد اضطرابي لتلك الكلمات ... وما ان انتشر الظلام حتى ارخت لودميلا يديها الشاحبتين المسكتين بالكتاب .

سألتنني :

- أليس بديعاً ؟ لقد قلت لك أنه سيكون بديعاً .

وأصبحنا نتردد بكثرة إلى ذلك المكان حيث تجلس لودميلا وتشعر بقراءة كتاب « الكامشادلكا » ... كنا نشعر بضبطة عظيمة في الايام الماطرة . فليس من شخص يفادر داره والمطر ينهمر بغزارة .. وهكذا لا تصدف أن ير انسان بنافذتنا القائمة . وكانت لودميلا تضطرب خوفاً من أن يكتشف امرىء مكاننا ويجدنا منفردين .

سألتنى بصوت هامس :

- هل تدرك ما يعتقدون آنذاك ؟

كنت أدرك ذلك ، لذلك كنت أحرص ان لا يكتشف امرنا ...

لكن سرعان ما تركنا هذا المكان ، اذ أن والدة لودميلا قد وجدت عملا عند تاجر فراء، ومضت اختها الى المدرسة في حين أن أباها أخذ يعمل في مصنع للقرميد ، فأصبحنا بغير حاجة الى ذلك المكان .. فعندما يسوء الطقس كنت امضي الى منزل الفتاة حيث اساعدها في تنظيف الغرفة والمطبخ .

ضحكت وهي تقول :

- اننا نعيش كزوج وزوجة . بيد اننا لا ننام معاً . بل نحيا حياة افضل ،

فالأزواج لا يعاونون زوجاتهم .

وفي بعض الأحيان كانت جدتي تأتي وتجلس معنا ، تطرزاو تروي لنا حكاية مدهشة . وعندما يمضي جدي الى المدينة كانت لودميلا تأتي لزيارتنا ، فكنا بهذه المناسبة نحتفل غير مبالين بشيء .

كانت جدتي تشجعنا في الصداقة .

- ما اجمل الصداقة عندما تتوطد بين فتى وفتاة ! لكن يجب الا يرتكبا

حماقة !

ثم اوضحت لنا معنى ارتكاب « الحماقة » بأسلوب بسيط فكانت كلماتها كلها فنتنة ... فرأيت انه من الواجب ان لا تمس الورود حتى تزهر كلياً ، والا

فانها لن تعبق بأريحها الشذي ، ولن تمعد اثارها أبداً ...  
كنا نجلس قرب بوابتنا ، انا وكوستروما ولودميلا ، اما شوركا فقد دعا  
شقيق لودميلا الى المشاجرة . وما هما يشيران حولهما الغبار ووقعا في مشادة  
عنيفة .

صرخت لودميلا في ذعر :

- يكفي !

كان كاستروما يروي لنا قصة الصياد كالينين ، بينما ثبت في لودميلا نظرة  
جانبية ، وقد مات الصياد حديثاً . وادعى كوستروما انهم لم يواروا نعشه الثرى  
بل تركوه على وجه الارض .. كان النعش يستند الى اطار من الحديد ، وقد زين  
بغطاء رسم عليه صليب ابيض ، ورمح ، وهرأوة ، وعظمتين .  
ويدعي ان الصياد الهرم ينهض كل ليلة من نعشه ، ويشرع في التجوال في  
المقبرة مفتشاً عن شيء ما حتى اطلالة الفجر الاولى .

فقال لودميلا راجية :

- لا تتكلم عن هذه الاشياء المرعبة .

وصرخ شوركا وهو يخلص نفسه من قبضة اخيها :

- اتركني !

واستدار نحو كوستروما ، وقال بلهجة مازحة :

- لم الكذب ! لقد شاهدتهم يحفرون للنعش ، ويتركون كوة في القبر حتى  
يثبتوا فيها الشاهد ! اما الادعاء الذي يقول بان شبحه يتجول فهي من تأليف  
الحداد السكران !

فاقترح كوستروما من غير ان يتطلع اليه :

- اذا كنت متأكداً من ذلك فاذهب وامض الليل في المقبرة !



وشرعا يتجادلان حول هذه القضية ، فالتفتت لودميلا إلى أمها وسألتهما وهي تهز رأسها بكآبة :

— هل يتجول الاشباح في الليل ، يا أماه ؟  
فوافقت الأم على ذلك ، كأنها استدعيت من مكان بعيد :  
— أجل انهم يقومون بذلك .  
واندفع نحو الجميع قاليوك السمين ، ابن صاحبة المخزن ، الذي يبلغ من العمر  
عشرين عاماً ، وأرهف السمع الى المجادلة ، ثم قال :

— سأهب عشرين كوبيكا وعشر سجائر للشخص الذي ينام قرب النعش  
حتى الصباح ، أما اذا فزع فسأشد له أذنيه يا يجلولي . حسناً ما  
رأيكم ؟

فخيم صمت عميق ، أزاله صوت والدته لودميلا :  
— يا للهزار ! لا يمكن أن تطلب ذلك من الصغار  
فدمدم شوركا :

— اعطني روبلا فأقوم بذلك !  
فاستفسر كوستروما بلهجة حاقدة :  
— هل تخاف أن تقوم بذلك مقابل عشرين كوبيكا ؟ أعرض عليه روبلا يا  
قاليوك . انني متأكد من انه لن يذهب ، انه يتفاخر فقط .

— حسناً ، سأدفع روبلاً .  
ووقف شوركا ، واتجه نحو السور . فأطلق كوستروما صغيراً حاداً ، بينما  
زعقت لودميلا مغتظة :

— يا إلهي ؛ لماذا يتفاخر كذلك ؟  
قلت لقاليوك :

- اعطني روبلا فامضي انا .  
فنقد ام لودميلا روبلا ، وهو يطلق ضحكة بصوت عالٍ قاصداً اخافتي .  
قالت والدة لودميلا وهي تمضي غاضبة :  
- كلا لا اريده ، ولن آخذه .

وكذلك رفضت لودميلا تناول الروبل ، مما ضاعف من سخرية فالبيوك .  
وكدت انطلق من غير أن اطلب المال ، في اللحظة التي وصلت فيها جدتي .  
وبعد أن سمعت القصة اخذت الروبل وهي تقول بهدوء :  
- ارتد ممطفك وخذ غطاءك ، فالبرد قارس قبيل الصباح .  
كان لكلامتها هذه وقع في نفسي فقد ملأني شجاعة وارسخ في نفسي انه  
لن يقع شيء مريب .

كان شرط فالبيوك أن اقبع بجانب النعش حتى الصباح ولا افارقه مهما  
حدث والا فانني اخسر الرهان .  
حذرنى فالبيوك :  
- احذر ، سأراقبك طوال الليل !

وعندما مضيت الى المقبرة ، رسمت جدتي اشارة الصليب فوق رأسي وهي  
تنصحي :

- إذا ظهر لك شيء ، فلا تتحرك أو تخف بل صل للعداء .  
وانطلقت جاداً وانا اتحرى شوقاً لانهاء هذه المهمة . ورافقتي فالبيوك  
وكوستروما ، وصبية آخرون . وعندما شرعت في تسلق الحائط القرميدي  
تعثرت يدي بالغطاء فوقعت ، ثم قفزت توأ كأن الرمل قذفني . فتنهات الي  
موجات الضحك من الجانب الثاني للحائط . واخذ شيء في صدري يخفق ،  
وسرت قشعيرة باردة في اوصالي وانتقلت الى ظهري .  
كان النعش غارقاً من احد جانبيه في الرمل ، فتعثرت به ، بينما كان انا

الجانب الآخر مرتفعاً كأن احدهم اراد ان ينهضه من مكانه ولم يستطع . فجلست على طرف النمش وتأملت في المقبرة حوالي: ان المقبرة قد ملأت بالصلبان الرمادية التي تشبه أذرعة عظيمة ترفع نحو السماء ..

وقرع والدياز جرس الحراسة بفتور وخمول . فكان الجبل عندما يشد عليه ، يعلق بقطعة من الحديد تبعث اينناً مؤلماً يتبعه رنين قصير جاف لجرس صغير .

كان الجو داكناً يبعث في شعوراً لست ادري كنهه فكنت احس بضيق شديد ، واخذ العرق يتصبب مني بالرغم من برودة الطقس ورطوبة الليل . وفكرت هل انني استطيع أن أصل إلى كوخ الحارس إذا حاول كاليدن الهرم الخروج من نعشه ؟

كنت اعرف المقبرة جيداً ، فطالما لعبت انا وياز وبقية الاصدقاء بين اضرحتها . وهناك بالقرب من الكنيسة حيث ترقد امي في ماثواها . وتناهدت إلى مسامعي تنف من الضحك في الحي وبعضاً من الغناء في اماكن نائية فالناس لم تم بعد .

ان الاصغاء إلى هذه التهنيدات الاخيرة للحياة كان يشدد من عزمي . بيد أن الهدوء كان يشتد كلما قرع الجرس ، فيخيم جو من الصمت رهيب ، يطمس كل شيء ويزيله . كانت نفسي تهيم في فضاء غير محدود في عدم سحيق حيث تدوب في محيط خاو حيث لا شيء غير النجوم .

دثرت نفسي بغطائي جيداً ، وجلست وقد ثنيت ساقي تحت جسدي تجاه الكنيسة . كان النمش يصر والرمل يهوي اثر كل حركة تصدر عني . وقتاهي الى اسماعي صوت شيء يصدم الارض مرة ومرتين من خلفي وبعد ذلك سقطت قرميدة جانب النمش . فتملكني الرعب لكن سرعان ما فهمت أن فاليوخ ورفاقه يلقون بهذه الاشياء من خلف السور في محاولة لاختافي ، مما طمأن نفسي

اذ انني أدرك أن مخلوقات بشرية ما زالت بالقرب مني ، فهدأت بخاوفي .  
فتكورت على نفسي . وجررت الغطاء فوق رأسي وأسلمت للنوم .

أيقظتني جدتي من النوم . فكانت تقف إلى جانبي وهي تنهري مع الغطاء  
فأثقة :

- انفض ، هل تشعر بالبرد ؟ حسناً هل كان ذلك مرعباً ؟
- نعم ، لقد كان رهيباً ، لكن اياك أن تعلمي احداً .
- وفي المساء امسيت ( بطل ) شارعنا . كان الجميع يسألونني :
- هل كان ذلك مخيفاً ؟

واذا اجبتهم : ( اجل ا كان مخيفاً ) كانوا يهزون رؤوسهم ويقولون :  
( ارأيت ؟ ) .

وصرحت صاحبة الخزن بلهجة واثقة :

- إذن الإدعاء بان كالتين ينهض من قبره كاذب . فهو لو خرج لكان  
القي بالقي من خلف السور والله وحده يعلم أين كان سيذهب به .

وتأملتني لودميلا باعجاب لطيف . حتى ان جدي نفسه قد سر أيما سرور .  
اما شوركا فكان مقتماً قال :  
- ان ذلك هين بالنسبة اليه فجدته ساحرة .



اخذ اخي الصغير يدوي بشكل مريع كنجمة في مطلع الفجر . وكنا ننام  
 انا وجدتي وهو ، في ( خيمة ) على اكوام من الخشت فرشت باسمال بالية .  
 وبالقرب منا كان صاحب الدار يشيد ( قناً ) تأوي اليه الدجاجات .  
 ففي كل عشية كانت اصوات الدجاجات الثملة من الاكل تتناهي إلى اسماعنا  
 وهي تنفض اجنحتها ، بينما كان صوت الديك يوقظنا في الصباح على نعم تغريده  
 الصباحي .

و ذات صباح دمدمت جدتي وهي تفرك عينيها :

– كان ينبغي أن يقطع رأسه .

فنهضت بدوري وجلست اأامل طلوع الشمس وهي تسترق النظر من  
 خلال شقوق الجدار تتراقص في خيوطها حبات الغبار .  
 كان الصباح بديعاً صافياً الا انني كنت اشعر بالغم ، واجتاحطني رغبة  
 ملححة للذهاب الى الحقول حيث انفرد بنفسي . كنت ادرك أن الناس  
 سيشوهون منظر ذلك النهار البديع باصواتهم وحر كاثهم .

و ذات مرة نادتني جدتي ، وكنت قد استلقيت على السطح ، واخبرتني  
 بلهجة هامسة مشيرة الى السرير .

– لقد مات كوليا .

لقد انزلتني الصغير من سريره الى الارض . كان عارياً ازرق اللون . وقد التف قبيصه حول عنقه كاشفاً عن بطنه المنتفخة وساقيه المتجمدتين بينما يدها قد التوت خلف ظهره فكأنه كان يحاول انهاض نفسه ، وقد إنحنى رأسه قليلاً على كتفه . .

بينما كانت جدتي تسرح شعرها قالت :

— شكر الله على موته . كيف يستطيع ان يعيش هذا المريض الصغير ؟  
واقبل جدي واخذ يحوب الغرفة امام الجثة . ثم لمس عيني الصغير باحتراس وحذر .

زعقت جدتي محتدة :

— لا تلمسه بيدك القدرتين !

فدمدم .

— لقد اقبل على الحياة ولم ننتفع منه بشيء ..

فقاطعته جدتي :

— فكر فيم تقول !

فحدجها بنظرة هازئة ، وانطلق الى الساحة .

قال :

— افعلي ما تشائين ، فليس عندي مالاً لدفنه .

— آه ايها الانسان الشرير !

فتركت المنزل ولم أعد إلا في المساء .

وفي صباح اليوم التالي دفن كوليا الصغير .. لم ادخل الى الكنيسة ، بل قبعت في الخارج حتى انتهت مراسم الجناز ، وقد حفر له بجانب قبر والدتي ، الذي فتح من جديد ليضم جثمان اخي الصغير ..  
عندما تأملت تلك الحفرة السوداء ، التي تتصاعد من جوفها رائحة كريهة ،

وقع بصري على بعض الألواح الخشبية السوداء فحاولت أن انهل عليها بعض الرمال لينغطي تلك الألواح .

قال والد ياز ، وهو يدخن غليونه :  
- دعك من هذه الآلأعيب ، يا فتى .

أتت جدتي حاملة النعش الصغير الأبيض . فقفز والد ياز الى الحفرة واخذ النعش من يديها ، وواراه الى جانب الألواح الخشبية ثم خرج خارج الحفرة واخذ يهيل الرمال برفشه وقدمه .. ليس هناك من كان ولا احد سوى ثلاثتنا في ذلك الحشد من الصلبان .

وتعالى صوت جدتي مؤنبة وهي تتقد الحارس النقود :  
- لقد ازعجت مأوى فافارتي ، اليس كذلك ؟

- ليس هناك وسيلة اخرى ، فقد اخذت قليلا من أرض الجيران ، لا ضرورة في ذلك اننا لم نؤذ احدنا .

وانثنت جدتي حتى لامست ارض الضريح . وشهقت وبكت ثم ابتمدت .  
وخب جدتي في اثرها ، يللم معطفه البالي . وقد وارى عينيه تحت قبعته .  
زعلق على حين غرة مسرعاً امامنا كأنه طير يشب على الارض :  
- لقد بذرنا حبوبنا في ارض قاحلة .

فاستوضعت جدتي :

- ماذا قال ؟

فأجابت :

- ان الله وحده يعلم . فله طريقته الخاصة في التفكير .

كان الطقس حاراً ، وجدتي تمشي ببطء في المقدمة ، وقدماما تقوران في الرمال ، ومن حين لآخر كانت تتوقف لتمسح وجهها بمنديلها .  
سألتها وانا اجتهد في الكلام :



جوركي ولينين



— ذلك السواد في الضريح ، هل كان نعش والدي ؟  
فقلت بلهجة كثيبة :

— أجل ، يا له من حفار احق ! لم ينقض سنة بعد ، وما هي فاريت قد  
تشققت ! وذلك بسبب الرمل فهو يسمح بتسرت المياه . ان الطين افضل .  
— هل يتشقق الجميع ؟

— أجل

— انت لن تشققي مطلقاً !

فتوقفت وواست القبعة على رأسي ، وقالت بصرامة :

— لا تفكر بهذا مطلقاً . لا يجب أن تفكر بذلك الآن ، هل تسمع ؟

بيد انني قلت في نفسي :

— ما أبشع الموت .. انني اكرهه !

كنت اشعر بضيق شديد .

وعندما وصلنا المنزل جهز جدي المائدة وأعد الشاي .

قال :

— سنسكب قليلا من الشاي ، فالطقس حار جداً . ساعد الليلة الشاي لنا

جميعاً من عندي .

وتوجه نحو جدتي وربت على كتفها .

— حسناً ! ماذا تقولين يا اماء ؟

فأومأت جدتي بيدها قائلة :

— ماذا تستطيع ان اقول ؟

— هل ترين يا اماء ، ان الله يصب علينا جام غضبه ، فهو يأخذ قطعة قطعة .

آه لو ان العائلات يعيشون متحدين سوية ، كأصابع يدك ..

لقد مضى زمن طويل من غير ان اسمعه يتكلم بهذه الرقة . فأصغيت له متأملاً

أن يخفف من آلامي ويساعدني على نسيان تلك الحفرة ذات الالواح السوداء .

لكن جدتي قاطعته برزانة محتدة :

— كف عن هذا ، يا أبتاه ! لقد عشت طوال حياتك تردد هذه الكلمات .  
بيد انك هل حاولت ان تساعد احداً في يوم من الايام ؟ لقد امضيت حياتك  
وانت تستثمر الناس ، كما يفعل الصدا في الحديد .  
فرمقها بنظرة حادة وهو يدمدم ، ثم لاذ بالصمت .  
وفي المساء اخبرت لودميلا بما حدث ، فوجدت ان ما حدثتها به لم يجد له  
صدى عندها .

— ان المرء يفضل ان يحيا يتيماً .. اذا توفي ابي وامي ، فسوف اترك اختي في  
رعاية اخي ، واصبح راهبة . فلا استطيع فعل غير ذلك ! فسوف لن اتزوج  
لأنني عرجاء ولا استطيع العمل . واذا ما تزوجت فانني سأنجب أطفالاً  
يعرجون .

كانت تتحدث بلهجة هادئة بيد انني فقدت كل اهتمام بها بعد تلك الجلسة ،  
والحقيقة ان احداث حياتي لم تعد تسمح لي برؤيتها إلا نادراً .

ناداني جدي بعد مضي عدة ايام من وفاة اخي ، قائلاً :  
— نم الليلة باكراً ، سنهض في الغدوة عند طلوع الشمس ، ونسذهب إلى  
الغابة لجمع الحطب .  
وزادت جدتي :

— وسأجمع انا الأعشاب .  
... كانت الغابة تستقبلنا بصفوف من اشجارها الداكنة ، واشجار الشوح  
تتاجي الطيور ، بينما المنحت اشجار البتل كصبايا عذارى . وبعيد المروج تأتي  
رائحة المستنقعات في امواج متلاحقة .  
دخلنا الغابة في طريق ندية تلسرق بسين الادغال المنتشرة هنا وهناك

يتخللها بعض المستنقعات . وخطرت في مخيلتي فكرة وخالجت نفسي أن لا شيء اروع من ان يلج الانسان غابة الى الابد ، فهناك ليس من مشاجرات ولا خرة ، ولا مكر أو خبت ؛ هناك حيث تستطيع أن تتناسى العالم وشراسته جذك وضريح امك في الرمال ، قد تنسى كل شيء يؤلم نفسك .

وعندما بلغنا بقعة جافة قالت جدتي :

- اجلسا ، لقد آن لنا ان نأكل شيئاً .

واخرجت من سبتها بعض الخبز ، والبصل الاخضر والخيار ، وشيئاً من الجبن المجسّد ، وتأمل جدي كل ذلك . وهو يطرف بعينه بصورة محتارة :

- يا إلهي ... لم احضر معي شيئاً !

- هناك ما يكفيننا ثلاثتنا .

افترشنا الارض تحت صنوبرة طويلة ، كان النسيم يهب لطيفاً يدغدغ الاعشاب فتنتحني له باحترام ...

وذات مرة بينما كنت في الغابة اجمع الحطب ، فاذا بطلقة صياد تصيب وجهي وتدفن في جني الأيمن سبعة وعشرين حبة من الخردق الصغير . وقد نزع لي جدتي بإبرتها إحدى عشرة حبة ، وبقيت الحبات الباقية تحت جلدي سنوات عدة ، حتى نزع لي شيئاً فشيئاً .

كانت جدتي تفتبط جداً عندما تجدني التحمل الالم بصبر كبير :

- يا لك من فتى طيب ! ان التغلب على الالم معركة عظيمة .

كانت جدتي تبقى مرتدية ثيابها البالية ، حتى في ايام الاعياد .

وذات مرة زعق جدي في وجهها :

- إن مظهرك اسوأ من مظهر المتسولين ، وهذا ما يجلب عليّ

العار .

— لا بأس عليك ، لست ابنتك ، وانني لست فتاة حتى تبحث لي  
عن زوج .

وهكذا كانت مشاداتها تزداد يوماً بعد يوم .  
كان جدي يصرخ ، معبراً عن ألمه :  
- ليست ذنوبي اكثر من ذنوب غيري . بيد انني أشدم عقوبة .  
فتحاول جدتي إغاطته :  
- ان الشيطان لاحده يعلم قيمة الانسان .  
وذاث يوم عاد جدي من المدينة وقد ابتلت ثيابه بالمطر . كان الوقت  
خريفاً .. ومما ان بلغ عتبة الباب حتى نفص عنه المطر ، وقال بلهجة  
ظافرة :

- حسناً ، ايها الحامل ، ستمضي غداً إلى العمل !  
فسألته جدتي  
- اين سيعمل ؟  
- عند اختك ماتروينا ، يعمل لحساب ابنها .  
- انك لم تحسن الانتقاء ، يا ابتاه !  
- صمتاً ، ايتها العجوز البلهاء ! قد يعملون منه رساما .

وحننت جدتي رأسها ولاذت بالصمت .  
وفي المساء أخبرت لودميلا بانني سأذهب الى المدينة لأعيش هناك .  
وبعد تأمل قصير قالت :  
- سامضي إلى هناك في وقت ما عما قريب . فاني يريدتم ان يقطعوا لي  
ساقبي . فانهم يدعون ان صحني ستصبح حسنة إذا ما فعلوا ذلك .  
لقد اصيحت ضامرة العود ، وعلت وجهها صبغة تميل الى الزرقة ، حتى ان  
عينها اتسعنا اتساعاً كبيراً .

سالتها :

– هل انت خائفة ؟

فاجابت :

– اجل .

وشرعت تبكي بكاء صامتاً .

كنت غير قادر على تعزيتها .. فاني كذلك خائف من حياة المدينة . فبقينا  
زمناً طويلاً متلاصقين جنباً الى جنب والصمت يشرع وشاحه فوقنا ..



ومن جديد عدت الى حياة المدينة ، لأسكن في بيت جديد ابيض اللون مؤلف من طابقين يشبه النعش ، وقد بني بشكل يتسع لعدد كبير من الناس . كان البيت يقوم بصورة جانبية في الشارع ، تطل نوافذ الطابق الارضي على زاوية الشارع ، بينما تطل نوافذ الطابق العلوي على جهة يفرض ان تكون واجهة له . وتشرف من فوق السور ، على تلة قدرة ، ومسكن صغير تقطنه الغسالة .

لم يكن هناك شارع بالمعنى المعروف لهذه الكلمة بل كان يقوم أمام البيت خندق يشطر التلة القدرة حيث يقوم إلى جانبه بيتنا وفي الاقاصي إلى يساره حيث اختار السكان تلك البقعة لرمي النفايات ...

كنت اعرف صاحب عملي جيداً ، فقد زارنا ذات مرة واخوه ، وهذا الاخير هو الذي كان يردد بصورة مسلية :

— اندريه بابا ، اندريه بابا .

وقد لاحظت انهما لم يتغيرا ابداً . أما والدتها فهي اخت جدتي ، يسد

انها كانت عضوباً عصبية . كان الكبير متزوجاً من امرأة سوداء العيين ،  
بيضاء البشرة .

ومنذ اليوم الأول لوصولي قالت لي مرتين :  
- لقد وهبت امك ذات يوم معطفاً حريرياً قسداً وشعاً بجبات من المرجان  
الأسود .

ولسبب خفي لم اصدق انها قدمت اية هدية لوالدتي . فقلت لها عندما  
ذكرتني بذلك مرة اخرى :  
- ان كنت قد قدمته لها حقاً ، فلماذا تنبحين ؟  
فانتفضت مذعورة ، وقالت وهي تتراجع الى الخلف :  
- ما .. ذ .. ذ .. ا ؟ مع من تحسب نفسك تتكلم ؟  
وتورد وجهها وجحظت عينها ، وندهت زوجها .

دخل المطبخ حاملاً فرجاراً في يده ، وقد وضع قلماً خلف اذنه ، قال لي ،  
بعد ان سمع من امراته ما جرى :  
- يجب عليك الا تكون قليل الحياء ، وقحاً .  
ثم التفت الى زوجته ، وزعق بها بلهجة نافذة الصبر :  
- لا تزعجيني مرة اخرى بمثل هذا الهراء واللغو !  
- ماذا تقصد بمثل هذا اللغو والهراء ا عندما اقرباؤك ...

فصرخ :  
- اخذ الشيطان اقربائي .  
وانطلق خارجاً ...  
لقد كرهت ان يكون مثل هؤلاء من اقرباء جدتي ، وقد افهمتي جدتي  
ان الاقرباء يعاملون بعضهم بعضاً اسوأ من معاملتهم للغرباء ...

كانت معلمتي الكبيرة ، اخت جدتي ، تنهض في الساعة السادسة صباحاً .  
ثم تجتو بعد ان تغتسل بسرعة وتأخذ في شكواها إلى الله ، أمور حياتها وكنتها  
وولديها .

كانت تلمس جبهتها برؤوس اصابعها وتشكو بلهجة كثيبة :  
- يا إلهي ! لا أسالك شيئاً سوى الراحة وقليل من السلام .

وفي بعض الأحيان كان صوتها يوقظني من النوم ، فامتد اراقبها  
من تحت الغطاء ، وانا ارفع السمع الى صلواتها .. كانت تضرب بشدة على  
كتفها وجبهتها وبطنها بحركة عشوائية من يدها اليسرى ، وتأخذ برسم  
إشارة الصليب :

- إن كنت راض يا إلهي ، فعاقب كنتي ، واجعلها تعتذر عن إهاناتها  
لي ، وأجل بصري ولدي بحيث يستطيع رؤية حقيقتها . وساعد فيكتور  
وهبه رحمتك .

ثم اخذت تهتز إلى الامام والوراء في لحظات هادئة ، ثم قالت من جديد  
بصوت حاقد :

- وليتصيب الجليد في لب عظامهم ، ولتجف الدماء في عروقهم !  
وجدت ان جدي لم يرفع مثل هذه الصلاة البغيضة .  
وما ان تنتهي من صلاتها حتى توقظني من نومي :  
- إنهض كفاك خمولاً ، فنحن لم نستاجر لك الله . قم وهات الخطب ! لقد  
اهملت كذلك إحضار الاخشاب الصغيرة منذ المساء !

كنت اعمل بطيبة خاطر ، واجد لذة بتكنيس أقدار البيت وغسل الارض ،  
وتنظيف الاواني ومقايض الابواب . وفيما كنت اعمل كانت تدف إلى اسماعي  
اكثر من مرة ، حين يهيم السلام ، صوت المرأتين تتكلمان :



- إنه يشتغل بجدة .
- انه نظيف .
- ولكنه وقع .
- لا تنسى من رباه .

وجربت كل منهما أقصى جهدها كي تفرض عليّ احترامها . بيد أنني كنت اعتبرهما شبه مجنونتين ؛ فلا اطيعهما ، حتى أنني كنت أقسو في الإجابة عليها ..  
..كانتا تشكوانني إلى صاحب عملي دائماً ، فيقول محتدأً :  
- يحذر بك أن تلتبه إلى اعمالك واقوالك ، ايها الفتى ا

و ذات يوم استدار نحو أمه وزوجته وقال :  
- ما الطفكما ، فانتما تعتليان هذا الفتى . مثل الحصان ، فلو كان أحد غيره لكان لاذ بالهرب من زمن بعيد . او حتى قد مات من القسوة ا  
بيد ان هذا الكلام جعل المرأتين تسخطان وتلساب الدموع من مقلتيها .  
ضربت زوجته الارض بقدمها وزعقت غاضبة :

- كيف تستطيع أن تقول هذا الكلام بوجوده ، ايها الاحق ! كيف  
سيطيعني بعد ان سمع هذا الكلام ؟ يجب ان تتذكر انني حامل ا  
وانتجبت امه في حرقة :

- غفر الله لك يا فاسيلي ، يجب أن تتذكر ما اقوله : سوف تفسده .  
ثم انطلقتنا في غضب .

فاستدار نحوي ، وقال بلهجة قاسية :  
- هل رأيت هذا المشهد ؟ لقد سببته انت ، ايها الشيطان الصغير ! سوف  
ابعث بك من جديد الى جدك . هذا ما انويه ، وتقدر عند ذلك العودة الى جمع  
الاسماك .

فاجبته وانا غير قادر على تحمل هذه الالهانة .

– انني افضل جمع الاسمال على العيش معك . لقد أتيت لأتمرن على العمل ،  
بيد ماذا علمتني ؟ لقد علمتني حمل القادورات وفضلات الطعام ! .

فامسكني مملي بلطف من شعري ، وحدجني بنظرة وهو يقول :  
– انت وحش صغير على اي حال . هذا لن يقع ابداً . . !  
كنت متأكداً من انه سيرجعني الى جدي ، بيد انه بعد يومين دخل المطبخ  
يحمل قلماً ومسطرة وكراساً من الورق .  
قال :

– انقل هذا بعد أن تلتهي من عمالك .  
كانت الصورة كناية عن بيت مؤلف من طابقين ، مليء بالنوافذ وقد زين  
بزخرفة صنعت من الجص .  
– وهذا مقياس . خذ قياس الاسطر كلها . ثم ضع علامات على الورقة  
وبعد ذلك أوصل فيما بينها . في البداية ارسم الخطوط الافقية وبعد ذلك الخطوط  
العمودية . هيا .

وغمرتني نشوة من السعادة فهذا عمل نظيف قد انيط بي . بيد انني تأملت  
الادوات والورقة مندهشاً لأنني لم ادرك منها شيئاً .  
جلست إلى العمل بعد أن غسلت يدي . فوضعت كل الخطوط الافقية  
ووصلت فيما بينها لكنني وجدت ثلاثة اسطر زائدة . وبعد ذلك وضعت الخطوط  
العمودية فوجت لذلك إذ وجدت أن البيت قد تغيرت معالمه . فالنوافذ اصبحت  
مكان الحائط الوسط بينما ارتفعت احداها في الهواء وراء البيت ، وظهر الاقريز  
اعلى من السقف ..

وبقيت مدة طويلة اتأمل هذا الشكل والدموع تترقرق في مقلتي محاولاً  
ادراك السبب . واخيراً حاولت تلافي ذلك بما توحيه لي تخيلتي ، فرسمت على  
طول السطح والاقريز العصافير والحمام . وقريباً من النوافذ على الارض رسمت

اناساً معوجي الساقين .. ثم وضعت خطوطاً متقطعة في وسط الصورة وبعد ذلك حملتها إلى رب عملي .

تأملها بدهشة وهو يرفع حاجبيه ثم صرخ بلهجة كثيبة :  
— ماذا تطلق على هذا ؟

فاجبته :

— السماء تمطر ، وعندما تمطر السماء تظهر المنازل بشكل معوج كالطر .  
وجميع المصافير في الايام الماطرة تحتبىء تحت الافاريز وهؤلاء الناس يمدون إلى منازلهم . وتلك فتاة قد تعثرت ، وهذا بائع ليمون .  
فأخذت رب عملي موجة من الضحك وهو يترنح على الطاولة ثم قال :  
— انني شاكر لك في الواقع .

ثم اردف :

— ينبغي أن اخفيك عن وجه الارض . هذا ما يجب ان افعله . ا  
وولجت معلتي الصغيرة وبطنها يسير امامها ثم تأملت رسمي .

خاطبت زوجها قائلة :

— يجب ان تجلده .

فأجابها زوجها بلهجة واثقة :

— آه ، لا في الواقع لم ارسم افضل من هذا عندما بدأت الرسم .

ثم اشار الى الاخطاء بقلمه الاحمر واعطاني ورقة ثانية .

— حاول ذلك من جديد . يجب أن ترسم ذلك بصورة حسنة حتى تنقلها

جيداً .

اما محاولتي الثانية فقد كانت افضل من الاولى سوى نافذة واحدة قد تربعت على عتبة الدار . تأملت البيت فلم يرقني منظره خاوياً فانصببت عليه يجمع من من الناس . واجلست في النوافذ فتبات يسكنن بمراوحن وفتيات يدخلون

السجائر ؛ وقد تركت واحداً من غير سيجارة بل جعلته يدس انفه بين سائر الفتيات . ورسمت عند البوابة عربة يرقد بجانبها كلب صغير .

سألني معلمي بلهجة غاضبة :

— لماذا افسدتها مرة ثانية ؟

فوضّحت له أن الصورة كانت حزينه من غير اناس ، بيد انه اخذ يزجرني ويؤنبني :

— لعن الله ذلك . اذا أردت أن تتعلم ، فينبغى أن تشتغل بصورة جيدة .

اما هذا فمزاح .

وكم كان سروره عظيماً عندما رسمت اخيراً صورة قريبة الى الاصل .

— هل شاهدت ما تستطيع فعله عندما تجرب يجدي ؟ واذا تابعت كذلك

فستصل بسرعة كبيرة .

ثم اعطاني عملاً جديداً :

— اصنع مخططاً للمنزل توضح فيه مكان الغرف . والنوافذ والابواب . ولن

اوضح لك ذلك . يجب عليك ان تفعل ذلك من تلقاء نفسك .

دخلت المطبخ ، وجلست افكر من اين أبدأ .

بيد أن دروسي في الرسم انتهت عند هذا الحد . فقد أتتني المعلمة الكبيرة

وقالت بفجور :

— تريد أن تصبح رساماً ، اليس كذلك ؟

ثم امسكتني من شعري وضربت رأسي بالطاولة بعنف كبير مما اراق الدم

من فمي وشفتي وانفي . وبعد ذلك مزقت الرسم واتلفت أدواتي ، وانتصبت

واضمة يديها على خصرها وهي تصرخ ظافرة :

— حاول ذلك مرة اخرى ؟ ! سوف ترى ماذا يجري . انه يريد شخصاً

آخر ان يعمل مكان أخيه ، لكي يتخلص منه وهو من لحمه ودمه !

واتى معلمي على اثر ذلك الصباح تخب في اثره زوجته ، وتلا ذلك مشهد عنيف من المجادلة . فقد القى الثلاثة بانفسهم على بعضهم يدمدمون ويصرخون وفي النهاية انسحبت المرأتان وهما تبكيان وتذرفان الدموع ، بينما قال لي معلمي :  
- من الافضل لك أن تترك العمل في الوقت الحاضر . توقف عن الدرس !

كنت لا اجد فيما حولي غير الشر الذي لا يعرف الرحمة ، والانحطاط الدنس الذي يزداد بصورة اكثر منها في شوارع كونايفينو ، تلك التي لم تكن تنقصها بيوت الدعارة والساقطات . إن المرء يشعر وراء قذارة كونايفينو بجمية تلك القذارة والشورور ، والعبودية والشقاء . اما هنا فالناس يعيشون في راحة ونعيم . والاضطراب المشوش يحل محل العمل . ويقبع كل شيء في ظل السامة الخادعة . كنت اغرق في تعاسة شديدة تزداد عندما تزورني جدي . كانت دائماً تدخل المطبخ من الباب الخلفي ، وبعد ان ترسم اشارة الصليب كانت تنحني حتى خصرها إحتراماً لاختها الصغيرة . فكانت تلك الانحناءة تسحقني كصفعة اليمه .

كانت معلمي الكبرى تقول بلهجة باردة بشيء من الاحتقار :  
- آه ، اهذه انت ، يا اقولينا ؟

ولا اعود أتعرف جدي . انها تعض على شفيتها بتواضع بطريقة تغير ملاحظها كلها . وتقتعد بصمت كبير يجانب الباب كأنها قد اقاقرت ذنباً مشيناً ، تجيب على اسئلة اختها بلهجة رقيقة وبصوت هامس .

فلم يرفني ذلك ، فقلت غاضباً :

- لماذا تجلسين ههنا ؟

فأجابت بلهجة كلها تأثر وقد غمرتني بحنانها :

- أطبق شفتيك ، فانك لست السيد هنا .

فأجابت معلمي الكبيرة ، وقد بدأت شكواها :

- انه يتدخل دائماً فيما لا يعنيه ، غير مهتم لذلك مهما جلد او زجر .  
كانت تستوضح اختها في بعض الاحيان . بلهجة ماكرة .  
- اذن قد اصبحت متسولة ، اليس كذلك ، يا اقولينا ؟  
- ليس هذا بالامر المشين .  
- ليس من شيء مشين ، اللهم ما لم يكن مضجلاً .  
- يقال ان السيد المسيح كان يتسول .  
- البلاهه والهراطقة وحدهم يدعون هذه الاقوال ، وانت تعطيمهم اذنك .  
ايتها العجوز العبيطة ، لم يكن المسيح متسولاً . فهو ابن الله وسوف يعود كما هو  
مدون ليحاكم الاحياء والاموات ولا مجال للتواري منه . حتى ولو حرقت  
نفسك وتحولتي إلى رماد . وسوف يعاقبك انت وفاسيلي على تكبرك وعجرفتكما ،  
لانكما طردتماي يوم اقيت اطلب معونتكما ، يا قريبي الغنيين .  
فاجابت جدتي من غير انزعاج :

- لقد فعلت دائماً ما اقدر عليه من اجلك . بيد أن الله وجد أنه من  
الافضل أن ينزل بنا العقاب ..  
- هذا لا يكفيكما ، لا يكفي .. ا  
واردفت اختها في كلامها اللاذع من غير توقف ، فكنت اتساءل وانا ارهف  
السمع الى عواء معلتي الكبيرة كيف تتحمل جسدي ذلك ، فاني في مثل  
هذه الحالات كنت اجد نفسي لا احب فيها هذه الصورة .

وولجت المعلمة الصغيرة وهزت رأسها بلطف :  
- تفضلوا الى غرفة الطعام . هذا افضل هيا تعالوا ا  
فصرخت العجوز ، وجدتي تحاول الدخول :  
- إمسحي قدميك ، أيتها الكسيحة المتداعية ا  
وقدم لها معلمي التحية ببشاشة :

- آه ، اكوليننا الحكيمه ! كيف حالك ! اما زال العجوز كاشرين حيا  
يرزق !

فقلت له جدتي وهي ترميه بإبتسامة ودية :  
- اما زلت تجتهد في عملك ؟ انك تعمل دائما !  
- اعمل دائما ، كالحكوم بالاشغال الشاقة .

كانت جدتي تحدثة بجرارة بالغة لكن ببلهجة من هو اكبر سناً . وفي بعض  
الاحيان كان يأتي على ذكر والدتي :

- آه ، فارفارا ، يا لها من امرأة ، امرأة مسترجلة فعلا !  
فاردفت زوجته وهي تلتفت نحو جدتي :  
- هل تتذكرين ذلك المعطف الذي اعطيتها اياه ؟  
- نعم . بالطبع .  
- لقد كان جيداً ، كأنه جديد .

فقدمم معلمي :

- هه ، معطف سيء ، فالحياة دعابة .  
فاستوضحت زوجته مرتابة :

- ما هذا ؟

- آه ، لا شيء ، لا شيء على الاطلاق . ان الايام الجميلة تمضي وكذلك الناس  
الطيبون ..

فقلت زوجته ببلهجة قلقة :

- لماذا تتقوه بمثل هذه الاشياء ؟

وفي النهاية انطلقوا مع جدتي لترى الطفل الجديد ، بينما بقيت انا لأنظف  
الاوراني .

قال معلمي ببلهجة رقيقة وكأنه يحلم :

- جدتك تلك عجوز رائعة .  
كانت كلماتك تلك تبعث في نفسي شعوراً بالغبطة .. وعندما انفردت  
بجدتي قلت لها والالم يعتمر قلبي !  
- لماذا تأنين إلى هنا ؟ افلا تعرفين داخليتهم ؟  
- آه يا اليوشا ، فانا أعرف كل شيء .

اجابتنى بهذا وهي تتأملني وابتسامة رقيقة تراود شفثيها ، وسرعان ما  
احسست بالحجل ! من المؤكد انها عرفت كل شيء ورأته ، حتى انها كانت  
تعلم ما يدور في سريرتي تلك اللحظة .  
وبعد ان تلفتت حولها بجذر شديد لترى ان كان ثمة شخص قريب منا ،  
فعاقتني بتأثر بالغ :

- بالطبع ما كنت لآتي الى هنا لولاك ، فما حاجتي بهم ؟ جدك مريض وانا  
اعتني به ولا اشتغل شيئاً . لذلك لست املك نقوداً .. وقد طرد ولدي  
ميخائيل ولده ساشا ، وهكذا وجدت نفسي مضطرة الى تقديم الطعام والشراب  
له . وقد وعدوا بأن يدفعوا لك ستة روبلات في السنة ، فقلت في نفسي لعلهم  
يدفعون لي روبلا واحداً الآن . ها قد مضى قرابة ستة اشهر وأنت تعمل  
عندهم . اليس كذلك ؟

ودنت مني اكثر من ذي قبل واخذت تهمس في اذني :  
- لقد طلبوا مني ان اوبخك على اعمالك . فانت لا تطيع أحداً .. جرب  
ان تتحمل ذلك سنة او سنتين حتى تقوى عزيمتك ..  
فاعطيتها وعداً بذلك . بيد ان الامر كان قاسياً علي ، فقد جثم علي البؤس  
بنائه ، وغرقت في ذلك الوجود الممل ، واصبحت ادور منذ الصباح حتى  
المساء طلباً للقوت . فقد كنت أعيش في شبه عالم شرير .  
وفي بعض الاحيان كنت انري الفرار ، بيد أن الشتاء الشرير يقعدني برياحه





جورگي وستالين

العاصفة الثلجية ، فالرياح في الطابق العلوي تعوي قرب النافذة واخشاب السقف تنحني تحت عبء الجليد . فكيف أستطيع الهرب ؟

لم يكن يسمح لي بالخروج من الدار للهو . وفي الواقع لم يكن عندي الوقت الذي يسمح لي بأن أعب ، ومضت ايام الشتاء المضجرة في دوامة من الأعمال المرهقة .

وخلال الصوم الكبير أرغمت على تناول القربان ، فقصدت إلى جارنا ، الأب دوريميدونت بوكروفسكي ، كي اعترف له بخطاياي . وكنت اعتقده إنساناً قاسياً . وانا ما زلت اذكر الخطايا الكثيرة التي اتيتها بحقه . لقد افسدت كشكه في الحديقة برميهِ بالحجارة ، وتشاجرت مع أولاده واقترفت عدة جرائم لا بد وان تثير نقمته ضدي . كل هذا كان يحول في خاطري وانا اقف في الركن القدر من الكنيسة انتظر دوري في الاعتراف . وقلبي يخفق بشدة .

لكن الأب دوريميدونت تلقاني بترحاب لطيف قال :

— آه ، يا جارنا احسنا إركع على ركبتك وقص علي خطاياك .  
والقى على رأسي بقطعة من الحمل الثقيل ، فإذا برائحة البخور والشمع تضيق انفاسي ، وتجعل من الصعب عليّ ان اقول الكلمات التي لم تكن بي رغبة في النطق بها .

— هل تطيع من هو اكبر منك سنأ ؟

— كلا .

— قل : « انا مخطيء » .

فانفجرت وقد تملكنتي الدهشة :

— لقد سرقت قربان الذبيحة من الكنيسة .

فاستوضح الكاهن في تودة ، بعد أن فكر ملياً :

— ماذا تقول ؟ أين ؟

- في كنيسة الاقهار الثلاثة ، وفي كاتدرائية بوكروف ، ونيقولا .  
- مهلاً ، هل تقصد انك سرقت من جميع الكنائس؟ هذا عمل غير مستحب  
يا ولدي ، خطيئة ، اتفهم ؟

- أجل .

- قل : « انا مخطيء » . ايها الفتى الاحق ، هل سرقت القربان لتأكله ؟  
- في بعض الاحيان كنت آكله واحياناً اخرى ، كنت عندما أخسر  
نقودي في اللعب أضطر ان احضر خبز القربان الى البيت ، ولذلك كنت  
اسرقه .

فدمدم الأب دوريميدونت ببعض الجمل المقتضبة في صوت هامس . وطرح  
علي بعض الاسئلة الاخرى . ثم سألني على حين غرة في صوت حاد :

- هل قرأت كتباً طبعت بصورة خفية ؟

فلم ادرك معنى سؤاله .

استوضحت :

- ماذا ؟

- كتباً ممنوعة ، هل قرأت منها شيئاً .

- كلام أقرأ منها شيئاً .

- حسناً ان خطاياك مغفورة . قف

تأملت وجهه في شيء من الدهشة . كان حياه لطيف يتم عن تفكير عميق .  
فأحسست بالحجل . وكانت معلماتي قد ارسلنا بي الى الاعتراف واخبرتاني  
بأشياء عدة رهيبه لتخيفاني وتجعلاني أعترف بكل شيء .

قلت :

- لقد رميت كشك حديقتك الصيفي بالحجارة .

فرفع الكاهن رأسه :

- وهذا كذلك عمل سيء ، هيا إمضى الآن .

- و كلبك ايضاً

فقال الاب دوريميدونت ، وقد حول انظاره عني :

- من دوره الآن ؟

مضيت وانا اشعر بشيء من الحيرة والاذية . فان هذا الانتظار قد ارهق اعصابي وانتهى الى لا شيء . وكان الشيء الوحيد الباعث على الاهتمام هو سؤاله عن تلك الكتب السرية ...

وفي النهاية مع اطلالة الربيع لذت بالفرار .

بينما كنت ابتاع خبز الفطور في صباح ذات يوم . كان الحباب يتشاجر مع زوجته . فرماها بأحد الاوزان الثقيلة على جبهتها ، قعدت الى الشارع حيث تهاوت وسقطت على الارض . وتجمع الناس حولها ، ثم نقاوها بواسطة عربة إلى المستشفى . فعدوت وراء العربة وبعد ذلك ولسبب لست ادري كنهه ، وجدتني على ضفة الفولغا وفي يدي عشرون كوبيكاً .

كان النهار ضاحكاً ربيعياً ، والفولغا قد ازدادت مياهه ، والارض تمتد شاسعة حتى تعانق الافق بينما انا ، قد امضيت عمري حتى ذلك اليوم كفارة تعيش في جحرها . وتم رأي على ان لا ارجع إلى منزل رب عملي . والا أعود إلى منزل جدتي في شارع كونافينو ، بحيث اني لم أف لها بوعدني ، فأصبحت أخجل أن أراها . وعلاوة على ذلك أن جدي سيعلق على عود بلهجة هازئة .

بقيت طوال ثلاثة ايام اتجول على ضفة النهر ، أتناول طعامي من عند الجمالين الطيبين وفي الليل انام معهم في مخازن للبضاعة . واخيراً قال لي احدهم

— لا فائدة من تجوالك هنا يا فتى ، لماذا لا تشتغل في المركب ؟ انهم بحاجة الى غسال للصحون .

فقصدت المركب لتوي .. تأملني رئيس الخدم ، وهو شاب طويل القامة  
ذو لحية يرتدي قبعة حريرية سوداء ، وقد تربعت نظارتان فوق عينيه .  
قال بصوت رزين :

- روبلان في الشهر هل معك هوية ؟  
لم يكن لدي هوية .. ففكر رئيس الخدم لحظة ثم قال :  
- آتني بوالدتك .

فقصدت جدتي ، فوافقت على ذلك واقنعت جدي بان يقصد غرفة التجارة  
كي يحصل على هوية لي . حتى ان جدي اصطحبني الى المركب .  
قال رئيس الخدم وهو يسترق النظر الينا :  
- حسناً ، هيا بنا .

ورافقني الى مؤخرة المركب حيث شاهدت طاهياً ضخماً الجثة ، قد تدنو  
بمئزر ابيض وقبعة بيضاء قدس جلس الى الطاولة يرتشف الشاي وينفت الدخان  
من لفافة غليظة . دفعني رئيس الخدم نحوه قائلاً :  
- غسال صحون .

وتوارى مسرعاً . بينما ارتفع صوت الطاهي وهو يزعم خلفه :  
- انك تأتي بالشیطان نفسه ، على أن يأخذ أجراً شحيحاً !  
ولوح ، بغضب شديد ، برأسه الى الورااء وحدجني بعينين داكنتين . ونفخ  
خديه وزعم بي :

- من أنت ؟  
لم يرق لي ذلك الرجل مطلقاً . كان يبدو قدراً بالرغم من ثيابه البيضاء التي  
كان يرتديها . كانت اصابعه مغطاة بالشعر حتى ان شعراً طويلاً كان يتدلى  
من أذنيه الكبيرتين قلت :  
- إنني جائع .

فطرف بعينيه ، وفجأة تبدلت اسارير وجهه الحشن ، واخذ خداه يترجعان  
الى اذنيه كاشفين عن أسنان شبيهة بأسنان حصان ...  
وافرغ ما بقي في كأسه من فوق حافة المركب ، وسكب كأساً لي قدمها  
مع قطعة من الخبز الابيض وقطعة كبيرة من اللحم المقدد :  
- كل . هل لك أب أو أم ؟ هل تعرف السرقة ؟ لا تجزع فالجميع هنا  
لصوص ، سوف اعلمك عاجلاً .  
كانت نبرته تصدر كالنباح . كان انفه المتورد يتدلى فوق شاربيه بينما اندلقت  
شفتيه السفلى في ازدراء ، وقد اندست لفافة بين شفتيه ..  
وما ان انتهيت من طعامي حتى تقدني روبلاً .  
- امضِ وابتع لك مئزرين ومريلتين . انتظر ! سأشتري ذلك بنفسى .  
واصلح من وضع قبعته ونزل عن سطح المركب ، يترنح كالثلج ويدب على  
الارض بقدميه كالدب .

\* \* \*

عندما بدأ الليل يخيم بسواده الحالك واطل القمر من خلف الروابي ، كان  
مركبنا يسير . فجاست تأمل المنظر فشاهدت القمر مسرعاً يلوذ بالهرب الى  
الروابي الشاسعة بينما تناثرت المياه الفضية خلف مركبنا وتحت المجاذيف .. كانت  
المياه تعكس صورة المنظر القائم على الضفتين تاركة انعكاسات تلتصق في خطوط  
طويلة .. بينما كانت اغان قروية تأتينا من البعيد ...  
كان مركبنا يقطر مركباً آخر اقيم على ظهره قفصاً من الحديدزج فيه سجناء  
حكم عليهم بالنفي والاشغال الشاقة . بينما التمتعت حربة الحارس في ضوء القمر  
كشمعة تومض . وقد تراءت لي النجوم في السماء اللامتناهية كشمعات صغيرة .  
كان السكون مخيماً على الجو لا تسمع غير صوت تكسر المياه خاف المركب .

لقد راعني منظر ذلك القارب ، فاذا بي أجلس ساعات طويلة أتأمله وهو يدس أنفه الضخم في المياه جاراً المركب البخاري خلفه كخنزير قد شد الى الحبل . كنت اشعر برغبة ملحاحة بالقاء نظرة قصيرة على اولئك الاناس الذين يقبعون كالحوانات في ذلك القفص الحديدي . وعندما اتزلوهم إلى اليابسة في بيرم ، اعتليت جسر القارب وقبعت أتأملهم . فاذا بمخلوقات رمادية تمر امامي . والسلاسل تترقع في ارجلهم... كانوا رجالاً ونساءً شباباً وشيوخاً كبقية البشر وقد شوته اساريهم لان شموهم قد قصت . والواقع انهم من قطاع الطرق ، بيد ان جدتي قد حكمت لي اشياء كثيرة جميلة عن قطاع الطرق !

كان الطاهي سموري يشبه احد قطاع الطرق البائسين اكثر من أي واحد منهم .

كان يدمدم وهو يتأمل القارب بنظرات شرسة !

— لتحمني السماء من هذا المصير !

وذات يوم قلت له :

— كيف غدوت طاهياً بينما اصبح الآخرون قتلة وقطاعي طرق ؟

فاجابني وهو يشخر :

— انا لست طاهياً . انا رئيس الطهاة ، ان النساء طهاة .

ثم اردف بعد فترة من التفكير :

— ان الفرق بين البشر موجود في رؤوسهم . فهناك اناس اذكياء وآخرون بلهاء واغبياء . وباستطاعتك ان تصبح ذكياً اذا طالعت كتباً مختارة كالسحر الاسود وما شاكله . ينبغي أن تطالع جميع الكتب . فهي الاسلوب الافضل في انتقاء المفيد منها .



وكان لا يفتأ يردد على مسامعي :  
- إقرأ كثيراً . واذا لم تدركه فأقرأه سبع مرات ، حتى اثنتي عشرة مرة  
إذا لم تفهمه جيداً .

كان الطاهي سموري يكلم الجميع بلهجة خشنة وقحة ، حتى رئيس الخدم  
الهاديء . وعندما يتحدث يرخي شفته السفلى في اشمزاز ويعقص شاربيه ،  
ويتفوه بالكلام بشكل يثير القرف . ومع ذلك كله فقد كان لطيفاً معي وطيباً  
كذلك ، وكانت تلك الطيبة ترهيني وتخيفني . وفي بعض الاحيان كنت  
اشعر ان الطاهي ليس طبيعياً كأخت جدتي .

كان يقول :

- توقف عن القراءة !

ويتمدد فترة من الزمن وقد اغلق عينيه ، تتصاعد انفاسه من انفه بخشونة  
بالغة . بينما تأخذ بطنه السمين بالاهتزاز ، وقد وضع يديه فوق صدره بصورة  
متصالبة ...

... وفجأة يدوي صوته مدممماً :

- مثلاً الدماغ : لو اخذته بين يديك ما يمكنك ان تصنعه : ان الادمغة قد  
وزعت بشكل متفاوت . ليت الجميع يمتلكون نفس القدر منه ... هذا الفتى  
يدرك والثاني لا يدرك بينما الآخر لا يملك رغبة في الادراك .

ويأخذ يقص عليّ بكلمات متمثرة تنفأ من حياته وهو جندي . ولم استطع  
ان ادرك اية فائدة لاقاصيصه . فهي دائماً عديمة المنفعة خاصة وانه لا يبتدأ  
بسردها منذ بدايتها بل من حيث تدعوه تخيلته .

- وهكذا نادى أمر الفرقة الجندي وسأله : بماذا أمرك الملازم ؟ فاجابه بكل  
شيء ، كما جرى فعلاً ، لان من واجب الجندي ان يقول الحقيقة ، وتأمله الملازم  
وهو يقف امامه كجدار من الحجر ، ثم تحول عنه وأغلق عينيه ..

فيزفر الطاهي باشمزاز ، ويدمدم :  
- كأنني كنت ادرك ماذا يجب على المرء ان يقول ، وماذا ينبغي الا يقول  
وقادوا الملازم إلى السجن ، أما والدته .. اوه ، ياربي الرحيم ، انت شخصاً لم  
يخبرني بشيء !

كانت الحرارة مرتفعة ، والمركب يهتز بلطف ووراء المركب كان رذاذ الماء  
يتطاير .. لقد تعودت اذني الهدوء فاجد فيه راحة لا متناهية .. وتمنيت ان أبقى  
بعيداً عن الجميع ، عن كل شيء ، عن العمل ، واجلس في مكان وارف الظلال ،  
ليس فيه رائحة المطبخ العائقة بالدهينات . وان أتأمل في شبه غفوة تلك الحياة  
المرهقة التي تطفو على سطح الماء .

أمرني الطاهي بقسوة :  
- إقرأ !

كان الخدم في المرتبة الأولى يرهبونه ، كذلك رئيس الخدم الهادى .  
كان الطاهي سموري يزعم بالخدم :

- ايها الخنزير ! اقترب مني يا لص ! ايها المتوحشون !

كان الخدم يعاملونه باحترام لكنهم كانوا يتعلقونه ويتزلقون اليه . وكان  
يزيد لهم مقدار اللحم ، ويستوضح عن احوال عائلاتهم وحياتهم في القرية . كان  
الوقادون الاوكرانيون ، السمينو الجثة ، المقطي الوجوه ، يعتبرون حثالة  
المركب . وكان الروسيون يطلقون عليهم لقب البقر . فكانوا يثيرون غضبهم  
بقولهم :

- يا بقرة ، يا بقرة ، ماذا في الحفرة ؟

كانت هذه العبارة تثير النقمة في نفس سموري . فينتفض ويتورد وجهه  
ويصرخ بالوقادين :

- لماذا تسمحون لهم بالهزء منكم ، بحق الجحيم ! هشموا لهم أفواههم ، يا لهم من أوغاد !

واتجه نحوه نوتي سمين الجسم ، انيق وقال له :

- الروسي والاوكراني ا لا فرق بينها .

فهجم عليه الطاهي واخذه من حزامه وياقته ، ورفعته عن الارض وجعل يطوح به في الهواء .

صرخ به :

- هل تريد ان اسحقك سحقاً ؟

وغالبا ما كانت تلك المشادات تنتهي إلى الشجار ، بيد انه لم يكن من أحد يجرؤ على ضرب سموري . لانه كان اولاً ذو قوة خارقة وثانياً لانه كان على علاقة طيبة مع امرأة القبطان ، وهي امرأة طويلة القصد ، بهية الطلعة يتدلى شعرها الاملس على وجهها المترجل .

كان يتناول كميات كبيرة من الفودكا ، لكنه لم يحدث ان ثمل مرة واحدة فهو يبدأ مع طلوع الصباح يجرع زجاجة على اربع دفعات ، ويحتسي الجمعة طوال النهار . ويأخذ وجهه بالتورد شيئاً فشيئاً ، وتوسع جدقة عينيه كالمدهوشين .

وفي بعض الاحيان كان في الامسيات يقنقد ارض المركب ويأخذ في تأمل المنظر النائي البعيد . وفي تلك اللحظات كان الجميع يرهبونهُ أما أنا فكنت أشعر بشفقة نحوه .

كان مساعد الطاهي ياكوف ايفانوفيتش يخرج من المطبخ والعرق يتصبب منه ، يلوح بيده من البعيد وهو يزغق :

- ان السمك قد تلف .

- إعمل منه سلطة .

- واذا اراد احدهم شوربة السمك أو عجة ؟

- هيئه له . ميلتهمون أي شيء تقدمه لهم .  
وفي بعض الاحيان كنت أجد الجرأة بالدنو منه .  
ويلتفت اليّ جاهداً ، ويستوضح :  
- ماذا تريد ؟

- لا شيء .  
- حسناً .

وذات مرة قلت له :

- لماذا يرهبك الجميع بهذا الشكل ؟ مع انك طيب القلب .  
وقد كانت دهشتي بالغة عندما وجدت ان سؤالى لم يثر غضبه .  
أجابني قائلاً :

- انني طيب القلب في معاملتك وحدك .  
ثم اردف في لهجة تأملية رقيقة :

- قد اكون طيب القلب مع الجميع ، بيد انني لا اظهر ذلك . ينبغي الا  
تظهر للناس انك طيب القلب . وإلا التهموك . فالناس يمتطون الرجل الطيب  
ويدوسونه كما يفعلون بقطعة ارض في مستنقع .. امضِ واتني بقليل من  
الجمعة .

وبعد ان افرغ الزجاجاة ، كأساً تلو كأس ، مسح شاربيه وقال :

- لو كنت اكبر بقليل لكنت قدعلمتك أشياء عدة ، انني ادرك شيئاً وشيئين  
لا باس بهما ، فلست بأبله . ينبغي ان تطالع فالكتب ستعلمك بكل ما ينبغي ان  
تعلم . هل تود شيئاً من الجمعة .

- انا لا احبها .

- حسناً ، لا تشرب ، فالشراب مصيبة عظيمة . والفودكا شيء من اعمال  
الشيطان . لو كنت غنياً لبعثت بك الى المدرسة . فالمرء الجاهل كالحيوان الذي

يضعون النير في عنقه ولا يستطيع إلا الاطاعة .  
واعطته إمراة القبطان كتاباً من مؤلفات جوجول . وقرأت له « الانتقام  
الشديد » وقد نالت اعجابي ، بيد ان سموري ، صرخ مغتاضاً :  
- مخافة وهراء ! قصة لطيفة . انني متأكد ان هنالك انواع اخرى من  
الكتب .

وانتشل الكتاب مني ، وآتاني بكتاب آخر من إمراة القبطان .  
امرني بصوت رقيق :

- خذ . إقرأ « تاراس » .. ما اسمه الثاني ؟ إقرأ الكتاب . انها تقول انه  
كتاب جيد . جيد بالنسبة الى من ؟ قد يكون جيداً بالنسبة اليها وريئياً بالنسبة  
إلي ، هل شاهدتها كيف قصت شعرها ؟ لماذا لم تقص أذنيها ؟

وعندما وصلنا الى المقطع الذي يتحدث فيه تاراس خصمه اوستاب للمبارزة ،  
ضحك الطاهي بصوت جهوري :

- ما قولك في ذلك ؟ احدهما يملك دماغاً والآخر يملك قوة ، يا للسخرية التي  
يكتبون . اولئك الاوغاد !

وأرهمف سمعه بانتباه زائد وهو يدمدم بين الحين والحين .

- آه ، هراء ! انت غير قادر على أن تشطر الانسان من كتفه حتى بطنه بطعنة  
واحدة ، هذا مستحيل . وليس بإمكانك ان ترفع انساناً على رأس حربة لأنها  
ستكسر . افلم أكن جندياً ؟

وقد اهاجته خيانة اندريه :

- ذلك الوحش ، ماذا ؟ من اجل إمراة ا تقو أ .

وعندما قتل تاراس ولده ، انزل الطاهي قدميه من على السرير ، وتشبث به ،  
وشرع يبكي . واخذت الدموع تمال على خديه وتتساقط على الارض . زفر  
وهو يدمدم :

— يا إلهي ، يا إلهي !  
وعلى حين غرة ، صرخ في وجهي :  
— اكمل قراءتك ، يا نسل الشيطان !  
وازداد نحيبه مرارة وشدة عندما هتف اوستاب بابيه قبل ان يموت :  
« ابتاه ، هل تسمعي ؟ » .  
وهتف سموري بصوت خافت :

— لقد انتهى كل شيء . كل شيء . هذه هي النهاية ؟ آه ، يا للنهاية اللعينة  
لقد كانوا في الواقع رجالاً في تلك الايام . وتاراس هذا ، بالفعل رجل حقيقي ،  
وحق الله !  
واخذ الكتاب من يدي ، وشرع يتفحصه بامعان ، وهو يغسل بدموعه  
الغلاف :

— الكتاب العظيم هو عيد حقيقي !  
وبعد ذلك قرأنا كتاب « ايفانهو » فنال ريتشارد بلانتاجنيه اعجاباه ، قال  
وقد اهاجته عاطفته :

— هذا ملك حقيقي .  
اما انا فقد وجدت القصة تبعث على الملل .  
كانت اذواقنا لا تلتقي ابداً ، فقد أعجبتني قصة « توماس جون » وهي ترجمة  
قديمة لكتاب « تاريخ توم جون ، اللقيط » .  
دمدم سموري !  
— سخافة ! ماذا يهمني في توماس هذا ؟ وماذا اريد منه ؟ لا شك ان هناك  
كتباً أخرى .

وذات يوم اخبرته أنه يوجد كتب اخرى ، كتب ممنوعة ، كتب سرية لا  
يقدر على قراءتها إلا في الكهوف بعد حلول الظلام .

فجحظت عيناه ، واهتز شارباه ، وقال :

– ما هذا بماذا تخرف ؟

– انا لا اخرف . لقد سألتني الكاهن عنها ذات مرة اثناء الاعتراف . وقد

رأيت من قبل أناساً يطالعونها وينتخبون .

فجددني الطاهي بنظرة كئيبة .

سأل :

– من الذي كان يبكي ؟

– امرأة كانت ترهف السمع الى القراءة . وهناك امرأة اخرى لاذت بالهرب

مندعورة .

فضيق من فرجة عينيه وزعق بي :

– استيقظ فانت تحلم

واردف بعد مدة من السكوت :

– من غير شك ، ينبغي ان يكون هناك شيء سري . في مكان ما ، لا شك

من وجوده .. بيد انني عجوز هرم .. ولست من ذلك النوع .. ومع ذلك

فعندما تتأمل في الأمر ..

كان طيلة ساعات يتكلم بهذه الطريقة من البلاغة ..

واجتاحتنى رغبة عارمة من غير ان اشعر بالقراءة . فكنت استسلم لها

معتبباً . ان ما تفلسفه الكتب شيء يبعث الراحة في النفس على خلاف الحياة

اليومية . وهذا ما كان يحول الحياة اتعس منها قبلاً ..

كذلك ازدادت رغبة سموري في الاستماع إلى الكتب ، فكانت يوقفني عن

العمل ، قائلاً ..

– بشكوف اتمال واقراً .

- يوجد كدسة من الصحون ينبغي عليّ ان أغسلها  
- سيفسها مكسيم .  
ويمسك بغسال الصحون الذي يفوقني سناً ويدفعه الى غسل الصحون . .  
فكان ينتقم هذا بتكسير الاكواب .  
وذات مرة حذرتي رئيس المركب بلهجة هادئة .  
- سأطردك من المركب .

وتعمد مكسيم ذات يوم في ترك الاكواب في المياه القذرة فعندما افرغت  
الحوض في البحر من فوق المركب سقطت في الماء .  
قال سموري لرئيس الخدم :

- انها غلطتي ، سجل ثمنها في حسابي .  
واخذ الخدم يمدجونني بنظرة شذرة . كانوا يقولون :  
- حسناً ، يا آفة الكتب ، ماذا تأتي من العمل لتستحق أجرك ؟  
فكانوا يتعمدون في افساد الصحون ويكدسون العمل عليّ . واحسست ان  
النهاية ستكون وبالأعليّ ، ولم أخطأ في ذلك .

ففي ذات مساء صعدت إلى المركب امرأة متوردة الوجه بصحبتها فتاة قد  
التفت بمنديل اصفر اللون وكانتا شبه ثملتين . واخذت المرأة تبتسم للجميع  
وهي تنحني ، تغمغم في كلماتها كالشمس في الكنيسة :

- المذرة يا اصدقائي فقد تناولت شيئاً قليلاً ، واقتادوني الى المحكمة حيث  
أطلقوا سراحي بعد ذلك . فاحتسيت قليلاً من الخمرة في ساعة فرحي .  
وكانت ضحكة الفتاة تنعالي ، وهي تلقي بنظرات مبهمة على الجميع ، وتدفع  
المرأة من أضلاعها :



- الى الامام ، أيتها الحفقاء ، إلى الامام !

هبطت إلى عنبر الدرجة الثافية واصبحت بمحاذاة غرفة ياكوف ايفانوفيتش وتوارت المرأة بسرعة ، وجلس سيرجي إلى جانب الفتاة وقد اندلقت شفته السفلى في تكشيرة فاجرة .

وبعد ان انتهيت من العمل كنت اتسلق الطاولة حيث انا ، اتى سيرجي وامسكني من يدي وقال :

- تعال ، سوف نزوجك .

كان ثملا ، فجزيت التملص من بين يديه ، بيد انه لطمني على وجهي :

- تعال !

واسرع مكسيم وهو ثمل كذلك ، وانطلق بي الاثنان الى حجرتهما . بيد ان سموري كان واقفاً بجانب الباب ، وقد انتصب ياكوف ايفا نوفيتش على العتبة امام الفتاة ، وهي تنهال على ظهره ضرباً بيديها :

كانت ترعق في صوت ثمل :

- دعني اذهب !

وانتشلني سموري من بين يدي سيرجي ومكسيم ، وامسكها من شعرها ضارباً الواحد بالآخر ..

صرخ بياكوف ، وهو يفلق الباب في وجهه .

ايها المتوحشون !

ثم دفعتني عنه ، وهو يزعق :

- امض من هنا !

عدوت إلى مؤخرة المركب . كانت الغمام تعبق في السماء ، والمياه داكنة ..

كانت الماء خلف المركب تتناثر شهباء في خطين ينتهيان عند الشاطئ الحففي ..  
وبعض المصابيح الحمراء لا تستطع بنورها شيئاً كانت تظهر نارة الى اليمين ونارة  
الى اليسار .. ثم تتوارى بسرعة فيبدو الليل اشد حلكة منه قبلاً ، واكثر  
قماعة .

واقبل الطاهي وجلس الى جانبي ، واطلق زفرة عميقة وهو يشعل  
سيجارته :

- هل قادوك الى تلك الفحلة ؟ الخنزيرة ! سمعتها حين هجما عليك .

- هل انقذتها من وحشيتها ؟

- من ؟ هي ؟

ثم انهمر في سيل من السباب لتلك الفتاة . واردف كلامه بلهجة كئيبة :

- سوف تضيق بين هذه الخنازير . فانا ارثي لك ايها الفأر الصغير ، انني  
ارثي للجميع ، ففي بعض الاحيان لا اعرف ما أفعل . هل اجنوا على ركبتني  
واكلهم قائلًا : « ماذا تفعلون ايها الوحوش ؟ هل انتم عميان ام ماذا ؟ ايها  
الجمال ! » .

وتعالى من المركب صفير حاد ، واطمت المرساة وجه الماء ، وشرع فالوس  
يتلألأ في قلب الظلمة مشيراً الى مكان رصيف الميناء ، بينما انوار اخرى باهتة  
تنبثق من قلب الظلمة .

دمدم الطاهي :

- غابة سكرى .. لقد كان ، في الماضي ، هناك موظف يدعى سكيروف ..  
سأنزل الى اليابسة .

كانت بعض النسوة من مقاطعة كاما متينيات البنية يحملن الحطب ، ويسرن

بخطوات وثيدة وهن يزرحن تحت عبء احمالهن ..  
وبينا كن يمشين باحمالهن ، كان الملاحون يشبثون بهن من سيقانهن  
وصدورهن وبطونهن فيصرخن ويبصقن في وجوههم ... ولقد شاهدت  
الكثير في كل رحلة .. ان كل شيء يقع في كل مرة نرسي فيها لنتمون  
بالحطب .

وتخيلت نفسي رجلاً هراماً قد عاش حياته على ظهر المركب فاني أعلم ما  
سيقع في الغد أو الاسبوع المقبل أو الخريف القادم .

واشافت نفسي البكاء ، واخذت الدموع تغلي في مقلي ، وقد احسست  
بالألم ، لكنني كنت أخجل من البكاء ، فانطلقت لكي اساعد الملاح بورين في  
تنظيف سطح المركب .

كان بورين شاحب الوجه ، مبهم الملامح ، يبقى منعزلاً في وحدته يجلس متأملاً  
بعمليه الصغيرتين . وذات مرة قال لي :

— في الواقع ان لقي ليس بورين ، بل أورين ، لان والدتي كانت فاسقة ولي  
اخذت كذلك . وهذا مصيرها . ان المصير لوحه معلقة في عنقك فاذا  
اردت ان تنهض فقد ينعك من ذلك .

وهذه المرة خاطبني ، وهو ينظف سطح المركب ، بلهجة هادئة :

— هل شاهدت كيف يرتمون على الفتيات ؟ تأمل ! باستطاعتك ان تضرم  
النار في غصن ندي اذا استمررت في محاولتك . وانا لا أحب ذلك يا أخي ..

ومرت بنا امرأة القبطان رافعة ثوبها كي تتقي المياه المتجمعة ، انها دائماً اول  
من ينهض في الصباح . رشيقه القامة متينة البنية ، ذات وجه صبوح ..  
واحسست برغبة في المدو خلفها لاقول لها من كل قلبي :

- احكي لي شيئاً ما ، أرجوك . .  
وتحرك المركب بهدوء ، مبتعداً عن رصيف الميناء .  
رسم بودين إشارة الصليب وقال :  
- ها نحن راحلون .

\*\*\*

في سارا بول غادر مكسيم المركب . ومضى في هدوء من غير ان يودع أحداً . وتبعته الامراة الجميلة التي تملو الابتسامة ثمرها ابدأ ، والفتاة البائسة ، الجاحظة العينين . بيد ان سيرجي قبع مدة طويلة راکعاً على ركبتيه امام حجرة القبطان يلثم مصراعي الباب ويلامسه بحبهته وهو ينتحب .

- ساحني ، لم تكن خطيئتي . انها هفوة مسكيم وحده .

كان البحارة وبعض المسافرين يصرخون انه كاذب . بيد انهم كانوا يشجعونه قائلين :

- هيا ، هيا ، إبقى ، سوف يساحكك بالطبع .

وصفح عنه القبطان . بعد ان رفسه بلطمة من قدمه جعلته يتدحرج على المركب . وبعد فترة وجيزة ، كان سيرجي يسرع الخطى على ظهر المركب حاملاً اطباق الطعام ، وهو يلقي على الجميع نظرة مقطبة ككلب اخذ نصيبه من الجلد .

وعوضوا عن مكسيم ببحار سابق من فياتكا ، ذو رأس صغير وعينين داكنتين ، وبمث به مساعد الطاهي توأ كي يذبح بعض الدجاج . فذبح اثنتين بينما انطلقت الاخریات من فوق سطح المركب . وعبثاً حاول الامساك بها فطار

منها ثلاثة من فوق حافة المركب . فاغتم الجندي كثيراً وجلس منتحباً على رزمة من الحطب أمام المطبخ .

سأله سموري بدهشة :

— ماذا جرى لك أيها الأبله ؟ من رأى جندياً ينتحب ؟

فأجابه الجندي برقة بالغة :

— انني لم أكن في صفوف المحاربين .

وفي ذلك كانت نهايته . فقد بقي المسافرون ، طوال نصف ساعة ، يسخرون

ويضحكون منه .

كانوا يأتون جماعات ، ويتأملون الجندي ويسألون «هو؟» ثم تجتاحهم موجة

عارمة من الضحك ..

بيد ان الجندي لم ينتبه في بادىء الأمر الى ما يفعلون فلم يكن يعير انتباهه

إلى ضحكاتهم .. وسرعان ما بدأت عيناه تقدحان شرراً فيأخذ يندندن بلهجة

أهالي فياتكا قائلاً :

— لماذا تمهلون في ؟ إذهبوا إلى الشيطان . وابقوا عنده إلى الأبد !

لكن لهجته تلك كانت تزيد من قهقهة القوم فيأخذون في شد قميصه ومزره

ويعملون على مضايقته من غير رحمة أو شفقة حتى جاء وقت الغداء . وبعد انتهاء

الغداء علق أحدهم قشرة ليمونة في طرف ملعقة خشبية ثم ربطها بجبل مزره .

فأخذت الملعقة تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار مع خطوات الجندي ففرق

الجميع في الضحك . ويضطرب هو كقارة في قفص من غير ان يخمن السبب .

كان سموري يراقبه من غير أن يقول كلمة واحدة ، وقد عطف عليه ولانت

ملاحظه .

وشمرت بالشفقة على ذلك الجندي .

سألت سموري :

– هل استطيع أن أخبره بشأن الملعقة ؟  
فهب رأسه علامة الإيجاب

وما كدت انتهي من إخباره عن السبب الذي يثير ضحك الجميع حتى اختطف الملعقة وضربها بالأرض وداس عليها ، ثم أمسكني من شعري بكلتا يديه . وشرعنا نتشاجر ، مثيرين السرور في أنفوس المشاهدين الذين سرعان ما التفوا حولنا .

وشق سموري طريقه بين هذه الجمهرة وأبعدنا عن بعضنا ، وشد على أذني وقد أمسك الجندي من أذنه . وتعالى ضحك الجمهور وهم يرون ذلك الشاب الفارغ القامة يحاول الإفلات من الطاهي ...

.. وافلت سموري الجندي والتفت نحو القوم كثور هائج ، ويسداه وراء ظهره وقد كشر عن أسنانه وأخذ شارباه يتراقصان .  
– كل واحد إلى مكانه ، اذهبوا أيها المتوحشون !  
والقى الجندي بنفسه مرة ثانية عليّ ، لكن سموري انتشله بيد واحدة ورفعته إلى المفصلة ووضع رأسه تحت الماء وضغط على جسمه كأنه دمية في يده .

واتى بعض الملاحين وهم يهرولون ، والتفت من جديد حولهم جمهرة مسن الناس . وظهر وجه رئيس الحدم فوق الجميع هادئاً رقيقاً كعادته .  
وقبع الجندي على رزمة من الحطب وخلع حذائيه بيسدين مضطربتين .. كانت المياه تتساقط من شعره المشعث ، الشيء الذي أثار موجة مسن الضحك عالية ..

زعق الجندي بصوت حاد :

– انتظروا قليلاً .. سوف أفضي على ذلك الصبي !  
قادني سموري أمامه بينما أخذ البحارة يفرقون تلك الحشود .  
وأقبل سموري ، بعد أن انصرف الناس ، إلى الجندي قائلاً :

– ماذا ستفعل بك ؟  
فلم يجر الجندي جواباً . كان يحدجني بنظرة قاسية وهو يرتعش بشكل غريب .

– عشرة أيام سجن ، يا ثرثار .  
فأجاب الجندي :  
– هراء ! لسنا هنا في الجيش !  
ولاحظت أن ذلك أفقد صواب الظاهي ، فتكورت وجنتاه وبصق . ثم انطلق راجعاً وهو يصطحبني معه . كانت فرائصي ترتعد من الخوف فأخذت استرق النظر إلى ذلك الجندي بيد أن سموري دمدم قائلاً :

– فقي مشاغب ؟ هيا بنا الآن .  
ومشى سيرجي في أثرنا ، وقال بصوت هامس :  
– انه يريد أن يقطع عنقه بالسكين !  
فصرخ سموري :  
– ماذا ؟  
واقفل راجعاً وهو يعدو

كان الجندي يسك بسكين عريضة الشفرة تستعمل لقطع رؤوس الدجاج وفصم أخشاب الموقد . وقد تجمهر جمع من الناس أمام الحجر يتأملون ذلك الرجل الصعلوك بشعره المبتل . كان أنفه الأفطس متورداً وقد اضطربت شفتاه وهو يفغر فيه ويدمدم من غير توقف :

– شياطين شيا .. ط .. ين !  
وعندما أخذ يصلح من وضع قميصه وأعادته تحت السروال قال رجل كان يقف يجانبي ، وهو يبعث بزفرة عميقة :  
– إذا كان سينتحر فلماذا يصلح من وضع قميصه ؟



فملا ضحك الناس . كان من المؤكد أن أحداً منهم لا يصدق قدرته على الانتحار . كذلك لم أصدق أنا ، بيد أن سموري بعد أن حدجه بنظرة عجلى ، أخذ الجمع يفرق ببطنه ، وهو يزعم :

– ابتعدوا من هنا ، أيها البلهاء !  
كان شغوفاً باستعمال هذه الكلمة كصيغة للجمع ، فهو يدنو من حشد ما ويخاطبهم جميعهم بقوله :  
– ابتعدوا ، أيها البلهاء .  
كل ذلك كان مدعاة للتسلية ، والواقع أن ذلك اليوم كان الناس جميعاً قد أصبحوا رجلاً واحداً أبلهاً .

وبعد أن فرق ذلك الحشد اقترب من الجندي وأمسك به من يده :

– اعطني هذه السكين .  
فأجابه الجندي بينما كان يعطيه السكين :  
– لا جدوى من ذلك الآن .  
ناولني الطاهي السكين ثم دفع بالجندي إلى داخل الغرفة .  
– تمدد وخذ قسطاً من الراحة . ماذا جرى لك ؟

وقبع الجندي من غير أن ينبس ببنت شفة .  
– سوف يأتيك بشيء من الطعام مع قليل من الفودكا . هل تحمسي الفودكا ؟

– قليلاً .  
– إياك أن تلمسه . فليس هو من هزأ بك . هل تسمع ؟ أنا أقول لك بأنه ليس هو من هزأ بك .

فاستوضحه الجندي بلهجة كثيبة :  
– لماذا يؤلونني بهذه الصورة ؟

فركن سموري إلى الصمت برهة ثم قال :

- هل تعتقد إنني أعلم لماذا ؟  
ثم عدنا أدراجنا سوية إلى المطبخ .  
ونحن في الطريق . همس سموري قائلاً :  
- لقد وجدوه نموذجاً فقيراً يائساً من غير شك . هل شاهدت ذلك ا لقد  
يحملوك على الجنون . انهم قادرون على ذلك .. !  
وعندما أحضرت قليلاً من الخبز واللحم والفودكا إلى ذلك الجندي . كان  
يجلس منتحباً مثل النساء هازأ جسده إلى الورا والامام .. وضعت الأكل على  
الطاولة ثم قلت :

- 'كل' .

- أوصد الباب .

- حتى تسود الظلمة .

- أوصد الباب وإلا عادوا إليّ .

ومضيت .. كنت أكره ذلك الجندي . فهو لم يبعث في قلبي أية شفقة .  
وهذا ما كان يزعجني . لأن جدتي كانت تخاطبني دائماً :

- ينبغي أن تشفق على الناس ... اولئك التعساء الذين يكدون طوال

حياتهم ...

وعندما بلغت المطبخ أقبل عليّ الطاهي مستوضحاً :

- هل ناولته الأكل ؟ حسناً . كيف حاله الآن ؟

- إنه ينتحب .

- يا للشيطان ويدعي أنه جندي ؟

- انني لا أشعر بشيء من العطف تجاهه .

- ماذا تقول ؟

- وينبغي على المرء أن يعطف على الجميع .

فأمسكني سموري من يدي وضمني اليه وهو يقول بلهجة رقيقة :  
- انت لا تقدر أن تجبر نفسك على الشعور بالعطف ، والكذب نتيجة سيئة .

هل تسمعي ؟

وأقلت يدي - أردف مقطباً :

- هذا مكان ليس لك . خذ لفاقة .

.. في الليالي الحارة كان الجو لا يحتمل تحت السقف المديني الذي يمتص الحرارة طوال النهار . فكان البحارة يجتمعون في مكان ما ، وينامون حيث يحلو لهم . وعندما يتوقف المركب كان البحارة يوقظونهم بالضرب والرفس :

- هيا ، نظفوا المكان ا إرجعوا الى أماكنكم !

فينهضون ، ثم يتفرقون هنا وهناك والنماس يعتمل في أعينهم .

كان ما يميز البحارة عن سائر الركاب ثيابهم وحدها . ومع ذلك فقد كانوا يصدرون اليهم الاوامر كأنهم رجال شرطة .

كان الشيء الذي يافئ الأنظار أكثر من أي شيء آخر هو استسلام الركاب المفجع .. فقد كنت أشعر ان هؤلاء الناس لا يعلمون الى أين يسرون ، وكانت وجوههم تعبر انهم غير مباليين بالجهة التي سيقودهم اليها المركب ..

وذات ليلة ، بعد أن انتصف الليل ، تحطمت إحدى الآلات بانفجار شديد مدور . وسرعان ما غص سطح المركب بسحابة كثيفة مسن الدخان الأبيض اندفع من غرفة الآلات ...

كنت أرقد بالقرب من غرفة الآلات على المائدة التي أغسل فوقها الصحون وعندما استيقظت على دوي الانفجار كان كل شيء قد عاد الى السكون والهدوء . وأخذت الآلات تبعث بصوت يشبه الروشات وأصوات المطرقة يقرقع نغمة مسرعة . ولم تمضِ بضعة ثوانٍ حتى كان الركاب على سطح المركب

يزعقون وينبسون بصورة مرعبة فعلاً • ويصطدمون ببعضهم بعضاً ويتعثرون بالحوائط والصرر ، وهم يستغفرون الله والقديس نيقولا ، كان المشهد مرعباً ، بيد انه يبعث على الاهتمام • وأخذت اعدو خلفهم كي القي نظرة وأدرك ما جرى •

لقد كانت تلك الحادثة في ليلة تنذر بالخطر التجربة الأولى في حياتي • لذلك أخذت اشعر أن ذلك كله لم يكن غير خطيئة • • وبقي الناس ينطلقون من هنا وهناك في شبه جنون • وأسرع مسافروا الدرجات الأولى فأطأوا برؤوسهم على السطح فقفز أحدهم وتبعه الباقيون • وزعق سيد ضخم الجثة وهو لا يرتدي غير سروال واحد ضارباً صدره بقبضة يده :

— هل هذا مركب ؟ أيها الأبالسة !

وقوائط البحار هنا وهناك ، يحرون الناس من يقاتهم ويلكونهم على رؤوسهم ويدفعونهم جانباً • وانطلق سموري بتناقل وقد تدثر بمعطف ثقيل •

أخذ يزعق في وجه الجميع بصوت أشبه بالرعد :

— ألا تخجلون قليلاً • هل فقدتم عقلكم ؟ إن المركب شديد فهو لا يفرق •

هنالك صخرة في مجرى النهر • •

وشرع يهوي بقبضته على رؤوس الركاب فينطرحون على الأرض

كالأكداس .

وقبل ان تخفت الضجة انطلقت سيده ترتدي قبعة على رأسها ممسكة بلمعة

في يدها تهزها في وجه سموري ، وتصرخ :

— كيف تجرؤ على ذلك ؟

وأمسك بها رجل ، ودفعها إلى الوراء .

قال في تبرم ، وهو يقرص شاربيه :

— اتركه وشأنه ، هذا المتصلب الرأس •

وهزّ سموري بكتفيه . وقد اعتراه شيء من الاضطراب والتفت نحووي قائلاً:  
- هل أعجبك ذلك ؟ ماذا تريد مني هذه المرأة ؟ انني لم أشاهد وجهها من  
قبل أبداً .

لقد شاهدت مثل هذه الحادثة المرعبة مرتين خلال الحريف وفي تلك المرتين لم  
يكن الخطر السبب الحقيقي ، بل الخوف المطلق من ذلك الخطر . وفي المرة  
الثالثة القى المسافرون القبض على لصين كان أحدهما يتنكر في ثياب راهب .  
واخذوهما بعيداً عن أعين البحارة وانهاوا عليها ضرباً ولكأ طوال  
ساعة كاملة ، وعندما أنقذهما البحارة في النهاية . هرع الجمهور واطبق عليهم زاعقاً:  
- لصوص يحمون لصوصاً ، نحن نعرف طيننتكم !

- اتم كذلك لصوص ، لأجل ذلك تخافون ان يفتنوا منكم !  
لقد ضرب اللصان ضرباً مبرحاً ، حتى انها كنا عاجزين عن الوقوف على  
اقدامها حين اخذتها الشرطة في المحطة التالية .  
كانت أمثال هذه الحوادث تقع غالباً ، وبطريقة خطيرة تبعث على التساؤل  
ما إذا كان الناس اشراراً أم طيبين بالفطرة ..

وإذا ما سألت الطاهي هذا السؤال . فانه سيحجب وجهه بدخان لفاقته  
ويحجب بلهجة ملؤها الضيق :

- وماذا يعنيك في ذلك ؟ الناس هم الناس . واحد ذكي وآخر أبله . ينبغي  
أن تطالع الكتب وتقرأ وتكف عن تعذيب نفسك . وسوف تجد الأجوبة في  
جوف الكتب . إذا كانت هذه الكتب من النوع الجيد .  
لم يكن سموري يحب الكتب الديلية أو سير القديسين . كان يقول :  
- انها تعني الكهنة ، أو أبناء الكهنة .

وذات مرة عازمت أن أقوم بخدمة طيبة نحوه . فقررت أن أقدم له كتاباً .  
فاشترت في قازان كتاب « كيف أنقذ جندي حياة بطرس الاكبر » . وكان  
الطاهي في ذلك اليوم مثلاً وقد عازمت أن أقرأ له تلك «الاسطورة» قبل ان

اقدمها له . وقد أعجبني بشكل غريب ، فهي في غاية الوضوح والبساطة ..  
وكنت متأكداً من ان هذا الكتاب يبعث في نفسه الغبطة العميقة .  
وما كدت ان اتاوله إياه حتى اخذه بيده ومن غير أن يقول كلمة واحدة قد  
قذف به في النهر .

قال في غلاظة :

- هذا كتابك ، أيها الابله ! انني هنا أعلمك طوال الوقت وانت مثل كلب  
الصيد لم تزل تلتهم المصافير .  
ولطم الارض بقدمه ، وزعق بي :  
- اي نوع من الاسماء تسمي هذا الكتاب ؟ لقد قرأت هذه السخافات  
جميعها ! هل ما كتب فيه صحيح ؟ تعال ، قل لي !

- لست ادري .

- حسناً . انا اعلم . لو انهم اقتطعوا رأس اول فتى ، لكان تدحرج على  
الدرج وكان الآخرون ما جرؤوا على الذهاب الى مخزن العشب ليس الجنود بحمقى  
كان باستطاعتهم ان يضرمو النيران في العشب اليابس ويضعون حداً لذلك .  
هل تسمع ؟

- اجل .

- اذن ، هذا ما يقع . انني اعلم كل شيء عن ذلك القيصر بطرس ، ان شيئاً  
من هذا لم يقع له مطلقاً ، اذهب من هنا !  
وتأكدت ان الطاهي كان مصيباً . بيد انني ما زلت معجبا بالكتاب  
وابتعت «الاسطورة» وطالعتها مرة اخرى فدهشت لذلك اذ وجدت ان الكتاب  
لا يساوي شيئاً في الواقع . فخبجلت من ذلك ، واخذت ارنو الى الطاهي باحترام  
كبير واخلاه متزايد ، بينما كان هو لا ينفك يقول :

- ماذا ! ينبغي ان تدرس ، هذا المكان لا يناسبك !

وقد احسست فعلاً ان هذا المكان لا يناسبني ، وكان سيرجي يعاملني

بكرامية . وقد ضبطه مرات عدة يسرق أدوات الشاي من على طاولتي ويبيعها  
إلى المسافرين ...

وقد نبهني سموري أكثر من مرة .

– حذار من أن تترك الفرصة للخدم كي يسرقوا السكاكين والشوك من على  
مائدتك .

كانت أشياء عدة تقع على سطح المركب تنذرني بالسوء والشر . لذلك أخذت  
أفكر في ترك المركب في المحطة المقبلة والهرب إلى الغابات . بيد أن سموري كان  
يحول دون ذلك ، وهذا ما جعله يكبر من أهميته عندي . لكن حياتي على ظهر  
المركب انتهت بنجاة نجاة مجتازة . ففي ذات مساء ، وكنا نبحر من قازان إلى  
نيجني نوفجورود ، بعث الناظر في طلبي . وعندما مثلت أمامه أوصد الباب  
وتوجه إلى سموري ، الذي كان يقبض علي كرمي مكتئب الوجه وخاطبه قائلاً :  
– هذا هو .

ثم سألتني بجدة :

– هل كنت تعطي الملائق والسكاكين وحوائج أخرى إلى سيرجي ؟

– لقد كان يأخذها بنفسه عندما أكون غائباً .

فقال الناظر بلهجة هادئة :

– انك لم تشاهده يقوم بذلك ، بيد انك كنت تعلم انه يفعل ذلك .

لطم سموري ركبته بقبضة يده ، ثم حك مكانها وقال :

– مهلاً ، فليس من شيء يدعو إلى العجلة

ثم طرق مفكراً

تأملت الناظر من خلف نظارتيه ، واخذ هو يتحدث بي ..

واستوضح سموري بعد فترة من السكون :

– هل نقدك سيرجي فلوساً ؟

– كلا

– مطلقاً ؟

مطلقاً .

فالتفت سموري إلى الناظر وقال :

- انه لا يكذب .

فأجابه هذا الأخير بلهجة هادئة :

- ذلك لا يغير من الأمر شيئاً .

وعندما وصلت إلى نجني نوفجورود انهسى الناظر حساباته معي . فنقصه في شيئاً يشبه ثمانية روبلات ، وكان هذا المبلغ أول مبلغ كبير أربحه في حياتي .

التفت بي سموري وهو يفادرنى

- يجب أن تبقي عينيك مفتوحتين في المستقبل . هل تسمع ؟ ينبغي ألا

تصبح صياداً للذئاب !

وملأ يدي بكية ضخمة من التبغ .

- خذ هذا ، انه عمل بديع قد أتاه ابني من أجلي في المعمودية . حسناً !

الوداع . يجب أن تقرأ الكتب ، وهو خير عمل تأتيه .

وأمسكني من تحت ابطي وطوح بي في الفضاء ثم قبلني ورفعني على رصيف المرفأ . واحسست بشيء من الاسف على فقدته . ولم أستطع أن أحبس ذموعاً الا بصعوبة متناهية . وانا اتأمل ذلك الرجل الضخم الجثة ، الوحيد للذي يتوسح طريقه بين الجمالين قافلاً الى المركب ...

ووقفت لحظة وانا اتأمل هؤلاء الناس الذين لفظتهم الحياة وشاءت الصدف

ان التقي بهم في السنوات الأخيرة !

انتهى



